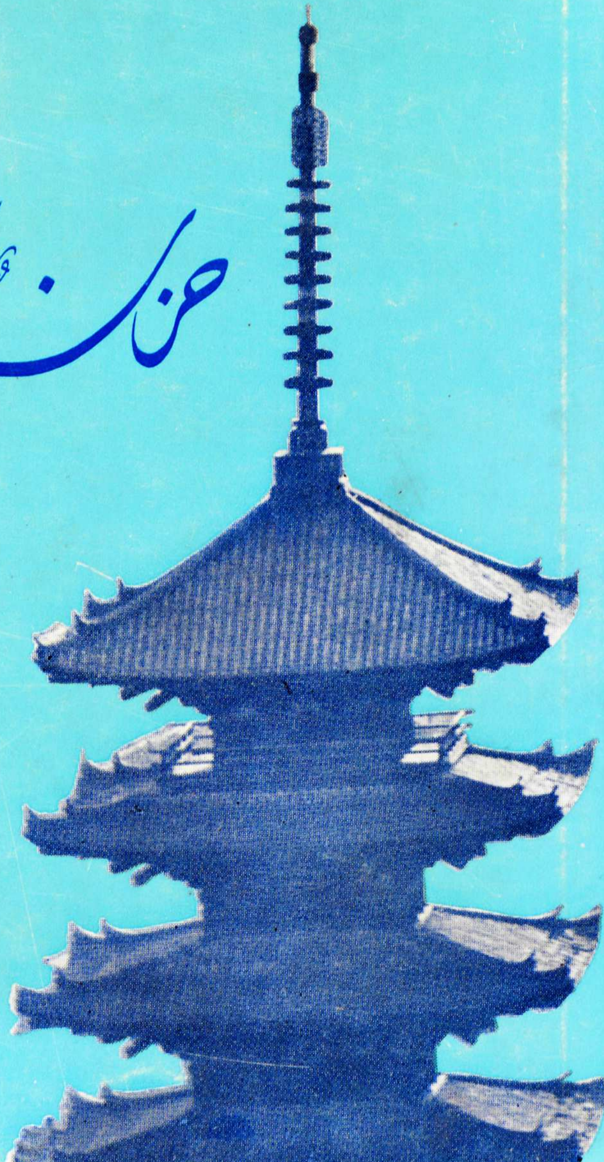
ياسوناري كاواباتا

حزن وجمال



نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل إدريس

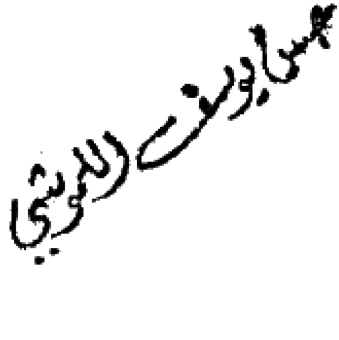
دار الآداب

ياسوناري كاواباتا

حزن وجمال

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت



الطبعة الأولى

آذار (مارس) ١٩٨٣

أجراس آخر السنة

كانـت خمس كراسي دوّارة مصفوفـة بحـذاء النافـذة في الحافلة البانـورامية لقطـار « كيوتـو » السريع . وقـد لاحـظ « أوكي توشيو » أن آخر كرسيّ في الصفّ كان يدور على مداره برفق مع اهتزازات القطار . ولم يكن يستطيع أن ينزع عينيه عن ذلك الـكرسيّ . وكانـت مقاعـد الصفّ ، حيث كان جالساً ، واطئة وثابتة ، ولم تكن طبعاً تدور على مدارها .

كان أوكي وحده في الحافلة . كان مستغرقـاً بعمـق في مقعده ، ينظر قبالته الكرسيّ وهو يدور . ولم يكن يدور دائماً بالاتجاه نفسه ولا بالسرعة ذاتها . بل كان يتفق له أن يحتدم ، ثم تتباطأ الحركة . وكان يتوقّـف أحياناً ويعود الى حركته باتجاه معاكس. وكان أوكي، وهو يرى الى هذا الـكرسي يدوّم على هذا النحو في الحافلة التي كان جالساً فيها ، يُـحسّ بشعور من الوحدة ، فتتعاقب على ذهنه أفكارٌ مختلفة .

كان هو اليوم التاسع والعشرين من كانون الأول . وكان أوكي متوجّـهاً الى كيوتو ليسمع فيها أجراس آخر السنة .

كم مرّ من السنوات على هذه العادة التي كانـت تدعـو أوكي ، عشيّـة يوم رأس السنـة ، أن يستمـع الى صلصلـة

الأجراس منقولة عبر الاذاعة ، تعلن الانتقال من عام الى آخر ؟ وكم مضى على هذا البرنامج الإذاعي ؟ إن أوكي لم يكن على الأرجح قد فوّت قط الاستماع إليه ولا الى تعليقات المذيعين الذي كان يقدّمون ، واحداً بعد الآخر ، الأجراس الشهيرة للأديرة المنتشرة عبر البلاد . وإذ كانت السنة المنتهية على وشك أن تفسح المجال للسنة الجديدة ، فقد كان المذيعون يميلون في تعليقاتهم الى النطق بالعبارات الجميلة بلهجة خطابيّة . وكان جرس قديم لصومعة بوذيّة ، وقد توقّف وقتاً طويلاً ، يعود الى القرع ، وكان الصدى الذي يخلّفه يذكّر بالزمن الذي ينقضي ويجسّد روح اليابان القديمة . وكانت تتبع أجراسَ الأديرة الواقعة في شمال البلاد أجراسُ « كيوشو » ، ولكن كلّ عشيّة ليوم رأس السنة كانت تنتهي مع أجراس أديرة كيوتو . وكانت الأديرة من الكثرة في كيوتو بحيث أن الاذاعة كانت تنقل أحياناً أصوات الأجراس المتعدّدة ممتزجة .

في اللحظة نفسها ، كانت زوجته وابنته تُعدّان في المطبخ مختلف المآكل احتفالاً بالعام الجديد ، وتنظّفان البيت قليلاً ، وتهيّئان أثوابهما الكيمونو أو ترتّبان الأزهار . وإذ تنهمكان في مشاغلهما ، كان أوكي يجلس في قاعة الاستقبال ويستمع الى الراديو . وفيما تقرع الأجراس ، كان يُلقي ، في بعض التأثّر ، نظرة الى الخلف على العام الذي ينصرم . ووفق السنوات ، كان الانفعال الذي يُحسّه يتبدّى عنيفاً أو مؤلماً . وكانت الحسرة والحزن يمزّقانه أحياناً . غير أن صليل الأجراس

كان دائماً ما يجد في قلبه صدى ، حتى ولو كانت العاطفيّة التي كان يميّزها في أقوال المذيعين ، كما في أصواتهم ، تنفّره . من أجل هذا كانت تغريه ، منذ سنوات طويلة ، فكرةُ التوجّه الى كيوتو يوم الواحد والثلاثين من كانون الثاني لكي يستمع فيها مباشرة ، وليس بواسطة الاذاعة ، أجراس الأديرة القديمة .

وقد جاءته الفكرة فجأة ، في نهاية ذلك العام ، فاتخذ طريقه الى كيوتو . وكان يأمل كذلك ، في قرارة قلبه ، أن يلقى ثانية ، في كيوتو ، « أوينو اوتوكو » التي لم يكن قد رآها منذ سنوات طويلة ، وأن يستمع الى الأجراس في صحبتها . فمنذ أن أقام أوكي في كيوتو ، ومنذ أن حقّق له رسمه بالأسلوب التقليدي بعض الشهرة ، ظلّ عملياً بلا أنباء عن أوتوكو . ولم يكن يفكر بأنها تزوّجت .

وإذ استجاب أوكي لهاجسٍ من هواجسه ، وأذ لم يكن في طبعه أن يحدّد تاريخاً مسبقاً لكي يحجز تذكرته في القطار ، فقد توجّه الى محطة يوكوهاما وصعد ، بلا حجز ، الى الحافلة البانورامية لقطار كيوتو السريع . وبسبب أعياد آخر السنة ، فقد كان متوقّعاً أن يغصّ القطار بالركاب على خطّ توكيدو ، ولكن أوكي كان يعرف عامل القطار العجوز وكان يقول لنفسه إن هذا سيجد له مقعداً .

وكان أوكي ، الذي كان ينهض متأخراً من نومه ، يقدّر جداً هذا القطار الذي كان يغادر طوكيو ويوكوهاما بُعيد الظهر ، ويبلغ كيوتو مساء ، وفي طريق العودة ، ينطلق

كذلك في نهاية النهار من أوساكا وكيوتو . وكان يستقلّه دائماً حين كان يتوجّه الى كيوتو ، وكانت الفتيات المكلّفات بالسهر على راحة المسافرين في الدرجة الثانية يعرفنه كلّهن تقريباً بالوجه .

وإذ صعد القطار ، وجد حافلة الدرجة الثانية فارغة ، على غير توقّع . لعل المسافرين كانوا قلّة في التاسع والعشرين من كانون الأول ، ولم تكن الحافلة غاصّة كما في الثلاثين والواحد والثلاثين .

وبينما كان ينظر الى الكرسي يدور على مداره ، قاده خيط أفكاره فجأة الى التساؤل عن « القَدَر » ، حين أتاه العامل العجوز بالشاي ، فسأله :

ـ هل أنا وحدي ؟

ـ نعم . ليس هناك إلا خمسة مسافرين أو ستة .

ـ هل ينتظر أن يغصّ القطار في يوم رأس السنة ؟

ـ لا ، بل سيكون شبه فارغ . هل تنوي العودة ذلك اليوم ؟

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك . . .

ـ أنا لا أقوم بالخدمة يوم رأس السنة ، ولكنني سأتدبّر الأمر لتُحاط بالعناية الكافية . . .

ـ سأكون معترفاً لك بهذا الجميل .

وحين غاب العامل ، عانق أوكي المقصورة بنظره فلمح محفظتين من الجلد الأبيض تحت آخر مقعد في الصفّ . كانتا مربّعتين وأقرب الى الرقّة ، من طراز جديد ، وجلدهما

الأبيض مبرّق بلطخات صفر مائلة الى السمرة . كانتا محفظتين من نوعٍ مجهول في اليابان ، متاعاً ذا جودة خاصة . وكان ثمة كذلك كيس كبير من جلد النمر ، موضوعاً على كرسيّ . لا بدّ أن صاحبي هذا المتاع ، وهما لا شك من الأميركيين ، في الحافلة ـ المطعم .

وفيما وراء النافذة ، كانت أجمات من شجر تطفو في ضباب كثيف كان يبدو حارّاً . وفوق الضباب ، كان شعاع خفيف ، يبدو صاعداً من الأرض ، يضيء سحباً بعيدة بيضاء . ولكن السماء كانت تنقشع ما أمعن القطار في التقدّم . وما لبثت أشعة الشمس أن غمرت المقصورة ، عبر النافذة . وإذ مرّ القطار قريباً من جبل مزروع بالصنوبر ، استطاع أوكي أن يرى الأرض منثورة بإبَرٍ جافّة . كان ثمة أوراق غيضة من الخيزران مصفرّة كليّاً . وكانت موجات لامعة تأتي فتتكسّر على لسانٍ صخري معتم .

عاد من الحافلة ـ المطعم زوجان من الأميركيين في منتصف العمر ، وحين اجتاز القطار « نومازو » وبرز جبل « فوجي » ، وقفوا أمام النوافذ ولم يكفّوا عن التقاط الصور . ولكن حين ارتسم جبل فوجو بوضوح وأصبح السهل منبسطاً عند قدميه ، بدا أن التصوير قد أتعبهم فأولوا النافذة ظهورهم .

كان ذلك النهار الشتائي يوشك أن ينتهي . وقد تابع أوكي بعينيه دائرة نهرٍ ذي لون فضّيّ باهت ، ثم رفع رأسه موجّهاً بصره الى الشمس الغاربة . وقد تسلّلت آخر أشعة

الشمس ، بيضاء باردة ، في الشقوق القوسية الشكل التي كانت تمزّق السحائب السوداء ، ومكثت فيها طويلاً قبل أن تختفي . وفي المقصورة التي أضيئت فيها المصابيح ، ارتدّت الكراسي الدوّارة نصف ارتداد على نفسها ، على أثر حركة مفاجئة من القطار ، ولكن آخر كرسيّ في الصف ، استمرّ وحده يدور بلا توقف .

حين وصل أوكي الى كيوتو ، توجّه الى فندق مياكو . وإذ فكّر بأن أوتوكو يمكن أن تأتي لتراه في الفندق ، طلب غرفة هادئة . وبدا له أن المصعد يصعد ستة طوابق أو سبعة ، ولكن لما كان الفندق قد بُني درجاتٍ على المنحدر الصلب لروابي « الشرق » ، فقد ألفى نفسه عند الطبقة السفلى بعد أن اجتاز ممرّاً طويلاً . وكان صمت كامل يسود الغرف القائمة على الجانبين حتى أنها كانت تبدو فارغة . ولكن أوكي سمع فجأة ، بُعيد الساعة العاشرة ، ضجّة أصوات أجنبية في الغرف المجاورة لغرفته . فسأل خادم الطابق في هذا ، فكان الجواب : « إنهما عائلتان تعدّان اثني عشر ولداً » . لم يكن الأولاد يتكلمون بصوت مرتفع في الغرف ، بل كانوا يروحون ويغدون من غرفة الى أخرى ، ويركضون ويأتون حركات المجانين في الممرّ . لماذا كان من حظّ أوكي ، والفندق شبه خالٍ ، أن تكون غرفته محاطة على هذا النحو بمسافرين صخّابين الى هذا الحدّ ؟ على أن أوكي فكّر بأن الأولاد لا بدّ أن يذهبوا في النهاية للنوم ، فاستخفّ بالأمر . ولكن الأولاد ، الذين لا شك في أن السفر قد أثار أعصابهم، لم يهدأوا على

الاطلاق . وكان وقع أقدامهم الراكضة في الممرّ يثير نفور أوكي الى أبعد حدّ . فانتهى به الأمر الى الخروج من سريره .

لقد زادت الصيحات المنطلقة من الغرفتين المجاورتين بلغة أجنبية من إحساسه بالوحدة . وعاودت ذهنه صورةُ الكرسّي الدائر على مداره في الحافلة البانورامية ، فخيِّل اليه انه يرى وحدته ذاتها تدوِّم بصمتٍ في قلبه .

كان أوكي قد قصد كيوتو ليستمع فيها الى أجراس آخر العام وليلتقي ثانية ـ أوينو أوتوكو ، ولكنه تساءل مرة أخرى ما عساها كانت خطّته الحقيقية . لئن كان متيقناً بأنه سيسمع الأجراس ، فهو لم يكن متأكّداً قط أنه سيستطيع أن يلتقي اوتوكو . أكان يمكن للأجراس ألاّ تكون إلاّ حجّة ، وأن رغبته الوحيدة ، في مكنون قلبه ، هي أن يلتقي أوتوكو ؟ لقد جاء الى كيوتو ليستمع فيها الى الأجراس بصحبة اوتوكو . ولم يكن يعتقد أن ذلك كان أملاً غير قابل للتحقُّق . ولكن أعواماً عديدة كانت تفصل بين أوكي وأوتوكو . ثم إنه لم يكن مستحيلاً ، بالرغم من أن أوتوكو على ما يبدو لم تتزوّج ، أن ترفض أن ترى ثانيةً عشيقها السابق وأن تقبل دعوة منه . وتمتم أوكي : « لا ، ليس امرأة مثلها ! » ولكنه كان يجهل إن كانت هذه المرأة قد تغيّرت أم لا .

وكان يبدو أن أوتوكو قد استأجرت جناحاً بالقرب من دير ، وكانت تعيش فيه مع فتاة كانت تلميذتها ، وكان أوكي قد رأى صورة لها في مجلّة فنّية ؛ ولم تكن تسكن شقّة من غرفة أو غرفتين ، بل كانت تنزل بيتاً حقيقياً ذا غرفة واسعة من

طراز ياباني كانت تتخذه مُحتَرَفاً . وكان ثمة أيضاً حديقة فتّانة . وفي الصورة ، كانت أوتوكو منحنية وفي يدها مرقاش ، وقد عرفها أوكي من جبينها حتى قصبة أنفها . لم تكن قد سمنت إطلاقاً مع السنوات ، وكانت أرشق مما عرفها . وإذ رأى أوكي هذه الصورة ، وقبل أن يعود الماضي الى ذاكرته ، إستشعر ندماً يتأكّله حين فكّر بأنه قد انتزع هذه المرأة من مباهج الزواج والأمومة . إنه بالطبع سيكون الوحيد الذي يستشعر ذلك ، بين جميع الذي سيرون هذه الصورة ، فأولئك الذين لم تكن أوتوكو في نظرهم إلا أجنبية لن يروا فيها إلاّ فنانة ذهبت تقيم في كيوتو وأصبحت واحدة من جميلات هذه المدينة النموذجيات .

واذ وصل أوكي مساء التاسع والعشرين ، عزم على أن يتلفن لأوتوكو في اليوم التالي الثلاثين من كانون الأول أو أن يذهب لزيارتها . ولكن بعد أن أيقظه ضجيج الأولاد صباح اليوم التالي ، غمره نوع من الخجل وأخذته التردّدات . وجلس أمام طاولته عازماً على أن يرسل إليها أولاً رسالة مستعجلة . وفيما هو جالس ، محدّد البصر في الورقة البيضاء التي قدّمها له الفندق ، فكّر بأنه لم تكن به أيّة حاجة ليرى أوتوكو ثانية ، وأنه يكفيه أن يستمع وحده الى أجراس آخر السنة وأن يعود بعد ذلك الى بيته .

وكان أوكي قد استيقظ في ساعة مبكرة على صخب الغرفتين المجاورتين ، ولكنه عاد الى النوم بمجرد أن خرجت العائلتان . وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة حين استيقظ

ثانية .

وكان يعقد بهدوء ربطة عنقه حين تذكّر كلمات أوتوكو : « سأعقدها لك . دعني أفعل . . . . » كانت أوتوكو في السادسة عشرة ، وكانت هي الكلمات الأولى التي كانت قد نطقت بها بعد أن جعل منها إمرأة . ولم يكن هو قد قال شيئاً بعد . لم يكن قد وجد ما يقوله . كان قد جذبها برقّة بين ذراعيه ، ولامس شعرها ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة . وإذ ذاك ، تخلّصت أوتوكو من ضمّته ، وبدأت قبله في إرتداء ثيابها . ونهض فارتدى قميصه ، وإذ بدأ بعقد ربطة عنقه ، فاجأ نظر أوتوكو محدّقاً فيه . لم تكن تبكي ، ولكن عينيها كانتا نديّتين برّاقتين . وتَجنّب أوكي نظرها . وكانت أوتوكو ، قبل ذلك بلحظات ، حين قبّلها ، قد احتفظت بعينيها مفتوحتين ، حتى أغمضهما لها بقبلة وضعها عليهما .

كان ثمة شيء مُداعبٌ وطفولي في صوت أوتوكو حين عرضت عليه أن تعقد ربطة عنقه . وكان أوكي قد وجد في ذلك عزاء . كم كان هذا العرض غير متوقّع ! كان ذلك بالنسبة للفتاة الشابة أكثر من طريقة للصفح ، كان قبل كل شيء وسيلة لكي تهرب من نفسها ، وكان ليديها حركات رقيقة وهي تداعب ربطة العنق ، بالرغم من أنها بدت تعاني بعض المصاعب لعقدها .

سألها أوكي : ـ أتعرفين كيف تعقدينها ؟

ـ أعتقد أن نعم . لقد رأيت أبي يفعل .

كان والد أوتوكو قد مات وهي في الثانية عشرة .

وجلس أوكي على كرسي ، فأخذ أوتوكو على ركبتيه ورفع ذقنه ليسهّل لها المهمّة . وتقوّست أوتوكو قليلاً ، وحلّت مرتين أو ثلاثاً العقدة التي كانت قد بدأتها . ثم نزلت عن ركبتي أوكي ، وأمرّت أصابعها على كتفه اليمنى ونظرت الى ربطة العنق قائلة له: «هي ذي، ايها الولد الصغير. لقد عقدتها . فهل هي جيّدة على هذا النحو ؟ » .

نهض أوكي وذهب أمام المرآة . كانت ربطة عنقه ممتازة . وبراحة يده ، مسح بقوة وجهه المندّى بالعرق . إنه لم يكن يستطيع ، بعد أن اغتصب هذه الصبيّة ، أن يحتمل رؤية وجهه بالذات . وقد رأى في المرآة وجه الفتاة يقترب منه . فأخذته نضارته وجماله الحادّ . واستدار أوكي ، وقد أذهله هذا الجمال الذي لا يُصدّق . ووضعت أوتوكو يداً على كتفه ، حانيةً برفق رأسها على صدره ، وقالت له ببساطة : « أحبّك » .

وكان أوكي قد استغرب أن تدعو صبيّة في السادسة عشرة بـ « الولد الصغير » رجلاً في الواحدة والثلاثين من عمره .

أربعة وعشرون عاماً كانت قد انقضت على ذلك . وكان أوكي الآن في الخامسة والخمسين وأوتوكو في حوالى الأربعين .

كان أوكي قد أخذ حمّاماً ، وحين أدار مفتاح الراديو الذي كانت غرفته مزوّدة به ، علم أن طبقة رقيقة من الجليد

كانت تغطّي ، ذلك الصباح ، بلدة كيوتو . على أن الشتاء سيستمرّ ، بتقديرات الأرصاد الجويّة ، لطيفاً خلال أعياد آخر السنة .

واكتفى أوكي من طعام الفطور بقهوة وخبز محمّص تناولهما في غرفته وخرج مستقلاً سيارة . وكان غير قادر على العزم أن يذهب فيرى أوتوكو اليوم . وقرّر أخيراً ، وهو لا يدري ما يفعل ، أن يتوجّه الى جبل « أراشي » . وقد رأى من السيارة أن بعض الجبال التي كانت تنبسط شمالاً وغرباً كانت غارقة بالشمس ، بينما كانت جبال أخرى مغمورة بالظلّ وأن شيئاً ما في أشباحها المستديرة كان يشفّ عن برد شتاء كيوتو . وكان لمعان الشمس على الجبال يبهت ويصفرّ ويخيّل أن المساء لن يلبث طويلاً حتى يهبط . ونزل أوكي من السيارة أمام جسر « توجيتسو » ، ولكنه ، بدلاً من أن يعبره ، توجّه نحو منتزه « كامياما » سالكاً الطريق المحاذي للنهر .

في ذلك الثلاثين من كانون الاول ، كان جبل اراشي ، الذي تكتسحه عناقيد من السوّاح من الربيع حتى الخريف ، خالياً من الناس ، وكان يظهر بمظهر مختلف تماماً . وفي أعمق صمت ، كان جبل اراشي ينتصب امام أوكي على حقيقته . وكان النهر ، عند قدميه ، يشكّل سماطاً أخضر شفافاً . وفي البعيد ، كان ينبعث صدى ضجيج جذوع الحطب التي كانت تحمَّل في شاحنات ، منقولة من اطوافٍ كانت تحملها الى النهر . ولا ريب في ان الناس كانوا يقصدون ذلك المكان ليروا جبل اراشي منتصباً هكذا في وجه النهر ، ولكن الجبل كان اذ

ذاك في الظلّ ، وكانت الشمس تغسل فقط منحدراً منـه كان يهبط مائلاً نحو عالية النهر .

كان أوكي قد اعتزم أن يتناول الغداء وحـده في مكان هادىء . وكانت زياراته السابقـة قد عرّفتـه على مطعمـين ، ولكن باب الأول ، الواقع غير بعيد عن الجسر ، كان موصداً والمطعم مغلقاً . كان يبدو غير مرجّـح أن يتحمّـل أناسٌ مشقّـة المجيء ، في هذا الثلاثين من كانون الأول ، إلى هذا المكان المنعزل . وقد تابع أوكي طريقه متمهلاً وهو يتساءل إذا كان المطعم الصغير ذو المظهر القديم ، عند عالية النهر ، سيكون هو ايضاً مغلقاً . على أن شيئاً لم يكن يُـجبره على تناول الغداء في جبل أراشي . وفيما كان يصعد الدرجات الحجرية القديمة ، أبلغته فتاة أن جميع مستخدمي المطعم كانوا قد قصدوا كيوتو ، ولم تسمح له بالدخول . كم تُـرى قد انقضى من أعوام منذ أن تناول في هذا المطعم نفسه قطعاً مستديرة ضخمـة من براعـم الخيزران ـ وكان ذلك هو فصلها ـ مطهوّة مع قطع مجفّـفة من سمك التون ؟ ولمح أوكي ، وهو ينحدر في الطريق المحاذي للنهر ، إمرأة مسنّـة تكنس ، على الدرجات الحجـرية التـي تصعد نحـو المطعـم المجـاور ، أوراق قيقـب جافّـة . وقـد أجابت العجوز ، ردّاً على سؤاله ، أنها تعتقد بأن المطعم كان فاتحاً أبوابه . وتوقّـف أوكي لحظة بقربها ولاحظ كم كان المكان هادئاً ، فأجابته العجوز :

ـ نعم ، تستـطيع أن تسمـع بوضـوح كلام الناس في الجانب الآخر من النهر .

كان للمطعم المختبىء تحت باقة من الأشجار سقف قديم من القشّ ، كثيف ورطب ، ومدخل معتم لم يكن يشبه مدخلاً قطّ وأمامه دغل من الخيزران ، وكانت جذوع أربع صنوبرات رائعة أو خمس تنتصب في الجانب الآخر من سقف القشّ ، وقد أُدخل أوكي الى قاعة ذات طراز ياباني . وكان المطعم يبدو خالياً . وأمام زجاج الأبواب ذات المزالق ، كان يُرى فقط اللطخات الحمر لعنبيّات « الأوكوبة » . وقد لمح أوكي شجرةَ صحراويّةٍ ، بالرغم من أن الفصل ليس فصلها . وقد سدّت عليه الرؤية أشجار « الأوكوبة » ، والخيزران والصنوبر الأحمر ، ولكنه كان يستطيع أن يميّز ، عبر فرجات الأوراق ، بركة ماء بلون اليشب ، عميقة ، شفافة وجامدة . وكان جبل أراشي شبيهاً ، في جموده ، بهذه البركة المائية . استند أوكي بمرفقه الى الموقد الصغير الذي كانت تشتعل فيه نار فحم من الحطب . وسمع عصفوراً يغرّد . وكان صوت جذوع الأشجار التي كانت تُحمل على الشاحنات يُصدي عبر الوادي . وسمع بعد قليل ، صادراً من جبال « الغرب » ، صوت قطار يدخل نفقاً أو يخرج منه مخلّفاً وراءه صدى كئيباً . وذكّره هذا الصدى بصراخ ضعيف لطفل وليد . . كانت أوتوكو في السابعة عشرة من عمرها ، قد وضعت قبل الأوان ، في الشهر الثامن من الحمل ، مولوداً أنثى .

ولم يتمكّنوا من إنقاذ المولود ، فلم تستطع اوتوكو ان ترى ابنتها الصغيرة بقربها . وحين مات المولود ، قال الطبيب

لأوكي : « سيكون من الأفضل ، في رأيي ، الانتظار حتى تنهض لإبلاغها النبأ » .

وكانت أمّ أوتوكو قد صارحته بقولها : « أرجوك ، يا سيد أوكي ، أن تقول لابنتي إنني لا أستطيع أن أحبس دموعي وأنا أفكر بكل ما عانته وهي بعدُ فتيّة » .

كان غضب والدة أوتوكو وحقدها على أوكي قد نُسيا الآن . لقد أخذت عليه أنه جعل أوتوكو تحمل بينما كان متزوّجاً ورب عائلة . ولكن لما كانت ابنتها الوحيدة هي كل ما يبقى لها ، فان حقدها تبدَّد مع الأيام . ويبدو أن هذه المرأة ، التي كانت عزيمتها أكبر من عزيمة ابنتها ، كانت قد رضخت فجأة . أما كان ينبغي لها ، في الواقع ، أن تفوِّض أمرها الى أوكي لإخفاء ولادة الفتاة كما للسهر على العناية التي ستلقاها عند ولادتها ؟ وفضلاً عن ذلك ، فان أوتوكو ، التي جعلها الحَمْل عصبيّة ، كانت تهدِّد بالانتحار إذا قالت أمها يوماً أيّ كلمة سوء عن أوكي .

وحين عاد أوكي الى سرير أوتوكو ، أدارت نحوه نظراً صافياً ، مشغوفاً وهادئاً لأمّ صبيّة ، ثم ترقرقت فجأة في محجريها دموع كبيرة سالت على الوسادة ، وفكّر أوكي : « لقد فهمت » . وظلّت أوتوكو تبكي ، من غير أن تستطيع التوقف . وكان أوكي يرى الدموع على خدّيها تشكّل أثلاماً كانت تنحدر نحو أذنيها . وبادر الى مسح خدّها ، فتشبّثت الفتاة بيده ، وأسمعت للمرة الأولى نحيباً زافراً . كان لدموعها ونحيبها عنفُ سدٍّ يتحطّم .

« هل مات ؟ لقد مات الطفل ، أليس كذلك ؟ لقد مات ! » .

وكانت تتلوّى ألماً وقد شوّه العذاب جسمها . وشدّها أوكي اليه مسيطراً عليها . وكان يستطيع أن يُحسّ نهديها الصغيرين ، الرقيقين ولكن المنتفخين باللبن ، وهما يلامسان ذراعه .

ودخلت والدة أوتوكو التي كانت تراقبهما ، ولا بدّ ، من وراء الباب ، وهي تنادي ابنتها . ولم يولها أوكي أيّ انتباه ، بل ظلّ يشدّ أوتوكو بين ذراعيه . وقالت أوتوكو :

ـ « إنك توجعني . . . دعني !

ـ هل تلتزمين الهدوء ؟ هل تتحركين بعد ؟

ـ سألتزم الهدوء » .

فأرخى أوكي ضمّته ، فاستراحت كتفا أوتوكو . ومن جديد ، عادت الدموع تسيل من أجفانها المغمضة .

« أمي ، هل تراهم سيرمّدونها ؟ »

فلم يكن ثمة جواب .

« طفلة صغيرة الى هذا الحدّ . . ؟ »

وظلّت أمها على صمتها .

« ألم تقولي لي ، يا أميّ ، إن شعري ، حين وُلدت ، كان أسود كلّه ؟

ـ بلى ، كان شعرك شديد السواد .

ـ هل كان شعر طفلتي أسود أيضاً ؟ ألا تستطيعين ، يا أمي ، أن تحتفظي لي بخصلة من شعرها ؟

أجابت أمها بارتباك : ـ لا أعرف ، يا أوتوكو . . .

ثـم أضافـت بشرود : ـ تستطيعـين ، يا أوتـوكو ، إنجاب ولد آخر .

وكما لو أنها ندمت على هذه الكلمات ، قطّبت حاجبيها وأدارت رأسها .

ألم تتمنَّ أم أوتوكو ، وأوكي نفسه ، تمنّياً خفياً ، ألا ترى تلك الطفلة النور ؟ كانت أوتوكو قد وضعت مولودها في عيادة قذرة في ضواحي طوكيو . وقد شعر أوكي بتأنيب الضمير حين فكّـر بأن المولود كان يمكن إنقاذه لو لقي عناية جيّـدة في مستشفى جيّد. لقد رافق أوكي أوتوكو الى العيادةوحده. ذلك أن أمّـها لم تستطع أن تقرِّر الذهاب معهما . وكان الطبيب رجلاً ذا وجه أحمر محتقن بالكحول ، قريباً من الشيخوخة . وكانت الممرّضة الشابة تحدج أوكي بعينين محمّـلتين باللوم ، وكانـت أوتوكو ترتدي « كيمونو » وردياً من نسيج من الحرير العادي ، ذا تفصيل طفليّ .

بعد ثلاثة وعشرين عاماً ، استعاد أوكي وهو على جبل أراشي ، صورة واضحة لمولود ذي شعر أسود بلون السبج ، وُلد قبل الأوان ، وكان يبدو أنه يختبىء بين الأدغال الشتوية أو يغـرق في بركة الماء الخضراء . وصفـق أوكي بيديه منـادياً الخادمة . وكان قد أدرك ، منذ البدء ، أن أيّ زبون لـم يكن اليوم مُـنتَـظـراً ، وأن عليه أن يصبـر طويلاً قبـل أن يُـجهِّـز طعامه . وقد جاءت الخادمة الى القاعة ذات الطراز الياباني ، فصبّـت له ، من أجل حملـه على التصـبُّـر ، كأسـاً من شاي

محرق ، قبل أن تجلس الى جانبه .

وقد روت له الخادمة ، في حديث متفكّك ، قصّة رجل خدعه غُرير(*) . وكان قد عُثر عليه عند الفجر يتخبّط في النهر ويهذر : « أكاد أموت ، أنقذوني ، سوف أموت ، ساعدوني ! » وكان هناك يجهد ويكدّ تحت جسر « توجتسو » ، في موضع من النهر قليل العمق ويمكن المرء فيه بسهولة أن يصعد الى الحافة . وحين أتوا لانقاذه واستعاد حواسّه ، روى أنه كان ، منذ الساعة العاشرة من الليلة الماضية ، يهيم في الجبل كالمروبص ، وأنه وجد نفسه ، آخر الأمر ، في النهر ، من غير أن يفهم ما كان يحدث له .

حملت خادمة الطعام من المطبخ . وكان أوكي قد اختار أن يبدأ بصحن من قطع من الشبوط النيء . وشرب بجرعات صغيرة قليلا من « الساكي » .

وحين خرج ، ألقى من جديد نظرة أخرى على سقف القش الكثيف . كان يجد سحراً خاصاً لهذا السقف المغطّى بالعشب والذي كان يؤول الى التداعي ، ولكن صاحبة المطعم أوضحت له أن السقف لا يمكن أن يجفّ أبداً ، لأنه كان تحت الأشجار ، ولم يمض أكثر من عشر سنوات على تغيير القشّ ، فالسقف قائم هكذا منذ ثمانية أعوام . وكان يلمع في السماء ، الى يسار السقف ، قمر نصفيّ أبيض . كانت الساعة الثالثة

(*) في الحكايات والخرافات اليابانية ، يُعتبر الغُرير ، ومثله الثعلب ، روحاً شريرة تملك القدرة على إفساد الناس .

والنصف . واذ كان أوكي ينحدر الى الطريق المحاذي للنهر ، رأى طائفة من طير المازور تطير وهي تلامس الماء . وقد ميّز بوضوح لون ريشها .

وعلى مقربة من جسر توجتسو صعد السيارة وفي نيّته أن يتوجّه الى « أداشينو » . فبعد ظهر ذلك اليوم الشتوي ، سيشعر امام شواهد القبور الكثيرةورسوم « جيزو »(*) بحسّ مسبّق بوقتيّة الأشياء البشرية وقابليتها للفناء . ولكنه حين رأى ظلّ أدغال الخيزران عند مدخل دير « جيو » ، أمر السائق بأن يعود أدراجه . وعزم على التوقّف عند « معبد الطحلب » قبل أن يرجع الى الفندق . وكانت حديقة الدير خالية ، باستثناء زوجين شابين كان يبدو أنهما في رحلة شهر العسل . وكان الطحلب منثوراً بإبر الصنوبر الجافّ ، وكان ظلّ الأشجار التي كانت تنعكس في المستنقع يتنقّل فيما كان هو يمشي . وعاد أوكي الى فندقه من طريق « روابي الغرب » التي كانت أشعة الشمس الغاربة تضفي عليها لون الفوّة .

وبعد أن أخذ حمّاماً ليتدفّأ ، بحث في الدليل على رقم تلفون أوينو اوتوكو . وقد ردّ عليه صوت فتاة ـ هي على الأرجح تلميذة أوتوكو ـ وما لبثت أن أعطته أوتوكو .

ـ آلو !

ـ أنا أوكي على الخطّ

(*) « جيزو » : إله الرحمة ، سيّد المسافرين والاولاد والنساء الحوامل . وهو يتمثّل عادة بملامح راهب بوذيّ ذي رأس حليق ، يحمل باحدى يديه جوهرة ثمينة وبالأخرى عصا عُلّقت عليها حلقات معدنية .

ـ أوكي ، أوكي توشيو .
ـ نعم . لقد انقضى وقت طويل . .

وكانت أوتوكو تتحدّث بلهجة كيوتو .

لم يكن أوكي يعرف بمَ يجيب . ولكي يتجنّب العبارات المربكة ويوهم السامع بأنه تصرّف وفقاً لنزوة ، فقد أخذ يتكلّم بتدفّق ، حتى من غير أن يسمع مخاطبته .

ـ لقد جئت الى كيوتو لأستمع فيها الى أجراس نهاية السنة .

ـ الأجراس ؟
ـ لماذا لا نستمع اليها معاً ؟
ـ . . . . . .
ـ لماذا ترانا لا نستمع اليها معاً ؟
ـ . . . . .

ظلّت أوتوكو فترة طويلة لا تجيب . لقد فوجئت ، والأغلب أنها لم تكن تعرف بمَ تجيب . ونادى أوكي :

ـ ألو ، ألو ! . . .
ـ هل جئت وحدك ؟
ـ نعم ، نعم ، انا وحدي .
وصمتت أوتوكو من جديد .

ـ سأرجع أول كانون الثاني صباحاً ، بعد أن أكون قد استمعت الى الأجراس . لقد جئت لأني كنت راغباً أن أستمع معك الى الأجراس التي تعلن الانتقال من سنة الى أخرى . لست بعدُ في عزّ الشباب ، كم مضى من الأعوام من غير أن

نلتقي ؟ منذ وقت طويل ، ما كنت أجرؤ ، لولا هذه المناسبة ، على أن أعرض عليك مثل هذا الاقتراح .

ـ . . . . .

ـ هل يمكن أن أمرّ فآخذك غداً ؟

أجابت أوتوكو بسرعة: ـ لا. بل أنا أمرّ فآخذك. في الساعة الثامنة . . . ربما كان ذلك مبكراً بعض الشيء ، فلنقل حوالي التاسعة ، في فندقك . وسأتكفّل بالحجز .

كان أوكي قد فكّر بأن يتعشى بهدوء مع أوتوكو ، ولكنها في التاسعة تكون قد تعشّت . إنها على الأقل قد وافقت على رؤيته . وقد استردّت صورتها ، في ذكرياته البعيدة ، الحياة رويداً رويداً .

في اليوم التالي ، مكث طوال الوقت في الفندق حتى الساعة التاسعة مساء . وكان الوقت يبدو وهو يمضي بمزيد من البطء ، بسبب من أنه كان اليوم الأخير من العام . لم يكن لأوكي ما يفعله . صحيح أنه كان له بضعة أصدقاء في كيوتو . ولكنه لم يكن راغباً ، عشية يوم رأس السنة هذه التي كان ينتظر فيها أوتوكو ، أن يرى أحداً . ثم إنه لم يكن راغباً أن يعرف أحد أنه كان موجوداً في كيوتو . وبالرغم من أن المطاعم التي كانت تقدّم مأكولات كيوتو الخاصة كانت متوفّرة ، فقد اكتفى بعشاء بسيط في الفندق . وهكذا ، كان آخر يوم في العام مليئاً بذكريات أوتوكو . وبقدر ما كانت الذكريات تتدفق في ذهنه ، كانت تكتسب قوة ونضارة . إن أحداثاً وقعت منذ زهاء عشرين عاماً كانت أكثر حياة ونبضاً من أحداث وقعت

عشية الأمس .

كان أوكي أبعد من أن يرى ، عبر النافذة ، الشارع الممتد تحت الفندق ، ولكنه كان يرى ، فيما وراء سطوح المدينة ، « روابي الغرب » التي كانت تبدو شديدة القرب . كانت كيوتو ، إذا ما قورنت بطوكيو ، مدينة صغيرة هادئة . وفيما كان ينظر باتجاه « روابي الغرب » اصطبغت سحابة رقيقة شفّافة ذات لون ذهبي بطابع رماديّ وبارد ، وهبط المساء .

ما عساها كانت ذكرياته ؟ ما عساه كان ذلك الماضي الذي كان يتذكّره على هذا النحو من الوضوح ؟ حين جاءت أوتوكو تقيم في كيوتو مع أمها ، كان أوكي قد فكّر بأنّ هذا الرحيل سيسجّل انفصالهما ، ولكن هل كانا حقاً قد انفصلا ؟ إنه لم يكن يستطيع أن ينزع من قلبه شعور العار بأن يكون قد قلب حياة أوتوكو ، ومنعها من أن تتفتّح كزوجة وكأمّ ، وكان يتساءل ما عسى أن يكون رأي هذه المرأة التي لم تتزوّج ، بعد تلك الأعوام الطويلة ، ما عساها يكون رأيها فيه ؟ لقد كانت أوتوكو ، في ذكرياته ، أشدّ النساء حبّاً وشغفاً .

ولئن كانت ذكراها ما تزال اليوم حيّة الى هذا الحدّ ، ألم يكن ذلك يعني انه لم يحصل بينهما أيّ انفصال ؟ وبالرغم من أن أوكي لم يكن من سكان كيوتو ، فان أنوار المدينة عند الليل الهابط ، كانت مألوفة عنده . ربما كانت كيوتو ، على نحوٍ ما ، مهد كلّ يابانيّ ، ولكنها كانت كذلك ، في نظر أوكي ، المدينة التي تسكنها أوتوكو .

تبلبل في مجلسه ، وتخلّى عنه الهدوء ، فأخذ حمّاماً ، وبدّل ثيابه كلّياً ، وراح يذرع الغرفة طولاً وعرضاً وهو ينظر أحياناً في المرآة ، ثم انتظر أوتوكو .

كانت الساعة التاسعة وعشرين دقيقة حين تلفنوا له من الاستقبال لابلاغه ان الآنسة أوينو في انتظاره .

ـ أخبروها أن تنتظرني في البهو ، فأنا هابط اليها على التوّ .

ثم تساءل إذا لم يكن عليه ، بالأحرى ، أن يقترح عليها الصعود .

ولم يجد أوتوكو في البهو الواسع ، بل اقتربت منه فتاة تسأله :

ـ أنت السيد أوكي ؟

ـ نعم .

ـ كلّفتني الآنسة أوينو أن آتي لاصطحابك .

ـ حقاً ؟ (وكان أوكي يجهد ليبدو محايداً) هذا لطيف جدّاً . . .

كان أوكي يتوقّع أن تأتي أوتوكو وحدها لمرافقته ، ولكنها تهرّبت ، وكان ذلك كما لو أن الذكريات الحيّة التي تبعثها فيه قد تلاشت فجأة .

وحتى حين أصبحا في السيارة التي كانت بانتظارهما ، التزم أوكي الصمت بعض الوقت ، ثم سأل :

ـ هل أنت تلميذة الآنسة أوينو ؟

ـ نعم .

ـ تسكنان معاً ، الآنسة اوينو وأنت ؟

ـ نعم . وتعيش معنا كذلك خادمة .

ـ هل انت من كيوتو ؟

ـ لا ، بل من طوكيو ، ولكنني وقعت في حبّ أعمال الآنسة أوينو ، فتبعتها حتى هنا ، وكان ان احتفظت بي .

أدار أوكي رأسه ناظراً الى الفتاة . منذ اللحظة التي وجهت له فيها الكلام في الفندق ، كان قد لاحظ كم هي جميلة . كانت لها جانبية أخّاذة ، بعنقها الطويل الناعم وشكل أذنيها الرائع . لم يكن جمال ملامحها يترك المرء لا مبالياً . ثم إنها كانت تتحدّث بهدوء ، ولكن بتحفُّظ واضح تجاهه . وكان أوكي يتساءل إذا كانت هذه الفتاة على علم بما كان بين أوتوكو وبينه ، بتلك العلاقة التي حدثت قبل أن تكون قد وُلدت ، حين سألها فجأة ، بطريقة غير لائقة :

ـ هل تلبسين الكيمونو دائماً ؟

ـ لا . إنني في المنزل ، بسبب انني اتحرّك بلا انقطاع ، أرتدي البنطال ، بالرغم من أن في ذلك هيئة مُهملة . ولكن لما كان العام الجديد سيحلّ فيما نحن نستمع الى الأجراس ، فقد اقترحت عليّ الآنسة أوينو أن أرتدي كيمونو بهذه المناسبة .

نطقت الفتاة بذلك في تدفّق ، إنها لم تأت فقط لتصحبه من الفندق ، بل يبدو أنها ستستمع الى الأجراس برفقتهما . وقد أدرك أوكي آنذاك أن أوتوكو كانت تسعى الى تجنّب الالتقاء به وحده .

اجتازت السيارة حديقة « ماروياما » وتوجهت نحو دير « شيون » . وفي قاعــة ذات طراز تقليدي ، استؤجـرت للأمسية، رأى أوكي أوتوكو ومعها فتاتـا «مـايكو»(*) . ومن جديد أخذته الدهشة . كانت أوتـوكو وحدهـا جالسـة قرب الموقد ، وقد غـطّـت ركبتيهـا بغطـاء . وكانـت فتاتـا المايكو جالستين متقابلتين حول المشعل . وركعت الفتاة عند العتبـة وهي تنحني :

ـ ها نحن قد وصلنا .

سحبـت أوتـوكو ركبتيهـا من تحـت الغطـاء ، وقالـت لأوكي :

ـ لقـد مرّ وقـت طويل . . . فكّـرت بأنـك تحـبّ أن تسمع أجـراس هذا الـدير ، ولـذلك اختـرت هذا المكان . ولكن كل شيء قد أغلق هنا ، ولا أدري إذا لم يكن اللقـاء ناقصاً . . . .

ـ أشـكرك . اعذرينـي أن أكون قد سبّبـت لك هذا الازعاج .

كان هذا كل ما وجده أوكي ليقوله . لم تكن أوتوكو قد اصطحبت تلميذتها فقط ، بل كذلك الفتاتين « الغايشا » ، وإذن ، فانه لم يكن يستطيع أن يسمح لنفسه بأية إشارة الى ماضيهما المشترك ، كما لم يكن يستطيع أن يسمح لوجهه أن يكشف المشاعر التي كان يحسّـها . ولا بدّ أن أوتوكو ، حين تلقّـت مخابرته التلفونية عشية الأمس ، قد وجدت نفسهـا في

(*) مايكو : راقصة شابّة محترفة .

ارتباك كبير وأصبحت من شدّة الحذر بحيث خطرت لها فكرة استدعاء الفتاتين « الغايشا » . أكان يمكن أن يكون حذرها من امكانية أن تلقى وحدها أوكي كاشفاً عن مشاعرها تجاهه ؟ لقد استشعر أوكي ذلك حين دخل القاعة ووجد نفسه وجهاً لوجه معها . فمنذ النظرة الأولى ، أحسّ بأنه كان لا يزال يمثّل شيئاً بالنسبة لأوتوكو . ولا ريب في أن الآخرين لم يلاحظوا شيئاً . أو ربما كانت الفتاة التي تعيش مع أوتوكو قد لاحظت ذلك ، وربما أيضاً الفتاتان الغايشا اللتان كانتا تملكان ، رغم حداثة سنّهما ، تجربة أحياء اللذة ، وطبعاً ، لم تدع إحداهن شيئاً من ذلك يظهر .

أشارت أوتوكو لأوكي بأن يجلس ، ثم عيّنت للفتاة مكانها . وكانت هذه تواجه أوكي في الجانب الآخر من الموقد . وكانت أوتوكو قد تنازلت لهما عن مقعدها وجلست جانباً ، غير بعيدٍ عن الفتاتين الغايشا .

وطرحت أوتوكو على الفتاة سؤالها بهدوء :

ـ الآنسة ساكامي ، هل قدّمت نفسك للسيد أوكي ؟

ثم قامت بالتعريف :

ـ هذه هي الآنسة ساكامي ، التي تسكن معي . وهي ، لو تعرف ، مجنونة بعض الشيء ، بالرغم من أن ذلك لا يبدو عليها .

ـ أوه ! أيتها الآنسة أوينو !

ـ إنها ترسم أحياناً لوحات تجريدية بأسلوب خاصّ بها . ورسمها هو من شدة التحمّس بحيث يبدو عمل عقل

مريض ، ولكن لوحاتها تعجبني ، وأنا أحسدها أحياناً . حين ترسم ، تنتابها الرِعْدات .

حملت إحدى الخادمات شراب « الساكي » وبعض المسلّيات . وصبّت الفتاتان الغايشا الشراب . وقال أوكي :

ـ لم أكن قد تصوّرت أنني سأستمع إلى أجراس آخر السنة مع مثل هذه الرفقة .

ـ فكرت بأنّ ذلك سيكون ألطف مع هؤلاء الشابّات .

وأضافت أوتوكو وهي تخفض عينيها :

ـ حين تقرع الأجراس ويشيخ المرء عاماً ، يشعر بأنه حزين . . . ويتفق لي أحياناً أن أتساءل لماذا عشت حتى اليوم .

وتذكّر اوكي أن أوتوكو حاولت ، بعد شهرين من موت طفلتها ، أن تنتحر بابتلاع أقراص منوّمة . أترى أوتوكو هي كذلك قد تذكّرت الأمر ؟ كان قد أسرع الى سريرها حين أبلغته أم أوتوكو الخبر . وكانت هذه الأخيرة ، لفرط ما ألحّت على ابنتها أن تترك أوكي ، قد دفعتها الى الانتحار . وهي مع ذلك قد نادت أوكي الذي مكث عدة أيام في منزلها ليعتني باوتوكو . وكان يدلك ، بغير توقّف ، فخذيها اللتين كانت مقادير كبيرة من الحقن قد صلّبتهما وورّمتهما . وكانت أم أوتوكو تروح في المطبخ وتجيء حاملة لها مناديل حارّة . وكانت أوتوكو عارية تحت ثوبها الكيمونو. وكانت فخذاها، وهي في السابعة عشرة ، دقيقتين جداً فورمتا بفعل الحقن ورماً مشوّهاً . وحين كان ضغطه يصبح أقوى مما ينبغي ، كانت يدا

أوكي تنزلقان بين فخذي أوتوكو . وحين تغيب أمّـهـا ، كان يمسح إفرازات ذات لون مقزّز كانت ترشح من فخذي الفتاة . وكانت دموع الخجل والاشفاق التي كان يسكبها تمتزج بتلك الافرازات ، وقد آلى على نفسه أن ينقذ أوتوكو مهما حدث وألاّ يتركها أبداً . وكانت شفتا الفتـاة قد أصبحتـا بنفسجيتـين . وكان أوكي يسمع أمها تنتحب في المطبخ . وقد وجدها متقوقعة على نفسها ، جاثية أمام موقد الغاز .

ـ إنها ستموت ، إنها ستموت ! »

ـ لقد أحببتها دائماً وبذلت من أجلها كل ما تستطيعين !

عند ذلك تشبثت أم أوتوكو بيد أوكي :

ـ وأنت أيضاً ، يا سيد أوكي ، أنت أيضاً . . . .

بقي أوكي ثلاثة أيام عند سرير أوتوكو من غير أن ينام ، الى أن فتحت عينيها .

ـ إنني أتألّم ، إنني أتألم !

كانت أوتوكو ، بعينيها البرّاقتين ، تتلوّى من الوجع ، كما لو أنها كانت تريد أن تجرّح وجهها وصدرها ، وكان يبدو أن عينيها تحدّقان بأوكي :

ـ لا ، لا ، إذهب من هنا !

وجمع طبيبان جهودهما لانقاذ أوتوكو ، ولكن أوكي كان يعلم أنها إنما أمكن إنقاذها بفضل العناية التي أولاها إياها .

ولم تكن أم أوتوكو قد أطلعت ابنتها طبعـاً على ألـوان العناية التي بذلها لها أوكي . ولكن ذلك كان شيئـاً لن ينسـاه أوكي أبداً . كان لا يزال يرى بوضوح ، أكثر مما رأى جسمها

الذي كان قد أمسكه بين يديه ، فخذي الفتاة وهما في منتصف الطريق بين الحياة والموت ، تينك الفخذين اللتين كان قد دلكهما طويلاً . كان يراهما الآن ثانية ، بعد عشرين سنة ، بينما كانت أوتوكو جالسة تحت غطاء والموقد في تلك القاعة التي جاءت تستمع فيها الى أجراس آخر السنة .

وما كادت الفتاتان الغايشا وأوكي يسكبون الشراب ، حتى كانت أوتوكو تفرغ قدحها . وكان يبدو أنها تحتمل الكحول جيداً . وقالت احدى الفتاتين الغايشا إنه ينبغي انتظار ساعة حتى تقرع الأجراس دقّاتها المئة والثماني . ولم تكن الفتاتان الغايشا في لباس السهرة ، بل كانتا ترتديان كيمونو بسيطاً . على أن نطاقيهما العريضين فوق الكيمونو كانا من نوع جيّد وجميل . ولم تكونا تضعان كذلك دبابيس شعر بشكل الزهور ، بل كانت أمشاط جميلة فقط تشدّان شعرهما . وكانت كلتاهما تبدوان شديدتي التعلّق باوتوكو ، ولكن اوكي لم يكن يفهم لماذا جاءتا بمثل هذا اللباس العادي . وبينما كان يشرب وهو يعير سمعه لحديث الفتاتين المبتذل ، المنطوق بلهجة كيوتو ، انحلّ قلبه فجأة . كانت اوتوكو قد ظهرت شديدة الفطنة . فهي إن ارادت على ذلك النحو أن تتجنّب ان تكون وحدها في حضوره ، فربما كان ذلك حتى لا تكشف ، في ذلك اللقاء غير المتوقّع ، انفعالها الحقيقي . وكان مجرد أن يكونا جالسين هناك معاً يخلق ما يشبه تياراً بينهما .

وقرع جرس دير « شيون » .

فسكت كلّ من في القاعة . وكان للجرس الذي تأكّله

الزمن رنّة مصدوعة ، ولكنه كان يخلّف وراءه أصداء عميقة . وبعد توقّف قصير ، قرع من جديد . وكان يبدو حقاً شديد القرب .

ـ إننا أقرب مما ينبغي . لقد انسقت الى القول إن المكان اختير جيداً للاستماع منه الى جرس الدير ، ولكنني أتساءل إذا لم يكن من الأفضل ان نصغي اليه من مكان أبعد قليلاً ، من حافة نهر « كامو » مثلاً .

هذا ما قالته أوكومو وهي تتوجّه الى أوكي والى تلميذتها الشابة .

دفع أوكي الباب ذا المزلقة فرأى برج الجرس تحت الحديقة تماماً . وقال :

ـ إنه قائم هنا . إن بالامكان رؤيتهم وهم يقرعون الجرس .

وكرّرت أوتوكو : إننا حقاً قريبون أكثر مما ينبغي .

قال أوكي : ـ لا . بل هذا جيّد جداً . فبعد هذه السنوات الطويلة من الاصغاء الى الأجراس عبر الاذاعة ، يبدو رائعاً ان نستمع اليها عن كثب .

ومع ذلك ، فقد كان المكان يفتقد الجاذبية . كانت الظلال السوداء متجمّعة أمام برج الجرس . وعاد أوكي يدفع الباب ذا المزلقة ويرجع نحو الموقد . وكان قد كفّ عن إرهاف أذنه ، حين سمع رنّة كان جرس قديم زنجره الزمن يستطيع وحده أن يصدرها ، وكانت تصدي بكل القوة المتصوّرة لعوالم بعيدة .

وبعد ذلك غادروا الدير واتجهوا نحو معبد « جيون » لحضور الاحتفال التقليدي لنهاية السنة . وقد رأوا أشخاصاً عديدين يرجعون الى بيوتهم وهم يؤرجحون حبالاً صغيرة ملتهبة الأطراف كانوا قد أشعلوها في المعبد . وكانت عادة قديمة تقضي بأن يُستعمل هذا اللهيب لايقاد الفرن الذي ينضج فيه « الزوني » وهو طعام الخضار الذي يُطبخ مع مَرَقة السمك وحلوى الأرز ، بمناسبة أعياد نهاية السنة .

ربيع مبكّر

كان أوكي واقفاً في أعلى الرابية ، ضائع النظر في الاضطرام الأرجواني للشمس الغاربة . وكان قد ظلّ جالساً يعمل أمام مكتبه حتى الواحدة والنصف بعد الظهر ، ثم خرج بعد أن أنجز كتابة حلقة من رواية كانت تنشر في جريدة مسائية . وكان بيته يقع على تلال تقوم شمال « كاماكورا » . وكانت السماء ، عند الغرب ، تزداد التهاباً . وكان أرجوانها من العمق بحيث أن أوكي تساءل إذا لم تكن مغشّاة بضباب او بسحائب خفيفة . وكان هذا التوهّج الأرجواني يبدو له غريباً . كان المرء يميّز فيه آثار تدرُّج من الضوء الى العتمة تذكّر بمرقاش مُررٍّ على شيء رطب . وكانت عذوبة تلك السماء تبشّر بمقدم الربيع . وكانت تُرى في مكان ما بقعة وردية ، في الموضع الذي ستغيب فيه الشمس ، دون ريب .

تذكّر أوكي أنه في يوم رأس السنة ، في القطار الذي كان عائداً به من كيوتو ، كانت القضبان الحديدية التي تتلقّى أشعة الشمس الغاربة تلتمع ببريق أحمر . كان يرى هذه الأشعة تبرق من بعيد . كان البحر هناك ، على جانب . وحين غرقت القضبان في ظلال الجبال ، انطفأ البريق الأحمر . ودلف القطار الى مضيق ، فهبط المساء فجأة . ولكن انعكاس

القضبان الأحمر كان قد ذكّر أوكي باللحظات القليلة التي قضاها مع أوتوكو . فالبرغم من انها اصطحبت تلميذتها الشابة ساكامي كايكو ، بل بلغ بها الأمر ان دعت الفتاتين الغايشا لتتجنّب أن تكون معه وحدهما ، فقد كان أوكي يشعر ، وربما بسبب هذه الاحتياطات التي أحاطت بها نفسها ، بأنه كان ما يزال يمثّل شيئاً ما بالنسبة لأوتوكو . وبينما كانوا ، في طريق العودة من معبد « جيون » ، يسيرون في « الجادّة الرابعة » ، اقترب منهم بعض السكارى وحاولوا أن يمسّوا تسريحة الفتاتين الغايشا المعقودة عالياً بشكل كعيكة . وقد كان مثل هذا التصرف امراً غير مألوف في كيوتو . وكان أن سار أوكي الى جانب المرأتين الشابتين على سبيل الحماية . وكانت أوتوكو وتلميذتها تتبعانهم .

ويوم رأس السنة ، بينما كان يتهيّأ لصعود القطار ويتساءل ، في قلق ، إذا كانت أوتوكو ستأتي الى المحطة ام لا ، لمح أوكي ساكامي كايكو .

ـ عاماً سعيداً ! لقد كانت الآنسة أويبو حريصة تماماً على مرافقتك ، ولكن عليها ، كعادتها كل رأس سنة ، ان تقوم ببعض الزيارات ، وسيأتي بعد ظهر اليوم من يزورها في البيت . ولذلك جئت بدلاً منها .

أجاب أوكي : ـ حقاً ؟ هذا لطف منك . . .

كان جمال الفتاة يجتذب أنظار المسافرين القلائل في هذا اليوم الأول من العام .

ـ إنها المرة الثانية التي أزعجك فيها . . الأولى حين

جئت تصطحبيني من الفندق ، واليوم أيضاً ، في المحطة .
ـ إن هذا لا يزعجني إطلاقاً .

كانت كايكو ترتدي كيمونو الأمس نفسه المصنوع من الأطلس الأزرق المطبّع بصورٍ لطير « أبي الرؤوس » بين ندائف الثلج . وكان لون الطيور يبثّ الفرحة في الثوب . ومع ذلك ، فقد كان هذا اللباس ، بالنسبة لفتاة في سن كايكو ، مفرط الاحتشام ، وحزيناً بعض الشيء في يوم عيد .

قال أوكي : ـ ما أجمل هذا الكيمونو ! أتكون الرسوم من صنع الآنسة اوينو ؟

ـ لا . أنا التي رسمتها ، ولكن النتيجة ليست ما كنت آمله . . .

قالت كايكو ذلك ووجهها يحمرُّ قليلاً . وكان لون الكيمونو الحزين بعض الشيء ، يزيد في إبراز جمال وجه الفتاة . ثم إنه كان ثمة شيءٌ فتيّ في مزيج الألوان ، وفي الأشكال المتنوّعة للطيور ، وحتى في ندائف الثلج التي كان يبدو أنها ترقص .

وسلّمت كايكو الى أوكي ، هدية من أوتوكو ، علبة من الحلوى وخضاراً محفوظة في ماء مملّح كانت من مستحضرات كيوتو الخاصّة .

ـ هكذا ، سيكون لك ما تأكله في أثناء السفر . .

وخلال الدقائق التي كان القطار ينتظر فيها قبل التحرك من المحطة ، ظلّت كايكو قرب النافذة . واذ رأى أوكي قامة الفتاة تتأطّر بالنافذة ، أحسّ بأن جمالها كان حقاً في أوج

إشراقه . لم يكن قد رأى أوتوكو في عزّ جمالها . فقد كانت في السابعة عشرة حين انفصلا ، وحين رآهـا ، عشية الأمس ، مرة أخرى ، كانت في الأربعين .

كان الوقـت ما يزال مبـكراً حـين فتـح أوكي ، حوالي السـاعـة الرابعـة والنصف ، علبـة أوتـوكو . كانـت تحتـوي منوّعات من المآكل جُـهـّزت بمناسبة العـام الجـديد مع كرات ضخمة من الأرز منسّـقة بعناية كانت تبدو له تعبيراً عن مشاعر امرأة . ليس هناك شك في أن أوتوكو كانـت قد صنعتهـا من أجل ذلك الذي كان في الماضي قد دمّـر شبابها . وفيما كان أوكي يمضغ كتل الأرز الصغيرة ، كان يستطيع أن يشعر على لسانه وبين أسنانه مذاق الصفح والغفران من أوتوكو . لا ، لم يكن غفرانها ، بل حبّـها ، حبّ ما يزال حيّـاً في قلبها . كل ما كان يعرفه اوكي عن اوتوكو ، منذ أقامت في كيوتو مع أمها ، هي أنها كانت قد نجحت وحدهـا في صنـع سمعـةٍ لهـا بصفتهـا رسّـامة . لعلّـها قد عاشت الواناً أخرى من الحـب وعرفـت مغامرات أخـرى ؟ ومـع ذلك ، فقـد كان أوكي مقتنعـاً بأن العاطفة التي كانت تحملها له كانت حباً يائساً لفتاة صغيرة . ولقد عرف أوكي ، بعد أوتوكو ، نساء أخريات في حياتـه . ولكنه كان واثقاً بأنه لم يحبّ قط أياً منهن حبّـاً اليماً مثل ذلك الحب .

وفكر أوكي : « هذا الأرز لذيذ ، وأنا اتساءل إن كان مصدره « كانساي » . كان يأكل كتل الأرز الصغيرة بالتتالي . وكانت مملّـحة بما فيه الكفـاية ، فلا هي مرّة ولا هي مفرطـة

التّـفَـه .

كانت أوتوكو ، وهي في السابعـة عشرة من عمرهـا ، وبعد شهرين تقريباً من وضعها المبتسر ومن محاولتها الانتحار قد حُجزت في مستشفى للأمراض النفسية وحُـجرت في غرفة كانت نافذتها ذات قضبان حديدية . وكان أوكي قد علم بالنبأ من أمّ اوتوكو ، ولكن لم يُسمح له بأن يتحدّث الى الفتاة . وكانت الأم قد قالت له :

ـ تستطيع أن تراها من الممرّ ، ولكني أفضّل ألاّ تفعل ذلك . . أفضّـل الا ترى الحالة التي هي فيها الآن . وهي اذا عرفتك ، فسيأخذها الاضطراب والبلبلة .

ـ هل تعتقدين انها ستعرفني ؟

ـ بكل تأكيد . أليست هي في هذه الحالة بسببك أنت ؟

فلم يجُب أوكي .

ـ ولكن يبدو أنها لم تفقد عقلها . لقد طمأنني الطبيب وهو يخبرني بأنه لن يحتفظ بها إلاّ بعض الوقت .

وبعد هذه الكلمات ، قامت أم أوتوكو بحركة من يضم ولداً بين ذراعيه ويهدهده .

ـ إنها تريد طفلتها . يا للمسكينة الصغيرة !

بعد ثلاثة أشهر ، كانـت أوتـوكو تغـادر المستشفـى . وجاءت أمها للقاء أوكي وقالت له :

ـ أنا أعرف يا سيد أوكـي أن لك امرأة وأولاداً ، ولم تكن أوتوكو بالتأكيد تجهل ذلك حين عرفتك . ولهذا ، فربما فكرت بأنني مجنونة ، في هذه السنّ وأنا أعرف وضعك ، اذا

طلبت منك شيئاً مماثلا ، ولكن . . .

كانت أم أوتوكو ترتجف .

ـ . . . ولكن ، ألا تستطيع أن تتزوّج ابنتي ؟

كانت الدموع في عينيها ، وكانت خافضة الرأس تكزّ بقوّة على أسنانها .

أجاب أوكي بألم :

ـ هذا أمر فكّرت فيه .

وكما كان متوقعاً ، قامت المنازعات بشأن أوتوكو بين أوكي وزوجته فوميكو التي كانت آنذاك في الرابعة والعشرين من عمرها .

ـ فكرت في هذا مرات عديدة .

ـ أنت حرّ في ألاّ تعير كلامي أي انتباه ، وان تظنّ بأنني ، كابنتي ، مجنونة . لن أطلب ذلك منك مرة أخرى على الاطلاق . انني لا أقول لك ان تتزوّج أوتوكو الآن . انها تستطيع أن تنتظر عامين أو ثلاثة أو خمسة أو حتى سبعة . إنها من نوع الفتيات اللواتي يُحسنّ الانتظار . ولا تزيد سنّها عن السابعة عشرة .

وفكر أوكي ، وهو يسمعها ، أن أوتوكو كانت تمتّ الى أمها بطبيعتها المتهوّرة العنيفة .

لم يمض عام حتى كانت أمّ أوتوكو قد باعت بيتهم في طوكيو وذهبت تقيم في كيوتو مع ابنتها . وقد دخلت اوتوكو معهداً للفتيات في كيوتو حيث أضاعت عاماً . وحين تركت المعهد ، تسجّلت في مدرسة للفنّ .

وبعد عشرين سنة تقريباً ، استمعا معاً الى جرس دير « شيون » ، عشية رأس السنة الجديدة ، وحمّلته وجبة باردة ليأكلها في القطار . وكان أوكي يفكر بأن جميع المآكل التي كانت أوتوكو قد صنعتها له كانت مآكل كيوتو التقليدية ، كان يفكر بهذا وهو يحمل الى فمه القطع التي أمسكها بين عوديْه . كانوا قد قدّموا له في فندق مياكو ، مع طعام الفطور ، قصعة من « الزوني » ، ولكن المذاق الحقيقي لمآكل العام الجديد كان في هذه الوجبة الباردة . في كاماكورا ، كانت الوجبات التي تقدّم بمناسبة السنة الجديدة قد فقدت كل طابع ياباني ، وكانت تذكّر بتلك الصور الملونة التي كانت تُرى في المجلات النسائية .

كان على أوتوكو ، كما قالت تلميذتها الصبيّة ، أن تقوم ، بصفتها رسّامة ، بعدد من الزيارات ، ولكن كان بوسعها مع ذلك ان تقتطع عشر دقائق او خمس عشرة دقيقة لتصحب أوكي الى المحطة . ذلك أنها أرادت ، بلا شك أن تتجنّبه ، كما فعلت في الليلة السابقة في الفندق ، حين أرسلت الفتاة الى المحطة . على أن أوكي لم يستطع أن يسمح لنفسه ، عشية الأمس ، بحضور كايكو والفتاتين الغايشا ، بأية إشارة الى ماضيه مع اوتوكو ، ولكنه كان قد أحسّ بما يشبه التيّار بينهما . وهذا هو الاحساس نفسه الآن مع هذا العشاء . وحين اهتزّ القطار ، ربّت أوكي براحة يده على الوجه الداخلي للنافذة ، ولكنه حين خشي ألاّ تسمعه كايكو ، خفض الزجاج زهاء سنتمترين وقال لها :

ـ مرة أخرى ، شكراً على كل شيء . لا بدّ أنك تعودين بين وقت وآخر الى طوكيو ، ما دامت اسرتك تقيم فيها ؟ تعاليْ إذن لرؤيتي بالمناسبة . ستجدين عنواني بسهولة ، فالمدينة ليست كبيرة ، وما عليك إلاّ أن تسألي عن طريقك حين تخرجين من المحطة . وأرسلي لي واحدة أو اثنتين من تلك اللوحات التجريدية التي تصفها الآنسة اوينو بأنها نتاج عقل مريض .

ـ كنت شديدة الارتباك حين قالت الآنسة أوينو ذلك . . .

والتمع ، لمدة لحظة ، وميض غريب في نظر كايكو .

ـ ولكن الآنسة أوينو لا تستطيع ان ترسم لوحات مماثلة للوحاتك ، أليس كذلك ؟

كان توقّف القطار قصيراً ، ولهذا كانت محادثتهما قصيرة الأمد كذلك .

كان أوكي قد كتب بضع روايات تعتمد على عنصر «العجيب» ، ولكنه لم يكن قد كتب ، حتى ذلك التاريخ ، روايات « تجريدية » . واذ كانت الكلمات التي يستعملها تختلف عن تلك التي تُستعمل في اللغة اليومية ، فقد أمكن التحدّث ، بصدد بعض أعماله ، عن التجريد أو الرمزية . والواقع أن أوكي ، الذي لم يكن يظهر في عهد شبابه ، تذوّقاً ولا موهبة في هذه النزعات الأدبية ، قد جهد لحذفها من كتاباته . كان قد أحبّ الشعر الرمزي الفرنسي ، و« الشين ـ كوكان ـ شو » القصائد العائدة الى القرن الثالث عشر ،

وقصائد « الهاي كاي » ، وتعلّم في صباه استعمال العبارات المجرّدة او الرمزية ، لكي يعبّر عن آرائه بطريقة محسوسة وواقعية . كان يفكر بأن في تعميق هذه الجودة التعبيرية طريقاً لبلوغ الرمزية والتجريد .

ومع ذلك ، فأية صلة كانت مثلاً بين أوتوكو بطلة روايته وأوتوكو الحقيقية ؟ كان الجواب صعباً في الحقيقة .

ومن جميع كتب أوكي ، كان الذي حظي بالحياة الأطول والذي لا يزال ينعم حتى اليوم بجمهور واسع ، إنما هو الرواية الطويلة التي كان يحكي فيها قصة حبّه لأوتوكو ، حين كانت في السادسة عشرة او السابعة عشرة . صحيح أن الكتاب لدى ظهوره كان قد أضرّ بأوتوكو بأن وجّه نحوها أنظار الفضوليين وكوّن بلا شك عقبة في وجه زواج محتمل . ولكن كذلك ، لماذا ظلّت شخصية أوتوكو ، بعد عشرين سنة ، تفتن حتى الآن العديد من القراء ؟ لا شك أن الأصح أن يُقال إن أوتوكو ، كما تبدو في رواية أوكي ، هي التي « فتنت » القراء ، وليست الفتاة التي اتخذها مثالاً ونموذجاً . لم تكن الرواية قصة أوتوكو الحقيقية ، بل كانت ببساطة شيئاً كتبه أوكي . كان الروائيّ قد أضاف نتاج خياله وإبداعه ، وكان بالطبع قد «أمثل» شخصيته. ولكن إذا وُضع هذا جانباً، من كانت أوتوكو الحقيقية ـ أتلك التي كان أوكي قد صوّرها أم تلك التي كانت أوتوكو تستطيع أن تخلقها بأن تروي هي نفسها قصّتها الخاصّة ؟

ومع ذلك ، فان فتاة روايته كانت أوتوكو بلحمها

ودمها . ولـولا لقـاؤهما ، لما استطـاع هذا الكتـاب أن يرى النور . ولا شك في أن هذه الرواية ما تزال تقرأ ، بعد عشرين سنة من كتابتها ، بفضل أوتوكو . ولو لم يعرف أوكي أوتوكو لما عاش ابداً حباً مماثلاً . ما كان يستطيع ان يقول إذا كان لقاؤه الفتاة وحبّـه إياها ، وهو في الواحدة والثلاثين ، كانا نقمة أم نعمة ، ولكنه كان واثقاً من أن هذا اللقاء أتاح له أن يحقق ، ككاتب ، بدايات واعدة .

كان أوكي قد عنوَنَ روايته « فتاة في السادسة عشرة » . وكان ذلك عنواناً عادياً لا ابتكار فيه ، ولكن الناس كانوا منذ عشرين عاماً يستغربون بما فيه الكفاية أن تتخذ فتاة في السادسة عشرة عشيقاً لها ، وأن تضع مولوداً قبل الأوان وان تفقد العقل فترة من الزمن . إنه بالطبع لم يكن قد كتـب الكتاب ليثـير استنكار الناس ولم يكن يعتبر أوتوكو موضوع فضول . وكما كان عنوان الكتاب عادياً ، كانت غاية الكاتب مبتذلة ، وقد صوّر أوتوكو كفتاة نقيّـة ومشغوفة . كان قد حاول أن يصف وجهها وقامتهـا وحركاتهـا . وبكلمـة ، كان قد ضمّـن هذه الرواية كل نضارة ذلك الحب الصبويّ ، وهذا هو السبب في أن الكتـاب ما يزال يحظى بذلك النجـاح . كان هو الحــب الفاجع لفتاة صبية ورجل ما زال شاباً ، ولكنه متزوج ورب أسرة . كان أوكي حريصـاً على تصـوير جمـال هذا الحـب ، وأهمل التوقّـف عند مظهره الخلقي أو اللا خلقيّ .

في الفترة التي كانا يلتقيان فيها سرّاً ، كانت أوتوكو قد قالت لأوكي :

ـ أنت من نوع الرجال الذين يتساءلون دائماً عمّا يفكر الناس بهم . ينبغي أن تبدو أشجع من ذلك قليلاً .

ـ كنت أحسبني بالأحرى شخصاً بلا وساوس . أتراني لست الآن هكذا بعد ؟

ـ لا ، إن الأمر لا يتعلّق بنا ، يجب ان تكون انت نفسك اكثر من ذلك في كل شيء .

ولم يدر أوكي بمَ يجيب ، فقام بارتداد على ذاته . وبعد هذه السنوات الطويلة ، لم يستطع ان ينسى كلام أوتوكو . فكر بأن هذه الفتاة ذات الستة عشر عاماً ، لكونها تحبّه ، إنما استطاعت أن تقرأ هكذا في شخصيته وفي حياته . لفترة طويلة ، لم يتصرّف أوكي إلاّ وفق مزاجه وعناده ، ولكنه بعد ان انفصل عن أوتوكو ، ظلّ يتذكّر كلامها كلّما بدأ بتعليق أهمية على آراء الآخرين . وكان يتمثّلها وهي تقول له تلك الكلمات .

كان أوكي قد كفّ عن مداعبة أوتوكو . وحين ظنّت أن ذلك كان بسبب ما قالته له ، وضعت رأسها في تجويفة ذراعه ، وأخذت تعضّ اللحم عند مستوى المرفق ، من غير أن تنبس بكلمة . وكانت تشتدّ في العضّ ، وتحمّل أوكي الألم ، فلم يتملّص . كان يستطيع أن يشعر بدموع أوتوكو تسيل على ذراعه .

وكان قد قال لها : « إنك توجعينني ! » ممسكاً بشعرها ودافعاً إيّاها عنه . وعلى ذراعه ، كانت أسنان أوتوكو قد تركت أثراً كان الدم يتلألأ فيه . وكانت أوتوكو قد لحست

الجرح ،وقالت له « عضّني ، أنت أيضاً » . فنظر أوكي الى ذراعها ولامسها من الكتف حتى أطراف الأصابع . كانت ما تزال ذراع صبيّة . كان قد قبّل ذراعها فتلوّت أوتوكو لذة وابتهاجاً .

لم يكن بسبب أن أوتوكو كانت قد قالت له : « يجب أن تكون أنت نفسك اكثر من ذلك في كل شيء » كان أوكي قد كتب « فتاة في السادسة عشرة » ، ولكنه تذكّر هذه الكلمات وهو يكتبه . وقد صدرت الرواية بعد عامين من انفصالهما . كانت أوتوكو في كيوتو مع أمّها . ولا شك في أن هذه قد غادرت طوكيو لأنها لم تستطع أن تحصل على جواب من قبل أوكي حين طلبت اليه أن يتزوج ابنتها . ولا شك في انها لم تكن قادرة بعد على احتمال مرارتها وحزنها ، ولا مرارة ابنتها الوحيدة وحزنها . ما عساهما فكّرتا حين قرأتا في كيوتو هذه الرواية التي كانت اوتوكو بطلتها ، هذه الرواية التي جعلت أوكي مشهوراً والتي كان قراؤها يزدادون ؟

لم يَسْعَ أحدٌ لاكتشاف هوية التي اتخذها الكاتب نموذجاً . وانما بعد أن تجاوز أوكي الخمسين وبعد أن استقرّت شهرته ككاتب ، بدأ الناس يبحثون ماضيه ويماهون أوتوكو مع بطلة « فتاة في السادسة عشرة » . كانت أم أوتوكو قد ماتت آنذاك . وكان التقريب قد أصبح اكثر وضوحاً بعد أن أصبحت أوتوكو رسامة مشهورة . بل لقدنُشرت صورٌ لها في مجلات ، مع هذا الشرح : « بطلة فتاة في السادسة عشرة » . وحدس أوكي بأن اوتوكو اذا كانت قد رفضت أن

تصوّر كبطلة للكتاب ، لم تستطع إلاّ أن تدعهم يفعلون حين كانت المسألة أن يصوّروا الرسّامة التي كانتها . وهي طبعاً لم تكن قد كشفت للصحف عن مشاعرها بهذا الصدد . وحتى حين ظهرت الرواية ، لم يبلغ أوكي أي صدى من أوتوكو أو من أمّها .

وكما كان متوقّعاً ، فان المنكّدات كانت قد بدأت في بيته العائلي . كانت فوميكو ، زوجة أوكي ، تعمل ضاربة على الآلة الكاتبة في وكالة للصحافة ، قبل أن تتزوجه . ولهذا كان يدع لزوجته الشابّة عناية ضرب مخطوطاته . وكان ذلك نوعاً من اللعب بين زوجين شابين ، طريقة للتسلية الغرامية ، ولكنها لم تكن كذلك حصراً . فحين ظهر عمل أوكي الأول في احدى المجلات، أدهشه فرق التأثير بين المخطوطة المكتوبة بالقلم وحروف المطبعة الصغيرة . وحين اكتسب تجربة اكبر في مهنته ككاتب ، توقّع بشكل طبيعي ، أمام مخطوطته ، التأثير الذي ستحدثه حروف المطبعة . ليس القصد أنه كتب وهو يفكر بذلك التأثير ، فهو لم يكن يفكر بذلك اطلاقاً ، ولكن الفرق بين المخطوطة والصفحة المطبوعة كان قد زال . كان قد تعلّم الكتابة تبعاً للصفحة المطبوعة وليس للمخطوطة . وحتى المقاطع التي كانت تبدو ، في خطّه ، غير ذات معنى وبلا قيمة كبيرة ، كانت تظهر بمظهر مختلف تماماً إذ هي مطبوعة . ألم يكن ذلك يعني أنه كان قد تعلّم مهنته ؟ كان غالباً ما يقول للكتّاب الشبّان : « إدفعوا الى الطبع شيئاً كتبتموه . إنه مختلف تماماً عن مخطوط ، وسيدهشكم أن تروا

ما سوف يعلّـمكم هذا » . وكانـت الكتــب تصــدر اليوم بأحرف طباعية صغيرة . ولـكن أوكي كان قد شعـر بمفاجـأة عكسيّـة : فهو، على سبيل المثال ، كان قد قرأ دائماً « مقال جانجي »[1] في طبعات مشروحة أو مجموعات للجيب بأحرف صغيرة ، ولكنه حين قرأه مرة في نص محفور في الخشب ، طلع منه بانطباع مختلف كلّـياً ، وفكر بما عسى شعر به أولئك الذين قرأوا هذا العمل في عهد « هيان » (٧٩٤ ـ ١١٩٢) في ترجمة « بالكانية[2] » . وبالاضافة الى ذلك ، فان « مقال جانجي » الذي كان اليوم كتاباً كلاسيكيا عمره الف سنة ، كان في عهد « هيان » رواية عصرية . من أجل هذا ، كانت متعة قراءته بالطبعة القديمة المحفورة في الخشب اكبر من تلك التي يحسّ بها من قرأ نصّـه المطبوع . وكان الأمر كذلك بالنسبة لشعر عهد « هيان » . وكان اوكي قد حاول أن يقرأ أعمال « شايكاكو[3] » في نسخ يرجع تاريخها الى حقبـة « جانـروكو » (١٦٨٨ - ١٧٠٥) . ولم يكن دافعه الى ذلك حبّ الماضي ، وانما حاجة الى الاقتراب ما أمكن من حقيقة العمل نفسه . غير أنه دفـعَ للرهافة الى حد التطـرّف ان تُقـرأ اليوم ، في نصّ مخطـوطٍ ، روايات جعلت لتُطبع ، وليس لتُحـل رموزهـا في خطّ منفّـر لمؤلّفها .

---

(١) رواية كتبها في القرن الحادي عشر مورازاكي شوبيكو يروي فيها غراميات الأمير جانجي .

(٢) حروف مستعارة من الخط الصيني ، وتمثل ٤٧ صوتاً من الأبجدية اليابانية .

(٣) كاتب ولد على الأرجح عام ١٦٤٢ ومات عام ١٦٩٣ .

في فتـرة زواجـه مع فوميكو ، لم يبـق ثمـة فرق بـين مخطوطات أوكي ونصّـها المطبوع ، ولما كانت فوميكو ضاربـةً على الآلة ، فقد كان أوكي يعهد اليها في ضربها . وقد كانت النصوص ، إذ تُـضرب على آلة يابانية كاتبة ، أكثر اقتراباً الى صفحة مطبوعة منها الى مخطوطة بالقلـم . وكان أوكي يعلـم كذلك أن مخطوطات الكتّـاب الغربيين كانت تُضرب مبـاشرة على الآلة أو يُـعاد نقلها على الآلـة . ولـكن تلك الـروايات المضروبة ، بسبب أنه لم يكن معتاداً عليها بلا شك ، كانت تبدو له اكثر تفاهة وبرودة من نصّـها المخطوط او المطبـوع . ولهذا ، كان يجد فيها نقائص على الفور، وكان أيسر عليه أن يعمـد الى التصحيحـات . وهـكذا اعتـاد على إعطــاء جميع مخطوطاته الى فوميكو .

ولكن هل كان يستطيع أن يتصرف على هذا النحـو مع مخطوطة « فتاة في السادسة عشرة » ؟ إنه إذا ترك لزوجتـه أن تضربها فسيؤلمها ويذلّـها . سيكون ذلك محض قسـوة وحشية من جانبه . حين التقـى أوتـوكو ، كانـت زوجتـه في الثـانية والعشرين وكانت قد وضعت ابنهما . بالطبع ، كانت تشـكّ بعلاقة زوجها مع أوتوكو ، وكان يتفق لها ، ليلاً ، أن تتيه ، وولدها على ظهرها ، بمحاذاة سكة الحديد . وذات يوم ، بعد غياب ساعتين ، كان اوكي قد عثر عليهـا مستنـدة الى جذع شجرة الخـوخ في الحديقـة ، رافضـة ان تدخـل الى البيت ، وحين انطلق بحثاً عنها ، كان قد سمعها تنتحب في اللحظـة التي كان يجتاز فيها باب الحديقة .

ـ ماذا تفعلين هنا ، بحق الشيطان ؟ إن الطفل سيأخذ برداً !

كان ذلك في منتصف آذار ، وكان الجو ما زال بارداً . والواقع ان الطفل أخذ برداً وأدخل المستشفى وهو يعاني من بدءٍ بداء ذات الرئة . ولقد لزمت فوميكو المستشفى لتسهر عليه .

ـ سيكون أفضل لك لو مات ! بذلك سيكون أسهل عليك أن تتركني .

هذا ما قالته فوميكو لأوكي . وكان أوكي ، حتى في مثل تلك الفترة ، قد أفاد من غياب زوجته ليلتقي أوتوكو من جديد . وقد تمّ انقاذ الطفل .

حين وضعت أوتوكو مولودها قبل الأوان ، عرفت فوميكو النبأ حين وضعت يدها على رسالة من الأم صادرة عن المستشفى . أن تنجب فتاة في السابعة عشرة ، هذا ما لم يكن في ذاته خارقاً للعادة ، ولكن ذلك كان امراً لم تكن فوميكو قد تصوّرته قط ، حتى ولا في الحلم . وامتلأت غيظاً أن يكون زوجها قد جعل الفتاة الصبّية تعاني ذلك كلّه ، فغطّته بالشتائم ، ثم عضّت على لسانها حتى أدمته . وحين رأى اوكي الدم يسيل على شفتي زوجته ، سارع يفتح فمها ويدسّ فيه يده . وبدأت فوميكو تختنق ، وأخذها الغثيان والقيء حتى استفرغت كل قواها . وسحب أوكي يده . كانت أصابعه تحمل آثار زوجته وتقطر دماً . واذ رأت فوميكو ذلك ، هدأت قليلاً ، فغسلت يد أوكي ودهنتها بدواء عَقول ثم

ضمدتها .

كانت فوميكو تعرف كذلك أن أوتوكو كانت قد تركت أوكي وذهبت الى كيوتو مع أمها . وقد تمّ رحيلها قبل أن تنجز « فتاة في السادسة عشرة » . أن يترك زوجته تضرب المخطوطة ، كان ذلك يعني ، إجمالاً ، تحريك السكّين في الجرح ، بايقاظ غيرتها وألمها ، ولكن ان ينحّيها أوكي ، فهذا ما كان يُشعره بأنه يخفي عنها شيئاً ما . وتحيّر في أمره كثيراً ، ثم اعتزم أن يسلّم فوميكو المخطوطة . كان راغباً ، قبل كل شيء ، بأن يعترف لها بكل شيء . وقد قرأت فوميكو المخطوطة ، من أولها الى آخرها ، حتى قبل أن تضربها ، قالت فوميكو ، ممتقعة الوجه :

ـ كان عليّ أن أدعك تذهب . وأنا أتساءل لماذا لم أفعل ذلك . إن جميع الذين سيقرأون هذه الصفحات ، ستأخذهم الشفقة على أوتوكو .

ـ لم أكن راغباً في كتابة شيء في موضوعك .

ـ أنا أعرف أني لا يمكن أن أُقارن أبداً بالمرأة المثالية .

ـ لم أكن اقصد الى هذا .

ـ كنت مجنونة غيرةً .

ـ لقد ذهبت اوتوكو . ومعك أنت سأعيش بعد الآن خلال سنوات طويلة . ثم إن كثيراً مما وضعته في هذا الكتاب هو محض خيال كاتب ولا يشبه قطّ أوتوكو الحقيقية . فأنا مثلاً ، لا أعرف شيئاً عنها وهي محجور عليها . .

ـ هذا الخيال يأتي من حبّك لها .

قال أوكي ببساطة :

ـ ما كان بإمكاني أن أكتب هذا الكتاب لو لم أحبّـها . فهل ستضربينه لي ؟ إنه يصعب عليّ أن أطلب منك ذلك . . .

ـ سأفعل . إن آلـة كاتبـة ، هي بعـد كل حسـاب ، آلة . سأكون أنا أيضاً نوعاً من آلة .

ولكن فوميكو لم تكن تستطيع أن تتصرّف كآلة ، رغم أقوالها . وكان يبدو انها ترتكب أخطاء كثيرة ، وقد سمع أوكي كثيراً خشخشـة أوراق تُـمـزّق ويُـرمـى بهـا . وحـين كانـت تتوقّـف للراحة ، كان يحـدث لهـا أحيانـاً أن تختنـق بالنحيب ويأخذهـا الغثيان . ولما كان البيت ضيّـقـاً وكانـت الآلـة الكاتبةموضوعة في زاوية من صالة البوريّـات الأربع[1] التـي كانت تجاور قاعة البوريات الستّ التي يتخذها أوكي مكتـب عمل ، فقد كان هذا الأخير يشعر تماماً بحضور زوجته . ولم يكن يمكنه قط أن يجلس بهدوء في مكتبه .

على أن فوميكو لـم تعلّـق بشيء بصدد « فتاة في السادسة عشرة » . ألعلّـها كانت تقدّر أن الآلة التي كانتها كان ينبغي ألاّ تتكلّـم ؟ كانت الـرواية تقـع في زهـاء ثلاثمئـة وخمسـين صفحة ، وكان يبدو أن بضعة أيام كانت ضرورية لإنجازها ، حتى بالنسبة لضاربة متمكّـنة . كانت فوميكو ممتقعة الوجه ، وكان خدّاها غائرين . وكانت غالباً ما تبقى جالسة ، ضائعة

---

(١) رواية كتبها في القرن الحادي عشر مورازاكي شوبيكو يروي فيها غراميات الامير جانجي .

النظر في الإبهام ، ثم كانت تعود الى الضرب بضراوة . وذات مساء ، قبل أن تتناول العشاء ، قاءت سائلاً مصفراً وانهارت . فاقترب منها أوكي ليدلك ظهرها . قالت فوميكو ، يكاد نَفَسُها ينقطع :

ـ ماء ، ماء ، من فضلك .

وكانت دموع تتلألأ في زاويتي عينيها المحمرّتين .

ـ لقد أخطأت ، فما كان لي أن أطلب اليك ضرب هذه الرواية . ولكن أمر إبعادك عن هذا كله . . .

حتى ولو لم يكن مثل هذا الاخفاء كافياً للتسبّب في تدمير حياتهما الزوجية ، فانه كان سيخلّف جرحاً سيطول أمد التئامه .

قالت فوميكو وهي تحاول أن تبتسم ابتسامة صفراء :

ـ بالرغم من أن ذلك كان امتحاناً ، فأنا سعيدة على العكس بأن تكون قد أعطيتني المخطوطة . إنها المرة الأولى التي أضرب فيها رواية بهذا الطول ، وقد استنفدني ذلك .

ـ بقدر ما تطول الرواية يطول امتحانك . هوذا بلا شك قدر زوجة كاتب .

ـ بفضل روايتك ، توصّلت الى فهم أوتوكو فهماً أفضل . فبالرغم من كل الأذى الذي سبّبه لي ذلك ، شعرت كم كان هذا اللقاء مؤاتياً لك .

ـ ألم أقل لك إني قد أمثلتها ؟

ـ أعرف ذلك جيداً . في الواقع ، ليس هناك فتيات مثلها . غير أني كنت أودّ أن تتكلم عني اكثر مما فعلت . حتى

ولو كنت قد صوّرتني بصورة امرأة شرسة تلتهمها الغيرة ، وما كنت لأواخذك على ذلك .

شقّ على أوكي ان يجيب : ـ لم تكوني كذلك قط .

ـ إنك لم تعرف قط ما كان في قلبي .

ـ لم أكن راغباً في كشف جميع أسرارنا .

ـ هذا زائف . لقد كنت من شدة غرامك بصغيرتك أوتوكو بحيث لم تكن تريد أن تكتب إلاّ عنها . ولا شك في انك كنت تظنّ بأنك اذا تكلمت عني ، أبهتّ جمالها ولطّخت عملك ؟ ولكن هل ينبغي لرواية أن تكون بالضرورة شيئاً جميلاً ؟

وبمجرّد كونه قد امتنع عن ذكر غيرة زوجته الجنونية ، كان قد أطلق من قِبَلها أزمة غيرة جديدة . والحقيقة أن أوكي لم يكن قد أهمل الحديث عن ذلك . وربما لم تزدد اقتضابيّته في هذا الا قوة ! ومع ذلك ، فيبدو أن فوميكو عذّبها كثيراً ألاّ يكون قد دخل في التفاصيل . ولم يكن أوكي يبلغ فهم حالة زوجته الذهنية . أتراها كانت تحسّ بأنها مُهمَلة ، محتَقَرة لصالح اوتوكو ؟ ولكن ما دامت الرواية مركّزة على علاقته الفاجعة بالفتاة ، فلم يكن مناص من أن يكون الدور المسند الى فوميكو دون دور اوتوكو . ثم إن أوكي قد أضاف كثيراً من التفاصيل التي كان حتى ذلك الحين قد أخفاها عن زوجته . وقد خشي خاصة ان تدرك هذه الأخيرة ذلك ، ولكن يبدو انها قد جرحها خصوصاً صغر المكان الذي كانت تحتلّه في الكتاب . قال أوكي :

ـ لم أكن أريد استغلال غيرتك في روايتـي ، هذا كل شيء .

ـ ذلك أنه لا يمكنك ان تتحدث عن كائن لا تشعر له لا بالحبّ . . ولا حتى بالحقد . إننـي وأنـا أضرب روايتـك لم أكفّ عن التساؤل لماذا لم أدعك تذهب .

ـ ها أنت ذي تعودين الى النطق بالحماقات !

ـ بل أتكلم جدّياً . كان إجراماً منـي أنـي لم أدعـك تذهب . وسأوآخذ نفسي على ذلك حتى نهاية حياتي .

قال أوكي وهو يمسك فوميكو من كتفيها ويهزّها بقوة :

ـ ما هذا الذي تقولين ؟

ارتجفت فوميكو من رأسها حتى قدميهـا ، ومـن جديد قاءت سائلاً أصفر ، فأرخى أوكي قبضته عنها .

ـ لا شيء . أظن . . . أظن أنني حامل .

ـ ماذا ؟

ارتعش أوكي . فأخـذت فوميكو وجههـا بـين يديهـا وجعلت تنتحب .

ـ يجـب أن تنتبهـي الآن وتأخـذي حذرك . ينبغـي أن تكفّـي عن ضرب تلك المخطوطة .

ـ لا ، بل أريد أن أستمرّ . دعني أفعل ، أرجوك . إني أكاد أنتهي ، ثم إن أصابعي وحدها هي التي تعمل .

رفضت فوميكو أن تستمع الى أوكي . وبعد أن أنجزت ضرب المخطوطـة ، أجهضـت . كان يبـدو أن مضمـون المخطوطة نفسه هو الذي سبّـب لها صدمة حقيقية ، لا الجهد

المبذول وحده . ولزمت سريرها بضعة أيام . وكان شعرها الناعم الكثيف الذي كانت قد ضفرته يبدو أدقّ من المعتاد . وكانت شفتاها وحدهما تغطّيهما طبقة خفيفة من أحمر الشفاه . أما بشرة وجهها الذي انسحب منه الدم ولم تكن قد طرّته ، فكانت تبدو مخمليّة . وقد استردّت فوميكو ، بفضل شبابها ، قواها كلها تقريباً بعد ذلك الإجهاض .

وضع أوكي النصّ المضروب ، كما هو ، في ملفّ . لم يمزّقه . ولم يرمِ به الى النار ، ولكنه لم يُعد قراءته . في هذه الرواية ، كانت ثمة حياتان مكفّنتان في الظلمات . فاذا أُخذ بالاعتبار طفلة أوتوكو المولودة قبل الأوان وإجهاض فوميكو ، أفلا ينبغي أن يُرى في تلك الصفحات شيء مشؤوم ؟ خلال فترة من الزمن ، تجنّب أوكي وفوميكو خوض هذا الموضوع . ثم كانت فوميكو أول من أشار اليه :

ـ لماذا لا تنشرها ؟ أتخشى أن تسيء إليّ ؟ إنه لا مفرّ من مثل ذلك حين تتزوّج إمرأة بكاتب ، واذا كنت تخشى أن تجرح أحداً ، فستكون هي أوتوكو ، على ما يخيّل إليّ .

وكانت بشرة فوميكو قد استردّت ، خلال نقاهتها ، لوناً مشرقاً . أكانت تلك معجزة الشباب ؟ وكانت رغبتها في زوجها قد أصبحت كذلك أكثر حدّة .

وفي الفترة التي نشرت فيها « فتاة في السادسة عشرة » ، كانت فوميكو حاملاً من جديد .

امتدح النّقاد الرواية . وأقبل عليها عدد كبير من القراء . ولم تكن الغيرة والألم قد تركا فوميكو ، ولكنها

ابتهجت بنجاح زوجها ، من غير أن تعكس ملامحها ولا كلماتها مرارتها . وكانت تلك الرواية التي وُصفت بأنها أكثر روايات أوكي تمثيلاً لأعمال الشباب هي التي سجّلت اكبر رقم في المبيع . وقد أتاح هذا النجاح لأوكي ولأسرته أن يحسّنوا وضعهم ، وهو تحسين اتخذ بالنسبة لفوميكو مظهر الملابس والجواهر وتوفّر المال لتغطية النفقات المدرسية لأبنها وابنتها . أترى فوميكو قد نسيت أن هذا كلّه معزوّ الى فتاة صبية والى العلاقة التي نسجها زوجها معها ؟ أكانت تعتبر هذا المال نتاجاً طبيعياً لزوجها ؟ ألم تكن تلك المغامرة بين أوتوكو وأوكي ترتدي بعدُ ، في نظرها على الأقل ، طابعاً مأساوياً ؟

لم يكن لأوكي أي اعتراضٍ على هذا الوضع ، ولكنه كان يفاجيء نفسه أحياناً وهو يفكّر بأن أوتوكو ، التي كانت قد أفادت لتكون نموذجاً لروايته ، لم تتلقّ بالمقابل شيئاً . لم توجّه اليه أية كلمة لوم ، ولا أمّها كذلك . وقد كان أوكي يستطيع ، خلافاً لأيّ رسّام أو نحّات صور واقعية ، أن ينفذ بواسطة الكلمات والحروف إلى أفكار أوتوكو ، وأن يشكّل ملامحها على هواه ، وأن يطلق العنان لخياله فيؤمثل الفتاة كما يهوى ، من غير أن ينتج عن ذلك على الاطلاق أن تكون فتاة أخرى . وكان أوكي قد ترك لحبّه أن يعبّر عن نفسه بكل شبابه وبكل حدّته ، ولم ينشغل لحظة واحدة بما كان يشكّل ذلك لأوتوكو من ضيق وانزعاج ، ولا بما يوشك أن يسبّبه من مصاعب بالنسبة لامرأة شابّة عازبة ـ ولا ريب في أن هذا هو ما فتن القراء ، ولكن ذلك كان يمكن أن يشكّل عقبة في طريق

زواج أوتوكو . كانت الرواية قد جلبت له الشهرة والمال . وكان يبدو أن فوميكو قد نسيت غيرتها وأن الجرح قد التأم . أتراه لم يكن ثمة فرق كذلك بين مولود أوتوكو الخديج وإجهاض فوميكو ؟ لقد كانت فوميكو امرأته بعد ، وكانت ، بعد نقاهة طبيعية ، قد أنجبت ، بلا تعقيدات ، فتاة صغيرة . وكانت الأشهر والأعوام تنقضي ،والكائن الوحيد الذي لم يتغيّر كان بطلة روايته الشابّة . كان أوكي ، من وجهة نظر شخصية منحطّة ، وبالرغم من أن ذلك كان واحدة من نقائص الرواية ، قد رأى من الأفضل ألاّ يلحّ اكثر مما ينبغي على غيرة زوجته الضارية . وكان ذلك أيضاً ، بلا شك ، هو ما جعل قراءة الكتاب ممتعة الى هذا الحدّ ، والبطلة على هذا القدر من الجاذبيّة .

وحتى الآن ، بعد زهاء عشرين عاماً ، لا يزال الناس يذكرون « فتاة في السادسة عشرة » كأفضل أعمال أوكي . ولكن أوكي، بصفته كاتباً، كان يرى أن هذا التقدير محزن، ويشعر من ذلك بالضيق . ومع ذلك ، وإذا أُخذ كل شيء بالحسبان ، ألم تكن للرواية نضارة الشباب ؟ لم تكن احتجاجات المؤلف نفسه تستطيع ان تتغلّب على حماسة الجمهور وعلى شهرة مكينة ثابتة ؟ لقد بدأ العمل يعيش حياة خاصة به ، بغير أية صلات مع مؤلفه . ولكن ما الذي آلت اليه أوتوكو الصبّية ؟ كان أوكي يطرح أحياناً هذا التساؤل . وكان كل ما يعرفه أنها كانت قد تبعت أمّها الى كيوتو . ولا شك في أن الحياة التي كانت روايته تعيشها هي التي قادت أوكي

الى التساؤل عن مصير أوتوكو .

في هذه السنوات الأخيرة فقط ، حقّقت أوتوكو لنفسها اسماً بصفتها رسّامة . وكانا ، حتى ذلك الحين ، قد بقي كلاهما بلا نبأ عن الآخر . كان أوكي يعتقد بأن أوتوكو ، شأن الآخرين ، قد تزوجت وراحت تعيش عيشة عادية . كان هذا على الأقل ما كان يرجوه . ولكنه لم يكن يظنّ ان اوتوكو كان من طبعها أن تكتفي بحياة عادية . وكان يتفق له أحيانا أن يتساءل إذا لم يكن يفكّر على هذا النحو لأن التعلّق الذي كان يحسّ به نحوها لم يكن قد مات كلّياً .

من أجل هذا كانت الصدمة كبيرة حين علم أن أوتوكو كانت قد أصبحت رسّامة .

وكان أوكي يجهل التجارب والمحن التي مرّت بها أوتوكو ، والمزعجات التي تغلّبت عليها قبل أن تبلغ ما بلغت ، ولكن نبأ نجاحها خلّف له فرحة حادّة . وحين وقع بالمصادفة على لوحة من لوحاتها في رواق للرسم ، ارتعش تأثّراً . لم يكن المعرض مخصّصاً لها وحدها . بل كانت لوحة واحدة مرسومة على الحرير ، وهي تمثّل نبتة عود الصليب ، معروضة بين أعمال فنّانين عديدين آخرين . كانت أوتوكو قد رسمت ، في القسم الأعلى من الحرير ، عود صليب واحداً أحمر . وكانت الزهرة ، وهي أكبر من الحجم الطبيعي ، تُرى مواجهة . وكانت الأوراق نادرة ، وكان برعم واحد يبرز على الساق . وقد تعرّف اوكي في هذه الزهرة ، المكبّرة عن قصد ، كبرياء أوتوكو ، وكذلك نبلها برمّته . وكان قد

سارع الى شراء اللوحة ، ولكن لما كانت تحمل ختم أوتوكو وتوقيعها ، فقد آثر ألاّ يحملها الى البيت وأن يقدّمها هدية لنادي الكتّاب الذي كان عضواً فيه . وهكذا كانت اللوحة ، التي عُلِّقت عاليةً على جدار النادي ، تعطي انطباعاً مختلفاً بعض الشيء عن ذلك الذي أعطته في الرواق الغاصّ بالناس . كان شيء ما عجيب يبدو مُشعّاً من عود الصليب الكبير الأحمر الذي كان ينبعث منه ما يشبه انطباع وحدة . وفي الفترة نفسها رأى أوكي في مجلة نسائية صورة لأوتوكو في مرسمها .

وكان يتمنّى ، منذ أعوام طويلة ، أن يسافر الى كيوتو ليستمع فيها الى أجراس آخر السنة ، ولكن ذلك الرسم هو الذي أعطاه الرغبة في أن يستمع اليها بصحبة اوتوكو .

في « يامانوشي » ، شمالي كاماكورا ، كانت ثمة طريق تعدو بين التلال التي تتكاثر فيها الأشجار الزاهرة . عما قريب ، في محاذاة تلك الطريق ، ستبشّر الزهور بمقدم الربيع . وكان أوكي قد اعتاد التنزُّه على « تلال الجنوب » ، وكان من رأس قمة من قممها يتأمل الآن مغيب الشمس الأرجوانية .

لم تلبث الشمس الغاربة أن فقدت لونها الأرجواني الذي حال الى زرقة معتمة وباردة ، مُغرقة بالرمادي . كان ذلك كما لو أن الربيع يتنازل من جديد عن مكانه للشتاء ، وهو لم يكد يُطلّ . وكانت الشمس التي كانت تضفي على الضباب الخفيف انعكاسات وردية ، قد غربت ، وأصبح الجوّ فجأة اكثر برداً . فهبط أوكي نحو الوادي ، عائداً الى بيته

عند « تلال الشمال » .

أبلغته زوجته :

- جاءت من كيوتو فتاة شابّة تدعى ساكامي . وقد جلبت لوحتين وحلوى من كيوتو .

- وهل ذهبت ؟

- صحبها « تاشيرو » . ربما كانا يبحثان عنك .

- آه ! هكذا إذن ؟

- إنها ذات جمال شيطانيّ . فمن تكون ؟

سألت فوميكو ، وعيناها تحدّقان بأوكي كما لتقرأ الجواب على وجهه . وجهد أوكي ليبدو كما لو لم يكن ثمة شيء ، ولكن حدس فوميكو النسوي جعلها تظنّ ان المسألة مسألة شخص على صلة ما بأوينو أوتوكو .

سألها أوكي : - اين اللوحتان ؟

- في مكتبك ، إنهما لا تزالان مغلّفتين ، ولم أنظر اليهما .

- حقاً ؟

كان يبدو أن ساكامي كايكو وفت بوعدها الذي أعطته أوكي في محطة كيوتو ، فجاءت تزوره مع بعض أعمالها . وسرعان ما توجّه أوكي الى مكتبه وفضّ الغلاف . كانت اللوحتان مؤطّرتين ببساطة . كانت احداهما تدعى « شجرة خوخ » ، ولكن كانت تبدو فيها فقط زهرة بكبر رأس طفل ، بلا غصون ولا جذع . وبالاضافة الى ذلك ، كان لهذه الزهرة الوحيدة تويجيات حمر وأخرى بيض . وكانت كلّ تويجية حمراء

تبرز بواسطة تأثيرات تدرُّجية . ولم تكن تلك الزهرة الضخمة مشوّهة حقاً ، ولكنها لم تكن تمنح الانطباع بأنها موتيف تزييني ، كان نوعٌ من حياة سرّية يبدو وهو يضطرم فيها ، وكان يبدو عليها انها تتحرّك بالفعل . ربما كان ذلك يُعزى الى الخلفية التي كان أوكي قد اعتبرها في البدء تكديساً لقطع كثيفة من الثلج ، ثم تعرّف فيها بعد ذلك سلسلة من جبال ثلجية . في تلك اللوحة التي لم تكن تقصد الى انعكاس للحقيقة ، وحدها جبالٌ تغطيّها الثلوج كانت تستطيع أن تعطي مثل هذا الانطباع بالفساحة والجسامة . ولكن الجبال الحقيقية ليست طبعاً على مثل هذا التشرذم والتمزُّق . ولم تكن تتقلّص هكذا عند القاعدة . كان ذلك هو الأسلوب التجريدي الخاص بكايكو . ألم يكن بالأحرى هو المنظر الداخلي للرسّامة ، اكثر مما هو جبال ثلجية أو قطع من ثلج ؟ حتى ولو كان المرء يرى فيها سلسلة من الجبال ، فلم يكن ثمة بياض الثلج البارد . كان نوع من الموسيقى يولد من الانطباع المثلج الذي يمنحه الثلج ولونه الحارّ . ولم يكن الثلج معبّراً عنه ببياض فريد ، بل كانت ثمة ألوان مختلفة تمتزج فيه كما في أغنية ، مذكّرةً بتنويعات الأحمر والأبيض في تويجيات زهرة شجرة خوخ . وسواء وجد المرء هذا الرسم بارداً أم لا ، فهذا لا ينفي أنه يعبّر عن شباب الفنّانة وانفعالها . ولا شك في ان كايكو قد رسمت اللون من أجل اوكي ، كما لتتساوق وتتوحد مع الفصل . لم يكن العمل إلاّ نصف تجريدي ، ما دامت زهرة الخوخ معروفة فيه .

فيما كان أوكي يتأمل اللوحة ، أخذ يفكّر بشجرة الخوخ المسنّة في حديقته . فبالرغم من تشوّهات الشجرة ، فان أوكي لم يحقّق قطّ في المعلومات النباتية المشكوك فيها التي كان يملكها البستانيّ . كانت الشجرة المسنّة قد أعطت أزهاراً بيضاً وحمراً .لم يكن البستاني قد قام بأيّ تطعيم ، فنبتت الأزهار حمراً وبيضاً على الغصن نفسه . ولكن لم تكن جميع أغصان الشجرة كذلك ، إذ لم تُزهر على بعضها الا أزهار بيض ، ولم تزهر على بعضها الآخر إلاّ ازهار حمر . ومع ذلك ، فقد كانت الأزهار الحمر ، معظم الوقت ، تمتزج بالبيض وتُزهر كل سنة على غصون مختلفة . وكان اوكي يحبّ تلك الخوخة المسنّة التي كانت براعمها الجديدة توشك على التفتُّح في تلك الأيام ذاتها .

كانت كايكو ، بلا أدنى شك ، قد رمزت في ذلك الرسم الى شجرة الخوخ تلك الغريبة بزهرة واحدة من أزهارها . ولا بدّ أن أوتوكو كانت قد حدّثتها عن تلك الشجرة . وبالرغم من أنها لم تكن قد جاءت قط الى بيت أوكي ، الذي كان متزوّجاً فوميكو ، فلا بدّ أنها تعرف بوجود الشجرة . كانت قد تذكّرتها وتحدّثت عنها الى تلميذتها .

أترى أوتوكو قد أشارت كذلك الى حبّها الفاجع القديم وهي تذكر شجرة الخوخ تلك ؟

ـ هل هي من أوتوكو ؟

ـ ماذا ؟

التفت اوكي . كان مستغرقاً في تأمّل اللوحة ، فلم

يشعر بحضور زوجته خلفه .

ـ هل هي من رسم أوتوكو ؟

ـ لا ، بالتأكيد . إنها لن ترسم أبـداً شيئـاً بمثـل هذه الفتوّة ، بل هي رسم تلك الفتاة التي كانت هنا منذ حـين . أنت ترين جيّـداً انها تحمل توقيع « كايكو » .

قالت فوميكو بصوت قاسٍ :ـ ما أغربه رسماً !

أجاب أوكي وهـو يجهـد باصطنـاع الـرقّـة : ـ غريب بالفعل ! رسّـامو أيامنا الشّـبان ، حتى بالأسلوب الياباني .

ـ أهذا ما يسمّـى « الفن التجريدي » ؟

ـ ربما لم يكن بالامـكان أن نتكلـم هنـا حقـاً عن فنّ تجريدي . . .

ـ إن اللوحة الأخرى هي اكثر غرابة . إنني لا أستطيع أن أقول اذا كان هناك سمكة أو غيمة ، مع كل تلك الألوان المرسومة كيفما اتفق الأمر !

قالت فوميكو ذلك وهي تجلس وراء أوكي .

ـ هَمْ ! ليست هناك علاقة بسمكة او غيمة . ويبدو أنها ليست هذه ولا تلك .

ـ في هذه الحالة ، ما عسى ذلك يمثّـل ؟

ـ تستطيعين ان تتخيّـلي أنها سمـكة أو غيمـة كذلك . هذا لا أهمية له على الاطلاق .

واستقرّ نظره على الرسم . وانحنى قرب الجدار الـذي كانت اللوحة مُـسندة اليه وتفحّـص قفا الاطار .

ـ ليس هناك من عنوان .

لم يكن بالامكان تطبيق أيّ شكل على هذه اللوحـة ، وقد كانت الألوان المستعملة أشدّ حدّة وتنوُّعاً مما في « شجـرة خوخ » . ولا شك في أن فوميكو انما ظنّـت أن فيها سمكة أو غيمة بسبب تكاثر الخطوط الأفقية . وللوهلة الأولى ، لا يبدو أن ثمة أيّ تناسق بين الألوان . ومع ذلك ، فقد كان شغف غريب ينبعث من ذلك العمـل الـذي نُـفِّـذ بأسلـوب يابانـي تقليديّ . لم يكن ثمة بالطبع ما هو عرضيّ طارىء فيها . وقد كان انعـدام اعطائهـا عنوانـاً يتـرك المجـال واسعـاً لجميع التفسيرات . وربما كانت ذاتيّـة الفنّانة ، التي تبدو أنها تختفي في العمل ، كانت بالعكس مكشوفة . وقد كان أوكي يحاول ان يكتشف قلب الرسم ، حين سألته زوجته :

ـ هذه الفتاة ، ما عساها تكون تماماً بالنسبة لأوتوكو ؟

أجاب أوكي : ـ تلميذة تعيش معها .

ـ حقـاً ؟ هل تسمـح لي بتمـزيق هاتـين اللوحتـين أو بالقائهما في النار ؟

ـ كفّـي عن النطق بالحماقات ! لماذا هذا العنف كلُّـه ؟

ـ لقد وضعت كل قلبها في هذين الرسمين ! كل شيء فيهما يتحـدّث عن أوتـوكو ! وليسـت هذه أشياء تُـحفـظ في البيت .

دهش اوكي لنوبة الغيرة المفاجئة هذه ، فسألها بهدوء :

ـ ما الذي يجعلك تقولين إن كل شيء فيهما يتحدّث عن أوتوكو ؟

ـ ألا ترى ذلك إذن ؟

ـ ليس هذا الا تأثير خيالك . لقد بدأت ترين أشباحاً !

ولكن ، فيما كان يتكلّم ، انبثق في داخله نور ، أخذ يلتمع بمزيد من الكثافة .

كان واضحاً أن « شجرة خوخ » كانت تعبّر عن الحبّ الذي تكنّه أوتوكو لأوكي . أما اللوحة التي لا عنوان لها ، فقد كانت تعبّر بلا ريب عن الأمر نفسه . لم تكن كايكو قد استعملت في هذه إلاّ أصباغاً معدنيّة مموّهة تمويهاً ثقيلاً سكبت عليها اللون نقطة نقطة ، منذ وسط التركيب حتى القسم الشمالي الأسفل . وكان أوكي يحسب انه يميّز روح هذه اللوحة في ذلك الحيّز الغريب الصافي الذي يبدو مرئياً من نافذة . كان يمكن أن يرى في ذلك اشارة الى أن حبّ أوتوكو كان ما يزال حيّاً .

ـ ليس هو مع ذلك عمل أوتوكو ، بل عمل تلميذتها .

كانت فوميكو تبدو وكأنها تشكّ في أن يكون أوكي قد التقى أوتوكو في كيوتو . ولكنها لم تكن قد قالت شيئاً آنذاك ، ربما لأن يوم عودة زوجها كان كذلك يوم عيد . وقالت فوميكو وأجفانها ترتعش :

ـ مهما يكن من أمر ، فان هاتين اللوحتين ترعبانني ؟

ـ سواء راقتا لك أم لا ، فانهما تخصّان تلك التي رسمتها . حتى ولو لم تكن الرسّامة المعنيّة إلاّ فتاة شابّة ، أتحسبين أن باستطاعتك إتلافهما هكذا ، وفقاً لرغبتك ؟ وقبل ذلك ، هل أنت متأكّدة من أنها منحتنا إياهما أم انها جاءت ببساطة لترينا إياهما ؟

ظلّـت فوميكو صامتة لحظة .

ـ إن « تاشيرو » هو الذي استقبلها عند المدخـل . . . ثم أخذهـا الى المحطـة ، وقـد مضـت الآن فتـرة طيّـبـة على ذهابه .

أكان ذلك التأخُّـر يقلـق أيضـاً فوميكو ؟ لقـد كانـت المحطة قريبة من البيت ، وهناك قطار كلّ ربع ساعة .

ـ لقد جاء الآن دور تاشيرو في الافتتان . فتاة في مثل هذا الجمال ، جمال شبه شيطانيّ .

وضع أوكي اللوحتين وغلّـفهما على مهل .

ـ كفاك كلاماً عن الفتنة والافتتان! أنا لا أحـب ذلك. لئن كانت تلك الفتاة جميلة الى هذا الحدّ ، فأفترض أن أعمالها ليست إلاّ انعكاسها ، نرجسية فتاة شابّـة . . .

ـ لا . بل هي بدون أدنى ريب انعكاس أوتوكو .

ـ في هذه الحالـة ، ربمـا كانـت هذه الفتـاة واوتـوكو تتحابّـان ؟

ـ سحاقيّـتان ؟ (كانت فوميكو مذهولـة) أتظـنّ أنهما سحاقيّـتان ؟

ـ لا أدري من ذلك شيئاً ، ولكن هذا لن يدهشني . إنهما تعيشان معاً في دير قديم بكيوتـو ، وكلتـاهما ذات طبـع ملتهب .

والحـق أن فوميكو اضطربـت وتشوّشـت إذ فكرت بأن المرأتين سحاقيّتان ، وقد ظلت لحظة تلتزم الصمت .

ـ مهما يكن من أمر ، فأنا أعتقد بأن هاتـين اللوحتـين

تعبّـران عن الحب الذي لا تزال أوتوكو تحمله لك .

كانت لهجة فوميكو قد رقّـت . وقد شعر أوكي بالخجل ان يكون قد تكلّـم عن الجنسيّـة المثلية ليتملّـص .

ـ ربما كان كلانا مخطئاً . لقد نظرنا الى هذين الرسمين بأفكار مسبّـقة . . .

ـ ولكن لماذا تُـرسم أشياء غير معقولة الى هذا الحدّ ؟

ـ هذا الأمر !

إن الرسـم ، سواء أكان واقعياً أم لا ، يكشف أفـكار الفنّـان ومشاعره الحميمـة . وقـد تجنّـب أوكي ، بدافـع من جبن ، مواصلة هذا النقاش مع زوجته .

ولعـل انطبـاع فوميكو الأول أمـام لوحتـي كايكو كان صحيحاً ، خلافاً لكل ما هو متوقّـع ! وربما كانت نظرة أوكي صحيحة هي أيضاً حين فكّـر بأن المرأتين كانتا سحاقيّـتين .

غـادرت فوميكو المكتـب . وانتظـر أوكي عودة ابنـه تاشيرو .

كان تاشيرو استاذاً مساعداً في جامعـة خاصـة ؛ وكان يدرّس الأدب اليابانـي . وفي الأيام التـي لا يعطـي فيهـا محاضرات ، كان يتوجّه الى قاعة الدراسة في الجامعة أو يقوم بأبحـاث في البيت . وقـد أراد في البـدء ان يدرس « الأدب الحديث » أي الأدب الذي يبدأ من عهد « ميجي » ، ولكن أباه عارض ذلك ، فكان أن تخصّص في أدب فترة كامـاكورا (١١٩٢ ـ ١٣٣٣) وفتـرة موروماشي (١٣٩٢ ـ ١٥٧٣) . وكان من مزاياه ، النادرة لدى إخصّـائيّ في الأدب

الياباني ، أنه يستطيع أن يقرأ الانكليزية والفرنسية والألمانية . كان شاباً موهوباً جداً ، هادئاً ، ولكنه يبدو كئيباً بعض الشيء . وكان على نقيض تام مع أخته التي تصغره « كوميكو » الفَكِهة اللامنسجمة ، مع معلوماتها السطحية في مادة الخياطة والجواهر والسرد وترتيب الزهور . وحين كانت كوميكو تعرض عليه الذهاب للتزلُّج او للعب بكرة المضرب ، كان تاشيرو يتملَّص دائماً ، فانتهى الأمر بأخته الى ان تعتبره غريباً . ولم يكن تاشيرو يعاشر قط صديقات كوميكو ، وحين كان يدعو تلامذته الى البيت ، لم يكن يتنازل لتقديمهم لها . وبالرغم من أن أخته لم تكن ذا طبع حرِد ، فقد كانت تبرطم بعض الشيء أمام الاستقبال الحارّ الذي كانت أمّها تعامل به تلاميذ تاشيرو .

وكانت أمها تقول :

ـ حين يستقبل أخوك طلاّبه ، فيجب أن نقدِّم الشاي لهم فقط . أما أنت ، فتفتّشين في الثلاّجة ، وفي الخزائن وتتلفنين بمجرّد أن تأخذك الرغبة بطلب « السوشي(*) » وسواها ، وتقومين بضجيج لا يُصدَّق . . . .

وكانت كوميكو تجيب ، وهي تضحك من طرف خفيّ :

ـ ولكن أخي لا يستقبل إلاّ تلامذته !

كانت كوميكو متزوّجة ، أما تاشيرو الذي لم يكن بعدُ

(*) كرات من أرز تعلوها قطع من السمك النيىء .

مستقلاً مالياً ، فانه لم يكن يفكر بالزواج .

كان أوكي قد بدأ يقلق لتأخُّر ابنه .

وتطلّع من نافذة مكتبه . كانت الأرض تشكّل شبه جبل صغير في المكان الذي كان قد حُفر فيه ملجأ ضد الطيران في أثناء الحرب ، وكانت تغطّيه أعشاب طفيليّة . ووسط هذه الأعشاب ، كانت تتفتّح كمية كبيرة من الأزهار الزرق . وتلك الأعشاب الرديئة كانت من التخفّي بحيث انها تكاد لا تُرى . وكذلك كانت الأزهار صغيرة جدّاً ، ولكن زرقتها عميقة ولامعة ، واذا استثنى الـ « ـدَفْنة » ، فان تلك الأزهار كانت الأولى التي تتفتّح في حديقة أوكي وتبقى أطول مدّةٍ متفتّحة . صحيح أنها لم تكن تبشّر بمقدم الربيع ، ولكنها كانت تزهر على مقربةشديدة من نافذةمكتبه، حتى أن الرغبة كانت تأخذ أوكي احياناً في الهبوط وقطف احدى هذه الأزهار المتواضعة والاحتفاظ بها في يده لكي يدرسها بتنبّه . ولكنه لم يكن قد فعل ذلك قط ، وهذا ما كان يساعد في مضاعفة الحب الذي كان يحمله لتلك الأزهار الزرق .

وفيما بعد ، في تلك الطاقة من العشب ، جاء دور الطَرَخْشقون بالازهار . كانت حياته هي ايضاً طويلة . وقد كان أوكي يستطيع الآن ، في النورِ الشَفَقي ، أن يميّز صفرة أزهار الطرخشقون وزرقة سائر الأزهارِ الصغيرة . وقد مكث فترة طويلة ينظر اليها .

وطال تأخُّر تاشيرو عن البيت .

عيد البدر

كانت أوتوكو قد اعتزمت ان تحضر مع كايكو عيد البدر على جبل « كوراما » . وكان هذا العيد يقع في شهر أيار وفق التقويم الشمسي الذي كان تاريخه مختلفاً عن التقويم القمري . وكان القمر ، في العشيّة التي سبقت العيد ، قد طلع في السماء الصافية ، فيما وراء « تلال الشرق » .

قالت أوتوكو ، متوجّهة الى كايكو ، فيما كانت تنظر الى القمر من الشرفة :

ـ أعتقد أن القمر سيكون جميلاً ، غداً .

وكان الحجّاج ، خلال العيد ، يُفترض أن يشربوا قدحاً من « الساكي » كان ينعكس فيه البدر ، فكان من المزعج أن تغيم السماء ويغيب القمر .

خرجت كايكو الى الشرفة ووضعت يدها برقّة على ظهر أوتوكو .

قالت أوتوكو : ـ قمر أيّار .

فلم تومىء كايكو برأسها إيجاباً ، ولكنها سألت ، قاطعة صمتها الذي دام فترة :

ـ ما قولك في أن نقوم برحلة في السيارة على « تلال

الشرق » ؟ أو في « أوتسو » ، لنرى انعكاس القمر في بحيرة « بيوا » ؟

ـ القمر في بحيرة بيوا ؟ ليس في هذا المنظر ما هو خارق للعادة !

ـ أيكون أجمل أن نرى القمر في قدح « ساكي » من أن نراه في بحيرة كبيرة ؟

قالت كايكو ذلك وهي تجلس عند قدمي أوتوكو ، ثم أضافت :

ـ عجباً ! أيّ لون غريب للحديقة ، هذا المساء !

ـ حقاً (واستقر نظر أوتوكو على الحديقة) أتريدين ، يا كايكو ، أن تأتيني بوسادة وان تطفئي النور في البيت ؟

من الشرفة ، وحدها الحديقة الداخلية كانت مرئية ، لأن مبنى الدير الرئيسي كان يسدّ الرؤية . كانت حديقة غير متناسقة ، ذات شكل مستطيل . وكان نصفها تقريباً مغموراً بالقمر ، بحيث أن أحجار المجازة كانت تتخذ أصباغاً مختلفة ، وفقاً لكونها مضاءة أو غارقة في العتمة . وكانت صحراوية بيضاء ، قد تفتّحت في الظلمة ، تبدو طافية . وكان ما يزال للقيقب الأحمر ، قرب الشرفة ، أوراق غضّة كان الليل يسوّدها . وكان الناس في الربيع غالباً ما يظنّون البراعم الحمر النضرة ازهاراً ويتساءلون عن نوعها . وكانت الحديقة مغطّاة كذلك بسجّادة جميلة من الطحلب .

واقترحت كايكو : ـ ما تقولين في أن أصنع شاياً ؟ أول شاي في الفصل ؟

كانت تتساءل لماذا كانت أوتوكو تنظر هكذا الى تلك الحديقة التافهة . لم تكن أوتوكو تبدو معتادة على ان تراها كذلك في مختلف ساعات النهار والليل . كانت قائمة هناك ، خافضة الرأس ، محدّدة العينين على نصف الحديقة المغمور بالقمر ، بهيئة من يفكّر بشيء ما .

عادت كايكو الى الشرفة وأخذت تصبّ الشاي .

ـ قرأت في مكان ما أن نموذج « رودان » الذي استوحى منه « القبلة » ما زال على قيد الحياة ، وأن عمره الآن زهاء ثمانين عاماً . إن هذا يصعب تصوّره اذا فكّرنا ثانية بالتمثال المنحوت ، أليس كذلك ؟

ـ أتظنّين ؟ أنت تقولين هذا لأنك صبيّة ! أتظنّين أن عليك أن تموتي في غضارة الشباب لمجرّد أنك أفدت لنموذج ، لرائعة من الروائع ؟ إننا نقع في الخطأ أن نفرط في المطالب من نماذجنا !

كانت فجاءة جواب أوتوكو صادرة من كون كلام كايكو قد ذكّرها رواية أوكي . ومع ذلك ، فان اوتوكو ، في الأربعين من عمرها ، كانت ما تزال جميلة . وتابعت كايكو ، من غير أن تلاحظ شيئاً :

ـ حين قرأت ذلك ، جاءتني فكرة ان ترسمي صورتي ، ما دمت شابّة .

ـ بكل رضى ، إذا كنتُ قادرة على ذلك ؛ ولكن لماذا لا ترسمين بنفسك صورتك الذاتية ؟

ـ أنا ؟ . . . لن تكون مشابهة جداً . إنها قد تكشف

جميع بشاعـات نفسي ، والأغلـب أن ينتهـي بهـا الأمـر الى إرعابـي . أو أن النـاس ، إذا رسمـت نفسي رسماً واقعياً ، سيجـدون بالتـأكيد أنـي أكوّن عن نفسي رأياً مفرطـاً في الاعتزاز .

ـ أتـريدين صورة واقعية ؟ إن هذا يبـدو لي غـير معقول . ثم إنك شابّـة ما تزالين ، وستتغيّـرين .

ـ أودّ أن تكوني أنت من يرسم صورتي .

فردّدت أوتوكو : ـ بكل رضى ، إذا كـنـت قادرة على ذلك .

سألتها كايكو بصوت قارص :

ـ أتراك كففت عن حبيّ ام انكِ خائفـة منّـي ؟ إن أيّ رجل سيفتنه أن يرسمني . بل حتى أن يرسمني عارية .

ولم يَـبْـدُ أن تهمة كايكو جعلت أوتوكو تضطرب اكثر مما ينبغي .

ـ ما دمت تطلبين ذلك ، فسأحاول .

ـ ما أسعدني بذلك !

ـ ولكني لن أرسمك عارية . حين ترسم امـرأة امـرأة أخرى عارية ، فالنتيجة ، في اعتقادي ، لن تكون عظيمة ، وأقل من ذلك ، بأسلوب الرسم التقليدي الذي هو أسلوبي .

قالت كايكو بلهجة مداعبة :

ـ إذا رسمت صورتي الذاتية ، فسأتدبّـر الأمر لنظهـر فيها نحن الاثنتين .

ـ اتساءل عما عسى ذلك أن يُـعطي .

اتخذت الفتاة هيئة غامضة وانتابتها ضحكة مخنوقة :
ـ سأرسم عملاً تجريدياً ، ولن يفهم أحدٌ شيئاً منه . . . لا تقلقي .

أجابت أوتوكو : ـ لست قلقة على الاطلاق .

وأخذت جرعة من الشاي المعطّر . كان أول شاي في الفصل ، وكان قد قُدِّم لأوتوكو حين قصدت منطقة « اوجي » لترسم فيها بعض المشاهد عن كثب . ولم تكن قد فعلت أي تخطيط عن قاطفات الشاي الشابات . بل كانت قد اكتفت بأن ترسم ، على مساحة القماشة كلها ، تموّجات أشجار الشاي تتزاحم فيما بينها . وكانت قد عادت عدة مرات الى « أوجي » ورسمت تخطيطات عدّة ، آخذة بالاعتبار تغيرات العتمة والضوء على أدغال الشاي . وكانت كايكو بصحبتها .

وذات يوم ، سألت كايكو :
ـ أليس ما تفعلينه هنا يمتّ الى الفن التجريدي ؟
ـ كان يمكن أن يكون كذلك لو كنت أنت من يرسمها .
وبالرغم من أن ذلك جرأة مني ، فاني أجهد فقط لأساوق خضرة البراعم الغضّة والأوراق المسنّة ، وكذلك تموّجات الأدغال اللّدنة وتنوّعات الألوان .
كانت أوتوكو قد رسمت في مرسمها مخططاً أول للمنظر .
على أن ما قاد أوتوكو لرسم مشاتل الشاي في اوجي لم يكن فقط اهتمامها بالتموّجات الخضر وبألوانها المتنوّعة ، ولا

بخطوط الأدغال المتموّجة . فبعد قطع صلتها بأوكي ، رحلت الى كيوتو مع أمها ، ولكنها لم تستطع أن تنتزع من ذاكرتها مشاتل الشاي في ضواحي شيزيوكا التي رأتها من القطار ، ذلك القطار الذي كانت غالباً ما تستقله بين طوكيو وكيوتو . كانت تراها أحياناً عند الظهيرة ، وأحياناً أخرى في المساء . لم تكن آنذاك الا طالبة ، ولم تكن تفكر بأن تصبح رسّامة . ولكن رؤية مشاتل الشاي تلك كانت تحيي الألم لكونها فُصلت عن أوكي . وما كان لها أن تعرف لماذا كانت تلك التموّجات وحدها تبثّ فيها الاضطراب ، في حين كانت تمثل أمام ناظريها ، على ذلك الخطّ من «توكيدو»، جبالاً وبحيرات وبحراً، وأحياناً سحباً ذات ألوان رقيقة. أيكون ما أيقظ همّها خضرة المشاتل أو كآبة ظلال المساء تسقط على الجذور بين الأدغال ؟ كانت المنحدرات التي ينبت عليها الشاي قليلة الارتفاع ، وكانت تبدو صناعية ، مصطنعة ، مع الظلال الكثيفة على الجذور ، وأدغال الشاي المستديرة كانت تذكّر بقطيع أخضر من الخراف الوديعة . أم لعل الحزن الذي كانت تعانيه أوتوكو قبل أن تترك طوكيو كان أعنف حين بلغ القطار شيزيوكا ؟

حين رأت مشاتل الشاي في أوجي ، استولى عليها الحزن من جديد ، وعادت أوتوكو الى وادي « يويان » لترسم بعض التخطيطات . ولم يبد على كايكو نفسها انها لاحظت همّها . ولكن مشاتل اوجي لم تكن لها كآبة المشاتل التي كانت تراها من نافذة القطار ، بمحاذاة طريق « توكيدو » .

كانت خضرة الأوراق الغضّة مفرطة اللمعان .

وبالرغم من أن كايكو قد قرأت « فتاة في السادسة عشرة » ، وبالرغم من أن اوتوكو ، خلال أحاديثهما على الوسادة ، لم تخف عنها شيئاً من أمر أوكي ، فهي لم تميّز في تلك التخطيطات التي رُسمت في أوجي طابع حبّ أوتوكو القديم . كانت تقدّر الطريقة المجرّدة التي عبّرت فيها أوتوكو عن أدغال الشاي بواسطة خطوط مرنة وممتلئة ، ولكن كان يدهشها أن تبتعد هذه التخطيطات بالقدر نفسه عن الواقع . أما أوتوكو ، فكانت تضحك من تلك الرسوم الأولية .

سألتها كايكو : ـ أنت لن تستعملي إلاّ الأخضر ، أليس كذلك ؟

ـ بكل تأكيد . إنني أرسم مشاتل للشاي في زمن القطاف . . . انسجام وتنوّعات بالأخضر ! .

ـ إنني أتساءل اذا لم يكن عليّ أن أضع لوناً أحمر أو بنفسجياً . ولا يهمّ ألاّ يشبه ذلك بعدُ مشتلاً للشاي .

كان رسم كايكو الأولي مُسنداً الى جدار المرسم .

قالت أوتوكو وهي تضحك :

ـ هذا الشاي لذيذ . فهل تريدين ، يا كايكو ، إعداد المزيد منه . . . بالأسلوب « التجريدي » ؟

ـ بالأسلوب التجريدي ؟ سيكون من المرارة بحيث يستحيل عليك أن تشربيه !

ـ أهذا ما تسمّينه « تجريداً » ؟

وجاءتها ضحكة كايكو من الغرفة المجاورة .

ـ كايكو ، منذ بضعة أيام ، حين ذهبت الى طوكيو ، ألم تتوقّفي في كاماكورا ؟

كان صوت أوتوكو قد قسا قليلاً .

ـ بالفعل.

ـ لأيّ سبب ؟

ـ في محطة كيوتو ، كان السيد أوكي قد رغب إليّ في رؤية لوحاتي .

فلم تجب أوتوكو .

وأضافت كايكو بصوت بارد رصين :

ـ أتعلمين أني أودّ لو أثأر لك ؟

ـ تثأرين لي ؟

اضطربت أوتوكو لدى سماعها كلمات الفتاة غير المنتظرة .

ـ تثأرين لي ، أنا ؟

ـ تماماً .

ـ تعاليْ هنا ، يا كايكو . واجلسي . لنتحدّث في هذا كلّه ونحن نشرب هذا الشاي « التجريدي » .

صمتت كايكو وركعت . ولامست ركبتاها ركبتي أوتوكو . وصبّت لنفسها قدحاً من الشاي ، ثم قالت :

ـ يا إلهي ، ما أشدّ مرارته ! سأصنع بدلاً منه .

أمسكتها أوتوكو وهي تقول :

ـ لا فائدة من ذلك . لماذا بحق الشيطان تتحدثين عن الثأر ؟

ـ وهل تجهلين الى أي شيء أشير ؟
ـ لم أفكر قط بالانتقام . إنني لا أشعر بأيّ حقد .
ـ أنت ما تزالين تحبّينه . . . ومهما طال بك العمر ، فلن تكفّي عن حبّه (وكانت كايكو تتكلم بصوت مخنوق) من أجل هذا أريد أن أثأر لك .
ـ ولكن لماذا ؟
ـ أليس لي الحق بأن أغار ؟
ـ أهذا هو الأمر اذن ؟

وضعت أوتوكو يدها على كتف الفتاة المتقلّصة الراجفة .

ـ إنها الحقيقة . إنني لا أستطيع أن أشرح لك . ولكن هذا كريه !

قالت أوتوكو برقّة : ـ أية طفلة متهوّرة عنيفة ! وما تقصدين بالثأر ؟ ماذا تنوين ان تفعلي ؟

لم تكن كايكو ، وهي خافضة الرأس ، تتحرّك . وكان ضوء القمر يغمر جزءاً أكبر من الحديقة .

ـ لماذا ذهبت الى كاماكورا ، حتى من غير أن تحدّثيني في ذلك ؟

ـ أردت أن أرى عائلة الرجل الذي جعلك شقيّة الى هذا الحدّ .

ـ وهل رأيتها ؟

ـ لم أرَ إلاّ ابنه ، تاشيرو ، لا شك في أنه صورة أبيه حين كان هذا شاباً . أظنّ أنه يقوم بأبحاث عن أدب عهد

كاماكورا وميروماشي . ولقد كان معي لطيفاً جداً ، وأخذني لزيارة بعض الأديرة مثل « الانكاكوجي » و« الكانشوجي »، بل بلغ بي حتى « أنوشيا » .

ـ إن هذا لم يكن بالشيء الجديد لك ، أنت التي رُبيّت في طوكيو .

ـ صحيح ، ولكني كنت قد زرت تلك الأمكنة بأسرع مما يجب . لقد تغيّرت أنوشيا كثيراً . وقد أمتعني أن أسمع القصة التي تروي بصدد « الانكيري ـ جي »(*) .

ـ أيكون هذا هو انتقامك ؟ أن تفتني هذا الفتى ، أو تفتتني به (قالت أوتوكو ذلك ، وهي ترفع يدها عن كتف الفتاة) في هذه الحالة ، سيكون من حقي أنا أن اغار .

ـ أنت ، تغارين ؟ سأكون سعيدة جداً بذلك !

وأمرّت كايكو ذراعيها حول عنق أوتوكو وشدّت جسمها اليها . ثم أضافت :

ـ أنظري كم أستطيع ، مع أي شخص غيرك ، أن أكون شريرة ، شيطانية !

ـ ومع ذلك ، فقد حملت الى هناك اثنتين من لوحاتك ، هاتين اللتين كنت تفضّلينهما على الأخريات .

ـ حتى فتاة شريرة مثلي تريد أن تعطي انطباعاً جيداً في البدء . لقد كتب لي تاشيرو ليقول انهما معلّقتان في مكتبه .

قالت أوتوكو بهدوء : ـ صحيح ؟ أتكون هذه طريقتك

(*) انكيري ـ جي : ديرٌ تقوم فيه النساء الراغبات في الطلاق بتمارين دينية لمدة ثلاثة أعوام ، ثم يستطعن العودة الى بيوتهن .

في الانتقام لي ؟ بداية انتقامك ؟

ـ تماماً .

ـ لم يكن تاشيرو آنذاك إلاّ طفلاً ، لم يكن يعرف شيئاً مما بين أبيه وبيني . وإنما عانيت كثيراً عندما علمت نبأ مولد كوميكو الصغيرة ، بعد فترة من ترك أوكي . إنني أتذكّر ذلك الآن . لا بدّ أن كوميكو قد تزوّجت ، كما أظنّ .

ـ في هذه الحالة ، لماذا لا أحطّم حياتها الزوجية ؟

ـ ما الذي تقولينه ، يا كايكو ؟ أية غطرسة في أن تمزحي على هذا النحو من الاستخفاف ؟ إن هذا لن يجلب عليّ إلاّ المنغصّات ! ليست المسألة مسألة لعبة ولا مزاح !

ـ إن كل ما أطلبه منك هو ألاّ تتركيني . إنه الشيء الوحيد الذي أخشاه . كيف تراني أستطيع أن أرسم إذا كنت بعيدة عني ؟ إنني لن أستطيع أن أرسم ولا أن أحيا . . .

ـ كفّي عن النطق بالحماقات !

ـ إنني أتساءل مع ذلك عما اذا لم تكوني تستطيعين تحطيم حياته الزوجية ؟

ـ لكنني لم أكن آنذاك إلا طالبة . . . وكان له ولد . . . .

ـ لو كنت مكانك لفعلت !

ـ هل تعرفين كم تستطيع عائلةٌ أن تكون قويّة ؟

ـ أقوى من الفنّ ؟

حنت أوتوكو وجهها الذي كانت ترتسم عليه مسحة أسى خفيفة :

ـ الحقيقة . . . إنني في تلك الفترة لم أكن أهتمّ بالفن قطّ .

ـ أوتوكو !

انفتلت كايكو نحو صديقتها وتناولت معصمها برقة .

ـ لماذا أرسلتني لأصطحب السيد أوكي من فندق مياكو ، ولماذا طلبت مني أن أعود فأرافقه الى المحطة ؟

ـ لأنك شابة وجميلة ! ولأنني فخور بك !

ـ إنني أكره أن تخفي عني أعماق تفكيرك . لقد لاحظتك جيّداً . بعينيّ اللتين تغاران . . . .

ـ حقاً ؟ (كانت أوتوكو تنظر الى عيني الفتاة اللتين كانتا ترسلان الشرر في ضوء القمر) لم أكن أريد إخفاء شيء عنك . حين افترقنا ، أوكي وأنا ، كنت في حوالي السابعة عشرة . وأنا الآن امرأة ناضجة السنّ بدأت استدارة خصرها تفقد رشاقتها . والحقيقة أنني لم اكن حريصة جداً على رؤيته . كنت أخشى أن يصاب بالخيبة .

ـ يصاب بالخيبة ، هو ؟ يصاب بالخيبة ؟ أنت التي ينبغي أن تصابي بالخيبة ! أنت المرأة التي أحترمها اشدّ الاحترام ، وأنا التي خيّبني السيد أوكي ! قبل أن آتي فأعيش معك ، كنت أجد الشبّان منفّرين وكنت أعتقد أن السيد أوكي كان شخصاً معتبراً تماماً . أية خيبة أصابتني حين رأيته ! كنت قد تصوّرته أفضل كثيراً ، من خلال ذكرياتك !

ـ أنت لا تستطيعين أن تحكمي بعد لقاء قصير كهذا .

ـ أستطيع تماماً أن أحكم .

ـ كيف ذلك ؟
ـ سيكون يسيراً عليّ أن أغوي كلاً من السيد أوكي وابنه . . .
ـ إن ما تقولينه مرعب ! (كانت أوتوكو قد امتقعت وضاق صدرها) إن هذه الغطرسة لن تنفعك في شيء ، يا كايكو .
قالت كايكو من غير أن تشعر بأي اضطراب :
ـ لست على يقين تام من هذا .
ردّدت أوتوكو : ـ هذا لن يجديك شيئاً . أتحسبين نفسك امرأة مغوية ؟ يكفيك انك شابة وجميلة . . .
ـ لئن كنت ما تسمّينه امرأة مغوية ، فأنا اتصوّر أن معظم النساء هنّ كذلك .
ـ هكذا إذن ، بهذه الفكرة المسبّقة حملت اثنتين من لوحاتك المفضلة الى السيد أوكي ؟
ـ لا . لست بحاجة الى لوحاتي من أجل إغوائه .
كانت أوتوكو تبدو مصعوقة بثقة الفتاة بنفسها ، رغم أن هذه الثقة موضع نقاش .
ـ ذلك أني أردت بكل بساطة ، باعتباري تلميذتك ، أن أريه أفضل أعمالي .
ـ أشكرك . ولكنك قلت لي إنك لم تتبادلي معه الا بضع كلمات على المحطة . فلماذا ، إذن ، هاتان اللوحتان ؟
ـ لقد وعدته أن أريه إياهما . وكنت بحاجة الى ذريعة لأذهب فأرى عائلته . بالإضافة الى ذلك ، كان يثير فضولي

ان أعرف ردّ فعله والتعليقات التي تصدر عنه . . .

ـ وكان غائباً ؟

ـ نعم . وأتصوّر أنه لا بدّ أن يكون قد رأى اللوحتين لدى عودته . والأرجح أنه لم يفهم منهما شيئاً .

ـ تخطئين حين تقولين ذلك .

ـ حتى بالنسبة لرواياتـه ، فهـو لم يكتـب أفضـل من « فتاة في السادسة عشرة » !

ـ هذا خطأ . إنك تفضّـلين هذه الرواية لأنني بطلتها وأنه أمثلني فيها . ثم إن الشبّـان يحبّـون الكتب التي تحكي لهم عن الشباب . أفترض أن الروايات التي كتبها فيما بعد قد بدت له صعبة أو مضجرة ؟

ـ ومع ذلك ، لئن مات السيد أوكي اليوم ، فوحدهـا « فتاة في السادسة عشرة » ستكون خالدة ، أليس كذلك ؟

قالت أوتوكو بصوت غاضب ، وهي تخلّـص أصابعها من أصابع كايكو وتُـبعد ركبتيها عنها :

ـ أرجوك أن تكفّي عن النطق بأشياء مغيظة كهذه !

ـ أما زلـت متعلّـقـة به الى هذا الحـدّ ؟ (كان صوت الفتاة قد قسا بدوره) فحتى حين أحدثك عن الثأر . . .

ـ ليس هو بالتعلّـق . . .

ـ إنه إذن . . . الحب ؟

ـ ربما .

غادرت أوتوكو الشرفة المغمورة نصفياً بالقمر ودلفت الى داخل البيت . ولم تنهض كايكو ، بل أخذت وجهها بـين

يديها ، ثم قالت بصوت مرتجف :

ـ تعرفين أني مخلصة لك كلّياً ، وأنك سبب حياتي . ولكن واحداً كالسيد أوكي . . .

ـ سامحيني ، يا كايكو . لم أكن الا في السادسة عشرة حين حدث هذا كلّه .

ـ سأنتقم لك .

ـ حتى انتقامك لن يستطيع أن يتغلّب على حبّي .

كانت كايكو متقوقعة على نفسها تنتحب . وتمدّدت على الشرفة .

ـ ارسمي صورتي ، يا أوتوكو . . . قبل أن أصبح تلك المرأة المغوية التي كنت تتحدثين عنها . . . أرجوك . ارسميني عارية .

ـ اتفقنا . سأفعل ذلك بحبّ .

ـ سيجعلني ذلك سعيدة جداً ، يا أوتوكو .

كانت أوتوكو قد رسمت عدّة تخطيطات للطفل المولود قبل الأوان الذي كانت قد وضعته . وكانت قد احتفظت بها في السرّ ولم تُرها حتى لكايكو . ومرّت الأعوام ، ولكن أوتوكو كانت تفكّر بأن تستغلّها في عمل يكون عنوانه : « صعود طفل الى السماء » . وكانت قد بحثت طبعاً في مجموعات الرسم الغربي عن صور ملاك او مسيح طفل ، ولكن وجوههم المكلثمة والفيّاضة بالصحّة لم تكن تنسجم مع حزنها . وكانت قد رأت بضع صور مشهورة قديمة تمثّل

« كوبوديشي »(*) طفلاً هزّتها بجمالها وحساسيتها اليابانيين ، ولكن كوبوديشي لم يكن في هذه الصور طفلاً حقاً ولم يكن صاعداً الى السماء . ولم تكن أوتوكو حريصة على تصوير صعود الطفل الى السماء ، بل كانت تحاول ان توحي به . ولكن أتراها ستنجز يوماً هذه اللوحة ؟

الآن وقد طلبت منها كايكو أن ترسم صورتها ، فان أوتوكو تذكرت تلك الرسوم الأولية التي لم تكن قد نظرت اليها منذ سنوات . لماذا لا ترسم الفتاة الشابّة بالطريقة التي مثّل فيها الفنان القديس الانسان طفلاً ؟ ستكون صورة « للعذراء » كلاسيكية تماماً . ثم إنه كان ينبعث من تلك الرسوم ذات الالهام الديني التي هي رسوم قدّيسي البوذية الرهبان نوع من السحر الذي لا يمكن وصفه .

ـ سأرسم صورتك ، يا كايكو . وقد جاءتني الآن فكرة . سأرسم عملاً ذا إلهام بوذي . ولهذا ، يجب أن تعتني الآن بملبسك !

ـ عمل ذو إلهام بوذي ؟

دهشت كايكو ، ثم ما لبثت أنه صحّحت موقفها :

ـ هذه الفكرة لا تعني لي شيئاً .

ـ دعيني أعمل . إن بعض هذه الأعمال بالغ الروعة . سيكون باستطاعتي تسميتها « تجريد لامرأة رسّامة » . سيكون هذا مسلّياً ، أليس كذلك ؟

(*) كوبوديشي (٧٧٤ ـ ٨٣٥) : راهب بوذي يُعرف ايضاً باسم « كوباي » وقد ادخل الى اليابان البوذية الخفيّة .

ـ هل تسخرين مني ؟

ـ بل أتكلّم بجدّ . سأبدأ ما أن أنتهي من مشاتل الشاي .

وألقت أوتوكو نظرة في القاعة . كانت رسومها الأولية ورسوم كايكو مصفوفة ومسندة الى الجدار . وفي الأعلى كانت معلّقة صورة رسمتها أوتوكو كانت تمثّل أمها . وقد توقّف نظرها عندها .

كانت أمها تبدو شابّة ، وربما أكثر شباباً من أوتوكو . أتراها قد رسمت نفسها ، هي أوتوكو ، في هذه الصورة ، إذ هي في الثلاثين ؟ أم أن امها قد تبدّت تلقائياً شابة جميلة تحت ريشة ابنتها ؟

حين رأتها كايكو للمرة الأولى صاحت : « إنها صورتك الذاتية ، أليس كذلك ؟ ما أجملها ! » ولم تكن أوتوكو قد قالت لها إنها صورة أمها ، وتساءلت إذا كان الجميع سيظنّون هذا العمل صورة ذاتية .

كانت أوتوكو تشبه أمها . أتراها كانت تشبهها الى هذا الحدّ في الصورة لأنها كانت مفرطة الحبّ لها ، ولأنها بكتها طويلاً حين ماتت ؟ كانت أوتوكو قد بدأت الرسم مستوحية صور أمها ، ولكن لم تكن صورةٌ واحدة قد هزّتها . واذ ذاك اعتزمت ان تتجاهل تلك الصور ، فظهرت امها امامها . كانت تبدو حيّة ولم يكن فيها ما يجعلها شبحاً . ولقد رسمت أوتوكو ، بسرعة ، عدة تخطيطات لها ، وقلبها يفيض تأثّراً ، ولكن عينيها تغشّتا بالدمع عدة مرات ، فكان لا بدّ لها من أن

تتوقّف . وقد أدركت آنذاك أن ما كانت تفعله إنما كان صورة ذاتية اكثر منها صورة أمها .

وتلك الصورة هي التي كانت معلّقة بالجدار . وكانت أوتوكو قد أحرقت جميع الدراسات الأولية ، ولم تحتفظ إلاّ بهذه النسخة الأخيرة ، بالرغم من إمكان اعتبارها صورة ذاتية . وكلما كانت تنظر الى تلك اللوحة ، كان ينبعث من عينيها حزن غير مرئيّ . كانت أوتوكو والصورة تتنفّسان في تساوق . كم تراها احتاجت من الوقت لتمنح هذا العمل حياة ؟

ولم تكن أوتوكو قد رسمت صوراً أخرى غير تلك ، حتى الآن . كانت قد اكتفت برسم بعض الأطياف الانسانية عبر مناظر . ولكن الرغبة عاودتها فجأة هذا المساء ، تحت ضغط كايكو. ولم تكن قد تخّيلت أن «صعودطفل الى السماء» التي كانت تتمنى رسمها منذ وقت طويل ، يمكن أن تكون صورة . ولكنها لم تكن قد نسيت رغبتها القديمة ، ومن أجل هذا كانت قد تذكّرت « كوبوديشي » طفلاً وفكرت في رسم كايكو بملامح كلاسيكية « العذراء » . كانت قد رسمت صورة أمّها وكانت تتمنّى أن ترسم صورة الطفلة التي فقدتها . ألم يكن ينبغي لها أن ترسم كذلك صورة كايكو ؟ ألم يكنّ ثلاثة كائنات احبتهنّ حبّاً مماثلاً ، مهما بلغ من اختلاف احداهن عن الأخرى ؟

نادتها كايكو : ـ اوتوكو ! أنت تنظرين الى صورة أمك ، وتتساءلين كيف تراك سترسمينني ، أليس كذلك ؟ أنك لا تستطيعين ان تشعري بمثل هذا الحبّ لي .

وجلست الفتاة بالقرب من أوتوكو .

ـ أية طبيعة شكّاكة ! لست اليوم راضية بعد عن هذه الصورة، ولا بدّ أني حققّت بعض التقدّم منذ ذلك الوقت . ومع ذلك ، فأنا أحبّها بالرغم من أخطائها . لقد بذلت كثيراً من نفسي وأنا أرسمها .

ـ لا حاجة بك لأن تُعنّي نفسك حين ترسمين صورتي . ارسميني كما يحلو لك . . . .

قالت أوتوكو شاردة الذهن : ـ لا ، بالتأكيد .

كانت موجة من الذكريات قد غمرتها وهي تنظر الى صورة أمها . وإذ نادتها كايكو من جديد ، أخذت أوتوكو تفكر فجأة بصور كوبوديشي طفلاً . كثيرة كانت هي الصور التي رسمه فيها الفنان بملامح طفلة جميلة أو فتاة رائعة الجمال بالأسلوب المشرق المتميّز الخاص بالأعمال ذات الإلهام البوذي الذي لم يكن يخلو من سحر . وتلك الصور كانت ترمز على نحوٍ ما الى الغراميات المَثَليّة في أديرة القرون الوسطى حيث لم تكن النساء مقبولات ، والى شهوة الرهبان أمام أولئك الصبية الجميلين الذين كانوا يشبهون الفتيات الجميلات شبهاً لا يخطىء . من أجل هذا ، ربما كانت صورة كوبوديشي قد مثلت فجأة في ذهن أوتوكو عندما قبلت أن ترسم صورة كايكو ؟ لم يكن شعر كوبوديشي صبيّاً يختلف إطلاقاً عن تسريحة فتيات اليوم الصغيرات على طراز جان دارك . ولكن لم يبق من يرتدي اليوم الكيمونو ولا « الهاكاما »(*) اللذين

(*) نوع من البنطال ذو ساقين واسعتين ، يُشدّ عند الخصر بحبلين معقودين من أمام .

يُـقطعان من نسيج البـروكار الفـاره ، باستثنـاء ممثّـلي مسرح « النـو » ، ومثـل تلك الملابس كانـت تكون مهجـورة بالية الطراز بالنسبة لفتـاة عصرية ككايكو . وقـد تذكرت أوتـوكو الصـور التـي كان الرّسـام « كيشيدا رويسـاي » (١٨٩١ - ١٩٢٩) قد صنعها لابنته « رايكو » . وقـد كانـت لوحـات زيتية أو مائية شديدة الارهاف في التنفيذ ، شبيهة بأعمال دينية يظهر فيها تأثير « دورر » . وكانت إحدى تلك الصور أروع من الأخريات : إذ كانت تخطيطاً على ورقة من أوراق الصين بألوان فاتحة كانت تمثّـل رايكو جالسة باستقامة عارية الصـدر ومغطّـاة الخصرين بوزرة حمـراء . لم تكن هي طبعـاً أفضـل أعمال « رويساي » ، وكانت أوتوكو تتساءل لماذا رسم الفنان صورة لابنته بالأسلوب الياباني النموذجي ، في حين أنه رسم أعمالاً مماثلة باللجوء الى التقنيات الغربية .

لماذا لا ترسم أوتوكو كايكو عارية ، كما كانت هذه قد طلبت منها ؟ كانت ثمة حتى بعض اللوحـات البـوذية التـي تصوِّر استدارات صدرٍ نسويّ . ومع ذلك ، فاذا استوحت ، في رسمها لكايكو ، صورة كوبوديشي صبياً ، فكيف تصـوِّر تسريحة الفتاة الشابة ؟ كانت اوتوكو قد رأت اللوحة الشهـيرة التي رسمها « كوباياشي كوكاي » (١٨٨٨ ـ ١٩٥٧) بعنوان « الشعر » : كانت عمـلاً باهـر الصفـاء ، ولكنهـا لم تكن تتصوِّر كايكو مسرّحة الشعر على هذا النحـو . وبعـد تفـكير ناضج ، قالت أوتوكو لنفسهـا إن رسـم الفتـاة كانـت مهمـة تتجاوز قدراتها .

ـ كايكو ، ما تقولين في أن ننهض للنوم ؟

ـ الآن ؟والقمر ، هذه الليلة ، على هذا القدر من الجمال ؟

والتفتت كايكو الى الساعة :

ـ إن الساعة لم تبلغ العاشرة بعد .

ـ أنا متعبة بعض الشيء . ونستطيع أن نتحدث في السرير .

ـ حسناً .

وفيما كانت أوتوكو تزيل عن وجهها المساحيق أمام المرآة ، أعددت كايكو السريرين بخفّة . وحين انتهت اوتوكو ، أخذت مكانها أمام المرآة وأزالت بدورها المساحيق عن وجهها . وقد أمالت عنقها الطويلة الدقيقة ، وتأمّلت وجهها في المرآة :

ـ أوتوكو ، إن ملامحي لا تتلاءم مع رسم بوذيّ .

ـ لا أهمية لهذا إذا كان للفنان الذي يرسم صورتك روح دينية .

نزعت كايكو جميع الدبابيس من شعرها ونفضت رأسها .

ـ تحلّين شعرك ؟

ـ نعم .

ومشّطت شعرها . وكانت أوتوكو تنظر اليها من سريرها .

ـ لماذا تحلّينه ، هذا المساء ؟

ـ لقد بدأ يتّسخ . كان ينبغي أن أغسله .
وتناولت كايكو خصلة من شعرها فشمّتها .
ـ أوتوكو ، كم كان عمرك حين مات أبوك ؟
ـ أثنتا عشرة سنة . أنت تعرفين ذلك جيداً، فلماذا تطرحين عليّ دائماً السؤال نفسه ؟
فلم تجب كايكو ، وسحبت الحاجز الذي كان يفصل الغرفة عن المرسم ، ثم تمدّدت الى جانب اوتوكو . كان السريران متلاصقين . وكانتا ، طوال بضع ليالٍ ، قد نامتا من غير أن تغلقا المصاريع الخشبية ذات المزالق .

كانت أم أوتوكو قد ماتت بسرطان في الرئة من غير أن تكشف لابنتها أنها كانت لها أخت من جهة الأب . وحتى اليوم ، كانت أوتوكو تجهل ذلك .
كان أبوها يتاجر بالحرير . وقد حضر دفنه بضعة أشخاص ، انحنوا أمام نعشه ، وكانوا قد أحرقوا البخور على مألوف العادة ، ولكن أم أوتوكو كانت قد ميّزت بينهم امرأة شابة خلاسيّة . وحين قدّمت هذه بخوراً وانحنت أمام عائلة المتوفي ، لاحظت أن عينيها مليئتان بالدموع وانها حاولت ان تنعشها بالماء أو بالثلج . وأصيبت أم أوتوكو بصدمة . وقد أومأت برأسها الى أمين سرّ زوجها الذي كان متنحياً جانباً وتمتمت في أذنه :
ـ هل ترى تلك الخلاسية هناك ؟ أودّ ان تستعلم عن اسمها وعنوانها .
وفيما بعد ، عرف أمين السرّ أن المرأة المعنيّة كانت لها

جدّة كنديّـة تزوّجت يابانياً ، وانها هي نفسها كانت يابانية ، وقامت بدراستها في اميركا وكانت تعمـل كمترجمـة . وكانـت تسكن بيتاً صغيراً في « إزابو » .

ـ أفترضُ أن ليس لها أولاد ؟

ـ يبدو أن لها بنتاً صغيرة .

ـ لا . بل هذا ما يقوله سكان الحيّ .

كانت أم أوتوكو مقتنعة بأن زوجها كان والد الطفلـة . وكانت تعرف عدة وسائل لتتحقّـق من الأمر ، ولكنها انتظرت ان تظهر المرأة الشابة . غير أن هذه لم تظهر . وبعد ستة أشهر تقريباً ، أعلمها أمين سرّ زوجها أن المرأة الشابة قد تزوجت آخذة البنت الى بيتها الجديد . وأعطتها تلميحات الرجـل أن هذه المرأة كانت عشيقة زوجها . ومع الزمن ، خفّـت غيرتها وحنقها . وأخذت تفكّـر في تبنّـي البنت . كان لا بدّ للبنت الصغيرة ، الآن وقد تزوجت أمها ، أن تعيش وهي تجهل أباها الحقيقي . ولقد أحسّـت أم اوتوكو بأنها كانت قد فقدت شيئاً ثميناً ، وليس فقط لأن أوتوكو كانت ابنتها الوحيدة . ولـكن كان مستحيلاً عليها بالتأكيد ان تكشف لهذه الأخـيرة ، التـي كان عمرها آنذاك اثنتي عشرة سنة ، أن أباها كانت له عشيقة وابنة غير شرعية . وحين ماتت أمّـها ، كانت أوتوكو قد بلغت سنّ معرفة الحقيقة، ولكن أمها لم تهمس لها بكلمة واحدةعن الأمر ، حتى حين كانت هي تعاني الآلام والهذيان . وهكذا كانت أوتوكو تجهل وجود هذه الأخت غير الشقيقة . والأرجح الآن ان تكون هذه قد تزوّجـت ورزقـت اولاداً . ولكنهـا

كانت ، بالنسبة لأوتوكو ، كأنها لم تكن موجودة . . .

- أوتوكو ، أوتوكو !

كانت كايكو تهزّها لتوقظها :

- هل تعانين من كابوس ؟ كان يبدو عليك أنك تتألمين . .

تنفّست أوتوكو بنخير ، بينما كانت كايكو تدلك لها صدرها برقّة ، كانت الفتاة مائلة عليها ، مستندة الى مرفقها .

سألتها أوتوكو : - حين كان هذا الكابوس يمرّ بي ، هل كنت تنظرين اليّ وأنا نائمة ؟

- نعم ، منذ فترة قصيرة . . . .

- أنت حقاً غريبة ! لقد حلمْت حلماً .

- أي نوع من الأحلام ؟

- حلمت بشخص أخضر .

واضطرب صوت أوتوكو من جديد . فسألتها كايكو :

- شخص يلبس الأخضر ؟

- لا . ليست ملابسه هي الخضراء ، بل جسمه ، بما في ذلك ذراعاه وساقاه .

- إنه إذن « فودو »(*) ؟

- لا تسخري مني ، فهو لم يكن له وجه فودو المرعب ،

(*) فودو : إله بوذي يحكم بالارهاب والتعذيب ، ويملك القدرة على إفساد مكائد الشياطين ، وهو يبدو وسط اللهيب يحمل بيمناه سيفاً ذا أسلة مثلثة لضرب الشياطين ، وبيسراه حبلاً لتقييدهم .

بل كان شخصاً أخضر يطفو بخفّـة حول سريري .

ـ أهو امرأة ؟

فلم تجب اوتوكو .

ـ إنه حلم جيّـد ، يا أوتوكو . أنا واثقة من ذلك .

ووضعت كايكو راحة يدها على عيني أوتوكو المفتوحتين فأغمضتهما . ثم أخذت بيدها الأخرى ، أصبع اوتـوكو ، فوضعته في فمها وعضّـته . قالت أوتوكو وهي تفتح عينيها على سعتهما :

ـ إنك توجعينني !

ـ لقد قلت يا أوتوكو إنك سترسمين صورتـي ، أليس كذلك ؟ إذن ، فقد أصبحت خضراء ، مثل مشاتل الشاي في أوجي ، هذا كل ما في الأمر .

ـ أتـظنّـين ؟ لقـد كنـت اذن ترقصـين حولي في اثنـاء نومي ؟ ولكن هذا مرعب !

زلقت كايكو يدها عن وجه أوتوكو ودسّـتها في صدرها وهـي تطلـق ضحـكة مخنوقـة وهستـيرية بعض الشيء : « ولكن ، هذا ميلك الى الرسم الذي . . . » .

في اليوم التالي ، شرعتا في صعود جبـل كوراما الـذي بلغتاه في المساء . وكان الحـجّاج قد تجمّـعوا في حرم الدير . وبعد ذلك النهار الطويل من أيار ، كان المساء يهبط على القمم المجـاورة وعلى رؤوس الأشجـار العـالية . وفـوق « تـلال الشرق » ، قبالة كيوتو ، كان القمـر يرتفـع بدراً . وكانـت نيران الابتهاج مشتعلة في كل جانب أمام المبنى الرئيسي للدير .

ووصل رهبان بوذيون فشرعوا مع الراهب المحتفل بالقدّاس ، المرتـدي ثوبـاً قرمـزياً ، في تلاوة « السوتـرا » بمرافقـة الهارمونيوم : « أعطنا قوة مجيدة ، قوة جديدة . . . » .

كان كل حاجّ يحمـل في يده شمعـة مضـاءة على سبيل القربان ، وأمـام المبنـى الـرئيسي ، كان ثمـة كأس ضخمـة مفضضّـة للساكي كانت قد ملئت ماء ، وكان البدر ينعكس فيها . وكان بعض هذا الماء قد سُكب في الأيدي المتجمّعـة للحجـاج الـذين كانـوا يتقدّمـون ، واحـداً بعـد الآخـر ، ويشربون الماء . وفعلت اوتوكو وكايكو مثلهم .

قالت كايكو التي كان جوّ الاحتفال قد أثار حماستها :

ـ أوتوكو،حين نرجع الى البيت ، فأنـا متـأكدة انـك ستجدين آثار « فودو » الخضراء في غرفتك !

سماء ممطرة

كان أوكي ، إذا أحسّ التعب من الكتابة أو أصبحت افكاره مضطربة ، يتمدّد على الكرسي الطويل في الممر . وكان يتفق له غالباً بعد الظهر أن ينام هناك زهاء ساعة أو ساعة ونصف . وكانت عادة هذه القيلولة الصغيرة تعود الى السنتين الأخيرتين . كان أوكي ، في الماضي ، يخرج للتنزُّه ، ولكن منذ أقام في كاماكورا ، أصبح مشهد الأديرة بل حتى التلال المجاورة، مألوفاً لديه أكثر مما ينبغي . ثم إنه ،إذ كان ينهض دائماً باكراً ، كان يقوم بنزهة قصيرة في الصباح . لم يكن في طبعه ، حين يستيقظ ، أن يتكاسل في سريره ، وكان يفضّل أن يهرب من ترتيبات الخادمة واستعداداتها القلقة ، ومن جديد ، كان يقوم قبل العشاء بنزهة أطول قليلاً . وقد كان الممرّ ، أمام مكتبه ، واسعاً ، وفيه طاولة موضوعة في زاوية . وكان أوكي يكتب وهو جالس الى طاولة منخفضة على بوريّات مكتبه ، أو وهو جالس على كرسي أمام هذه الطاولة. وكذلك كان الكرسي الطويل في الممر مريحاً ، حتى ان المصاعب كانت تفارقه بمجرد أن يتمدّد عليه . كان ذلك غريباً حقاً . كان من عادته ، حين يكتب رواية ، أن ينام ، حتى في الليل ، نوماً خفيفاً ويحلم أحلاماً متّصلة بما كان يكتب ، ولكنه اذا تمدّد

على ذلك الكرسي الطويل ، أخذه النوم على الفور وكفّ عن التفكير بأيّ شيء . ولم يكن أوكي ، في شبابه ، يقيل على الإطلاق بسبب الزيارات العديدة التي كان يتلقّاها بعد الظهر . أما الآن ، وهو يكتب في النهار ، فقد كان يقيل ، ولكن ليس في ساعات منتظمة . كان يتمدّد على ذلك الكرسي ، بمجرد أن تستعصي عليه الأفكار والكلمات . وقد يحدث ذلك صباحاً ، أو مساء . ومنذ أن كفّ عن الكتابة في الليل ، لم يعد يُحسّ ، إلاّ في ظروف نادرة ، بأن التعب ينشط ذهنه .

(كان أوكي يفكر بأن تلك الغفوات الصغيرة كانت علامة السنّ . ولكن هذا الكرسي الطويل ، لا بدّ مع ذلك أنه سحريّ !)

كلما كان أوكي يتمدّد عليه ، ينام ويستيقظ مرتاحاً نشيطاً . ولم يكن نادراً آنذاك ان يجد حلاً جديداً لمصاعب كان يلقاها في مهمّته ككاتب . كان الكرسي الطويل سحريّاً .

وكان فصل الأمطار قد حلّ ، الفصل الذي كان أوكي يكرهه أشدّ الكراهية . وبالرغم من أن المدينة بعيدة عن البحر ومعزولة بالتلال ، فقد كانت شديدة الرطوبة . وكانت السماء منخفضة . وكان أوكي يشعر بثقل خفيّ في الصدغ الأيمن ، كما لو أن عفونة ما قد تشكّلت على ثنايا دماغه . وكان يتفق له أحياناً أن ينام صباحاً وبعد الظهر على الكرسي السحريّ .

وذات يوم أبلغته الخادمة :

ـ إن هناك آنسة تدعى ساكامي من كيوتو في انتظارك .

كان أوكي قد استيقظ لتوّه . ولكنه كان ما يزال متمدّداً على الكرسي الطويل . فلم يجب ، فاستطردت الخادمة :

ـ هل ينبغي أن أقول لها إنك تأخذ قسطاً من الراحة ؟

ـ لا . هل هي فتاة شابّة ؟

ـ نعم ، يا سيدي . لقد سبق لها أن جاءت مرّة . . . .

ـ حسناً ، أدخليها الى قاعة الاستقبال .

وترك أوكي رأسه يسقط مرة أخرى على المسند وأغلق عينيه. كانت القيلولة قد طردت الخَدَر الذي كان يستولي عليه دائماً في ذلك الفصل ، وقد أحسّ بانتعاش حين علم بمجيء كايكو . فنهض وغسل وجهه وأمرّ منشفة رطبة على جسمه واتجه الى قاعة الاستقبال . وحين رأته كايكو ينبثق هكذا أمامها، نهضت من كرسيّها وقد عرا وجهها بعض الأحمرار .

ـ كيف حالك ؟

ـ أرجوك ان تعذرني على فجاءة هذه الزيارة . . .

ـ بالعكس . حين جئت في المرة الماضية ، كنت قد خرجت أتنزّه على التلال ، غير بعيد من هنا . كان عليك أن تنتظري قليلاً قبل أن تذهبي .

ـ ذلك اليوم ، رافقني تاشيرو حتى المحطة .

ـ هذا ما قاله لي في الواقع . وأراك المدينة قليلاً ؟

ـ نعم .

ـ لا بدّ أن هذا لم يكن خارقاً للعادة ، بالنسبة اليك انت التي تسكنين طوكيو . ثم إنه ليس من شيء كثير يُرى في

كاماكورا ، الى جانب كيوتو أو نارا .

كان نظر كايكو محدّداً فيه :

ـ كان ثمة مغيب رائع للشمس على المحيط .

أدهش أوكي أن يعلم أن ابنه كان قد صحب الفتاة حتى الشاطيء .

ـ المرة الأخيرة التي التقينا فيها ، كانت يوم اول العام ، حين رافقتني الى المحطة . لقد مرت ستة أشهر على ذلك .

ـ نعم . أنت تجد ، يا سيد أوكي ، أن هذا يعود الى زمن بعيد ؟ هل بدت لك هذه الأشهر الستة طويلة الى هذا الحدّ ؟

لم يفهم أوكي ما كانت غاية الفتاة من هذا السؤال . قال :

ـ يمكن أن تبدو طويلة للبعض ، كما يمكن أن تبدو قصيرة لآخرين .

لم تبتسم كايكو ، كما لو أن أوكي كان قد نطق بشيء تافه .

ـ افترضي أنك عاشقة ، وانك لم تستطيعي رؤية من تحبيّن مدة ستة شهور،الا يبدو لك ذلك طويلاً ؟

لم تَرَ كايكو مفيداً أن تجيب على سؤال في مثل هذه الحماقة . ووحدهما عيناها بانعكاساتهما المخضرّة كانتا تبدوان وكأنهما تتحديان أوكي . وبدا هذا مغتاظاً بعض الشيء .

ـ حين تحمل امرأة ولداً في أحشائها ، فهي تحسّه يتحرّك بعد ستة أشهر .

لم يُـربك كايكو على الاطلاق هذا التشبيه الذي اختاره اوكي عن قصد .

ـ إن الفصول تمضي ، والصيف يتبع الشتاء ، بالرغم من أننا الآن في هذا الفصل الممطر الفظيع . . .

وظلّـت كايكو على صمتها .

ـ منـذ وقـت طويل والفلاسفـة يتساءلـون عن مفهـوم الزمن ، ولكن لا يبدو أنهم وجدوا جواباً مرضياً . إن الايمان الشعبي الذي يقضي بأن الزمن كفيل بحلّ جميع الأمور يرسو صلباً في كثير من الأذهان ، أما أنا ، فأشكّ في ذلك . فهـل الموت في رأيك ، يا كايكو ، هو نهاية كل شيء ؟

ـ لست متشائمة الى هذا الحدّ .

ـ أنا لا أعتبر ذلك تشاؤماً (قالها أوكي وهو يبحث عن مناقضة) صحيح أن ستة أشهر بالنسبة لفتاة مثلك ولرجل في سنّـي لا تمثّـل الشيء نفسه . وهذا الردح من الزمن ، بالنسبة لمن هو مصاب بمرض غير قابل للشفاء ، وليس له الا بضعـة أشهر يحياها ، يأخذ ايضاً معنى مختلفاً . ولـكنْ فكّـري بأن ثمة كذلك أناساً يجدون الموت في حادث سيارة غير متوقّـع أو في الحرب . . . وآخرون يُـغتالون . . .

ـ ولكن أنت ، يا سيد أوكي ، ألست فنّـاناً ؟

ـ أخشى ألاّ أترك ورائي إلاّ أشياء قد أخجل منها . . .

ـ ليس ثمة كتاب من كتبك يجعلك تخجل .

ـ أودّ أن تكونـي على حق . ولـكن ، ربمـا نُـسيت أعمالي ؟ إن هذا ، لو حدث ، لن يسوءني .

ـ كيف تستطيع أن تقول شيئا كهذا ؟ أتراك تجهل أن « فتاة في السادسة عشرة » كتاب سيبقى ؟

ـ هذا الكتاب دائماً !

وأظلم وجه أوكي .

ـ حتى أنت ، تلميذتها ، تقولين هذا !

ـ ذلك لأنني أعيش معها . أرجوك ان تعذرني .

ـ ليس هذا بذي بال . . . ثم إن المسألة لا أهميّة لها . . .

ـ يا سيد أوكي (كان نظر كايكو قد انتعش فجأة) هل أحببت امرأة أخرى بعد أوتوكو ؟

ـ نعم . وقع لي ذلك . ولكنه لم يكن فاجعاً مثل ذاك .

ـ لماذا لم تكتب شيئاً في هذا الموضوع ؟

ـ ذلك أنه (وتردّد أوكي قليلاً) إن المرأة الشابة المعنيّة كانت قد طلبت مني ألاّ أكتب شيئاً عنها .

ـ حقاً ؟

ـ ربما كان ذلك ، بالنسبة لكاتب مثلي ، علامة ضعف ؟ يبقى انني ما كنت أستطيع قط أن أضع ، في هذه الرواية الثانية ، الشغف الذي وضعته في « فتاة في السادسة عشرة » .

ـ أما أنا ، فلن يزعجني أن تتكلّم عنّي في كتاب .

ـ هكذا إذن !

دُهش أوكي . كانت هي المرة الثالثة فقط التي يلتقي فيها

كايكو ـ إذا كان بالامكان تسمية ذلك لقاء ـ فكيف تراه يستطيع أن يكتب عنها أيّ شيء ؟ كل ما كان بوسعه أن يفعله هو أن يستلهم ملامح الفتاة العذبة لواحدة من بطلات رواياته المختلقات . كانت كايكو قد قالت بأنها ذهبت الى الشاطيء مع تاشيرو . فماذا حدث آنذاك ؟

قال أوكي ضاحكاً ، ليحرف الموضوع :

ـ حسناً ، لقد وجدت نموذجاً لطيفاً !

ولكن ، بينما هو ينظر الى كايكو ، تسمّرت ضحكته تحت نظرة الفتاة ، نظرتها المعتكرة الفاتنة . كانت عيناها نديّتين الى حدّ انهما بدتا مغشّاتين بالدموع . ولم يجد أوكي ما يقوله بعد .

واستطردت كايكو : ـ لقد وعدتْ الآنسة أوينو ان ترسم صورتي .

ـ حقاً ؟

ـ وقد حملتُ لوحة أخرى من أجلك .

ـ إنني لا أفهم كثيراً في الفن التجريدي . لننتقل على كل حال الى القاعة المجاورة ، فسيكون المكان أفسح . إن اللوحتين اللتين جئت بهما آخر مرة معلّقتان في مكتب آبني .

ـ أليس هو في البيت اليوم ؟

ـ لا . إنه يعطي محاضرة في الجامعة ، وزوجتي ذهبت تحضر مشهداً من « نانجيو جورروري »(*) .

(*) هو « مسرح العرائس » ، وهو بعد مسرح « النو » ، النوع الكلاسيكي الثاني من المسرح الياباني .

تمتمت كايكو بصوت لا يكاد يسمع :

ـ أفضّل كثيراً أن تكون وحدك .

ثم ذهبت تجلب اللوحة التي كانت قد تركتها في المدخل ، وكانت ذات إطار بسيط من الخشب الأبيض . كان اللون الغالب فيها الأخضر ، ولكن كايكو كانت قد استعملت بجرأة ، وعلى هواها ، ألواناً أخرى ، وكانت مساحة اللوحة كلها تبدو متموّجة .

ـ هذا الرسم بالنسبة لي ، يا سيد أوكي ، هو واقعي ، إنها مشاتل الشاي في أوجي .

ـ عجباً ! مشاتل شاي . . .

كان أوكي يتأمل اللوحة .

ـ يظن من يراها أنها ترتجّ من مشيئة الأمواج ، وأنها تفيض شباباً . لقد حسبت أولاً أنها صورة قلب يلتهب ، مرسومة بشكل تجريدي .

ـ يسعدني جداً ، يا سيد أوكي ، أن تفسّر هذا الرسم على هذا النحو . . .

وركعت كايكو وراء أوكي ، حتى أن ذقنها كاد يلامس كتف الرجل . وكان أوكي يُحسّ بنَفَسها العذب الحارّ على شعره .

وردّدت كايكو :

ـ كم يسعدني ، يا سيد أوكي ، أن تكون قد تعرّفت قلبي في هذا الرسم . . . ومع ذلك ، فأنا لم أمثّل هنا إلاّ مشاتل شاي رعناء . . .

ـ إن المرء يُحسّ فيها حقاً شباباً دافقاً !

ـ ذلك اني ذهبت الى مشاتل الشاي لأرسم عنها تخطيطات على الطبيعة ، ولكني انما رأيت أشجار الشاي او الجدور في الدقائق الثلاثين الأولى او في الساعة الأولى فقط . . .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ كان كل شيء هادئاً جداً ، ثم أخذت موجات منحنية ومتقلّبة وذات خضرة غضّة تتحرّك وتتموّج ، وكانت هذه النتيجة . ليست هي لوحة تجريدية .

ـ كنت أظنّ أن خضرة أشجار الشاي كانت أشدّ تكتُّماً ، حتى في عهد البراعم الفتيّة .

ـ انني ، يا سيد أوكي ، أجهل كل شيء عن التكتُّم ، في رسمي كما في عواطفي . . .

ـ حتى في عواطفك ؟

واذ كان ينفتل ، كانت كتفه تلامس صدر الفتاة الرّيان ، وتوقّف نظره عند إحدى أذنيها .

ـ إذا استمررت هكذا ، فسينتهي بك الأمر الى أن تجدي نفسك وقد قُطعت احدى اذنيك الجميلتين هاتين !

ـ أنا لا أملك شيئاً من عبقرية فان غوخ ، لا بدّ من ان ينتزعها أحدٌ بأسنانه . .

التفت اوكي بغتة ، وقد أدهشه كلام الفتاة . كانت كايكو ملتصقة به ، ففقدت توازنها وتشبّثت به .

ـ إنني أكره العواطف المتكتّمة !

قالتها من غير أن تبدّل وضعها ، وكان يَكفي ضغط بسيط من ذراع أوكي حتى تسقط كايكو على ركبتيها ، منقلبة الرأس ، كما في انتظار قبلة .

على أن اوكي لم يقم بحركة ، ولم تتحرّك كايكو أكثر . ولكنها تمتمت وعيناها تحدّقان به :

ـ سيدّ أوكي . . .

قال اوكي ملاحظاً :

ـ إن لأذنيك شكلاً فاتناً ، وينبعث من جانبيّة وجهك جمالٌ جنّيّ .

ـ ما تقوله هنا يبعث فيّ السرور .

وكانت عنق الفتاة الرقيقة قد احمرّت قليلاً . واستطردت تقول :

ـ لن أنسى ما قلته لي ، ما حييت . ولكن من يدري كم يدوم هذا الجمال ؟ إن هذه الفكرة ، بالنسبة لامرأة ، هي فكرة حزينة .

فلم يجب أوكي .

ـ ليس هناك ما يربك المرأة اكثر من أن يتفرّس فيها رجل ، ولكن أية امرأة يسعدها ان يفعل ذلك رجل مثلك !

ظلّ أوكي مذهولاً بكلام كايكو الجريء . ولم يكن ليزداد ذهولاً لو أنها قالت كلمات حب . وقال ملمّحاً ، بصوت جادّ :

ـ أنا كذلك مفتون بهذا ، وما تزال هناك أشياء كثيرة جميلة تُرى فيك . . . .

ـ هل تظنّ ؟ لا أدري ، فأنا لست إلاّ رسامة ، لا نموذجاً . . . .

ـ إن الرسّام يستطيع أن يحصل على نموذج يتوضّع له . أما الكاتب ، فلا . وهذا شيء أحزن عليه .

ـ إذا كنت أستطيع أن أنفعك . . . .

ـ هذا لطفٌ منك .

ـ لقد قلت لك الساعة إن ما قد تكتبه عني لن يهمّني أبداً . ولكن يؤسفني فقط ألاّ أكون في جمال فتاةٍ مولودة من أحلامك أو من مخيّلتك .

ـ هل عليّ أن أكون تجريدياً أو واقعياً ؟

ـ كما يحلو لك ، يا سيد أوكي .

ـ ومع ذلك ، فان نموذج الرسّام ونموذج الكاتب مختلفان كلّياً .

ـ أنا لا أجهل هذا .

وخفقت كايكو أجفانها الكثيفة .

ـ غير أن هذه اللوحة التي رسمتُها ، مهما بدت طفولية ، لا تمثّل مشتل شاي ، منقولاً على الطبيعة . فالواقع أني انتهيت برسم نفسي . . .

ـ الأمر هكذا بالنسبة لجميع اللوحات ، أليس كذلك ؟ سواء كان الرسم تجريدياً أم تصويرياً . إن النموذج ، بالنسبة للرسّام ، ليس إلاّ جسماً . أما بالنسبة للكاتب ، فينبغي أن يكون قبل كل شيء كائناً بشرياً . إن الكاتب ليس له ما يفعله بنموذج يستدعي منظراً أو زهوراً .

ـ أنا كائن بشري ، يا سيد أوكي .

ـ كائن بشريّ رائع الجمال .

قالها أوكي وهو يبسط لها ذراعه ليعينها على النهوض .

ـ إن نموذجاً يتوضّع عارياً بالنسبة لرسّام ليس له عملياً إلاّ أن يحافظ على الوِضْعة ، وهو ما لن يكون كافياً بالنسبة لكاتب ....

ـ أعرف ذلك .

ـ حقاً ؟

ـ نعم .

كان أوكي منذهلاً بجرأة الفتاة .

ـ ربما استوحيتُ ملامحك لإحدى بطلات روايتي ...

قالت كايكو بدلال :

ـ لن يكون ذلك ذا أهمية كبيرة !

وكان أوكي يحاول أن يتملّص :

ـ ما أغرب النساء ! لقد قال لي بعضهن إنهنّ خدمن كنماذج في هذا الكتاب او ذاك من كتبي ، في حين أنهنّ مجهولات تماماً لديّ ، وأن ليس لي بهنّ أدنى علاقة .. فأيّ نوع من الاستيهام هو هذا ؟

ـ كثير من النساء الشقيّات يجدن تعزيةً في الأوهام التي يتعلّلن بها .

ـ أليس في فكرهنّ بعض الفساد ؟

ـ من السهل إفساد فكر المرأة . هل حاولت ذلك يوماً ، يا سيد أوكي ؟

لـم يعـرف أوكي كيف يجيب على هذا السـؤال غـير المنتظر .

- أم انك ربما انتظرت ببرودة ان يحدث ذلك تلقائياً ؟

وتجنّـب أوكي ، وقد ارتبك مرة أخرى ، الإجابة على السؤال .

- مهما يكن من أمـر ، فشيء مختلف أن تكون المرأة نموذج كاتب . إن هذا بالاجمال تضحية مجانية .

- إنني أعشق أن أضحّي بنفسي ! إن تضحيتـي بنفسي من أجل أحد ما هي ، على نحوٍ ما ، سبب حياتي .

وظلّـت أقوال كايكو تذهل أوكي .

- إنها ، في حالتك ، تضحية ارادية . ولكنك بالمقابل تطلبين من الغير تضحية أن . . .

- لا ، يا سيد أوكي . هذا خطأ . إن في أصـل كل تضحية حباً أو أمنية نحو شيء ما .

- وانت يا كايكو ، أمن أجل اوتوكو تضحّـين بنفسـك الآن ؟

فلم تجب كايكو .

- لقد رأيت الصواب ، أليس كذلك ؟

- ربما كان الأمر كذلك ، ولكن أوتوكو امرأة ، وهناك شيء غير ملوّث حين تنذر امرأة هكذا حياتها لامرأة اخرى .

- هذا ما لا أستطيع أن أقوله .

- إن مما يُـخشى أن تدمِّـر الواحدة الأخرى . . .

- أن تدمّـر الواحدة الأخرى . . . ؟

ـ نعم . إنني أكره ، لو تعلم ، أن يكون عندي أيّ شك ، حتى ولو كان ذلك لا يدوم الا خمسة ايام اوستة . أودّ لو أستطيع أن أنسي نفسي كلياً من أجل شخص .

ـ هذا يبدو لي صعباً ، حتى في الزواج !

ـ لقد سبق أن تلقيت طلبات زواج ، ولكن ما أقصده ليس التفاني في الزواج ، أنا لا أحب ، يا سيد أوكي ، أن يكون لي أن أفكّر في نفسي . لقد سبق أن قلت لك إني أكره كرهاً حقيقياً المشاعر المكبوتة .

ـ يبدو أنك تعتقدين أنه لا يبقى لك حلّ آخر غير ان تنتحري بعد أيامٍ من لقائك رجل حياتك !

ـ إن الانتحار لا يخيفني . فالخيبات او اليأس من الحياة هي أفظع بما لا يقاس. خذ مثلاً . سوف يسعدني ان تخنقني ، ولكن قبل ذلك ، يجب عليك ان تتّخذني نموذجاً . . .

لم يكن أوكي يريد الاعتقاد بأن كايكو قد جاءت لتغويه . إنها لا تستطيع أن تكون هذا النوع من النساء . على أنها كانت تستطيع أن تتكشّف نموذجاً هامّاً لواحدة من رواياته . ولكنه إذا تعلّق بكايكو ثم تركها بعد ذلك ، فمن المرجّح انها لن تلبث ان تجد نفسها ، على غرار اوتوكو ، في عيادة للأمراض النفسية .

ذلك العام ، في الأيام الأولى من الربيع ، حين كان أوكي خارجاً يتأمّل الشفق على التلال ، شمال كاماكورا ، دخلت كايكو منزله مع لوحتين من رسمها . فاستقبلها تاشيرو . ووفقاً لأقوال كايكو نفسها ، بدلاً من أن يصطحبها

هذا الأخير الى المحطة ، أخذها الى الشاطيء ، على حافة المحيط . لم يكن ثمة أدنى شك بأن تاشيرو قد افتتن بسحر الفتاة .

(ليس هو ، فكّر أوكي الذي لم يكن يُحسّ بأية غيرة تجاه ابنه . إنها ستدمّره) .

قالت كايكو : ـ أرجو ان تعلّق هذه اللوحة في مكتبك ؟

قال أوكي من أطراف شفتيه : ـ ولِمَ لا ؟

ـ أودّ لو تلقي عليها نظرة ، حين يهبط الليل ، في قاعة مضاءة إضاءة خفيفة. آنذاك ، ستجد خضرة مشاتل الشاي تّمحي تحت مختلف الألوان التي خلقتها مخيلتي .

ـ سيكون لديّ انطباع بأني أحلم حلماً غريباً .

ـ أيّ نوع من الأحلام ؟

ـ حلم شباب ، بلا شك .

ـ ما ألطف أن تقول هذا !

ـ انت شابّة ، بعد كل حساب ! إن المرء يُحسّ تأثير اوتوكو في هذه الخطوط المنحنية والمتموّجة . ولكن خضرة الأوراق الأخّاذة ، إنما هي منك أنت .

ـ سيكفيك ان تترك هذه اللوحة معلّقة يوماً واحداً فقط . وبعد ذلك ، لا يهمّني ان تلتقط الغبار في زاوية من خزانتك . إنها رسم رديء . سأعود بعد مدّة لأمزّقها إرباً بسكّين !

ـ ماذا ؟

كان وجه كايكو عذباً عذوبة مدهشة :

ـ إنني جادّة في ما أقول . إنها رسم رديء . ولكن اذا لم تعلّقها إلاّ يوماً واحداً في مكتبك . . .

ولـم يجـد أوكي شيئـاً يجيب به . وخفضـت كايكو رأسها ، من غير أن تنبس بكلمة . ثم استطردت :

ـ إنني أتسـاءل ، يا سيد أوكي ، إذا كنـت أمـام هذه اللوحة الغريبة ، ستحلم حقاً بحلم . . . ؟

أجاب أوكي : ـ لا ينبغي أن أقول ، ولكني أخشى أن تدفعني حقاً الى أن أحلم بك . . .

ـ لا يهمّ ، أحلم بما يروق لك (ولوّنت حمـرة خفيفـة أذنيْ كايكو الجميلتين) ومع ذلك ، فأنت ، يا سيد أوكي ، لم تفعل شيئاً يتيح لك أنْ تحلم بي .

ورفعت نحو أوكي عينين بدتا كما لو غشيتهما غشاوة .

ـ أتحبّـين ان أرافقك الآن ، كما فعل آبني ، حين جئت في المرة السابقة ؟ ليس في البيت أحد ، ولهذا لا استـطيع أن احتفظ بك للعشاء . وسأنادي سيارة أجرة .

اجتازت سيارة الأجرة كاماكورا واتجهت نحـو شاطـيء « شيشيري » . وكانت كايكو تلتزم الصمت .

كـانـت السماء فوق جون « ساغامـي » ، رمـادية ، وكذلك المحيط . وأنزلتها السيارة عند « مارنلند انشيمو » . واشترى اوكي حبّاراً و« شنشاراً » لإطعام الدلافين . كانـت تقفز خارج الماء لتلتقـط الأسماك من يدي كايكو التـي كانـت تبقيها ، كل مرة ، أعلى قليلاً . وكانت الدلافين تطفـر أعلى

فأعلى، منقضةٌ على طعامهـا. وكانـت كايكو مبتهجـة ، أشبه ببنت صغيرة . حتى أنها لم تلاحظ أن المطر بدأ يهطل .

قال أوكي ملحّاً : ـ لنذهب قبل ان يسقط المطر حبالاً . لقد ابتلّـت تنّـورتك الآن .

ـ كم كان ذلك مسلّـياً !

واذ عادا الى السيارة ، قال أوكي :

ـ هناك فِرَقٌ من الدلافين تمرّ غير بعيد ، فيما وراء ينابيع « ايتو » الحارّة . ويبدو أنها تُـصاد تمريباً من الضفّـة وأن رجالاً عُـراة يأخذونها قابضين عليهـا في أذرعهـم . إن الدلافـين لا تقاوِم حين تُـدغدغ خواصرها .

ـ صحيح ؟

ـ أتساءل عما يكون الأمر بالنسبة لفتاة ؟

ـ أنـت دنـيء ! أتصـوّر انهـا ستتخبّـط وستخدشـك بأظفارها !

ـ في هذه الحالة ، تكون الدلافين أكثر وداعة .

بلغت السيارة الفندق الذي يشرف على « انـوشيما » . كانـت الجـزيرة رمـادية ، والى الشمال ؛ كانـت شبـه جزيرة « ميورا » غارقة في الضباب . وكانت قطرات كبيرة من المطر تسقط ، وكان ضباب كثيف ، يكثر في ذلك الفصل ، يغطّي كل شيء حتى شجر الصنوبر القريب .

وحـين دخـلا غرفتهما ، كانـت بشرتهما دبقـة . قال أوكي :

ـ العـودة مستحيلـة . وستـكون خطـرة ، وحتـى في

السيارة ، مع هذا الضباب .

أومأت كايكو موافقة . وأدهش اوكي ان يرى ان ذلك لم يكن يزعجها ، على ما يبدو .

ـ إننا نقطر عرقاً . ولا بدّ أن نتزيّن قليلاً قبل العشاء . . . (قالها اوكي وهو يمسح وجهه بيده) كايكو ، ما تقولين في أن نلعب لعبة الدلافين ؟

ـ إن ما تقوله كريه ، تتحدّث عني كما لو كنت دلفيناً . هل انت حريص كل الحرص على إذلالي ؟ أن نلعب لعبة الدلافين ! . . .

واستندت كايكو الى حافة النافذة .

ـ كم ان المحيط معتم !

ـ ارجوك ان تعذريني . .

ـ لو أنك ، على الأقل ، طلبت ان تراني عارية . . . أو لو انك ، من غير ان تقول شيئاً ، أخذتني بين ذراعيك . . .

ـ ألن تقاوميني ؟

ـ لا أدري . . أما ان تقترح عليّ أن نلعب لعبة الدلافين ! لا تتصوّر انني امرأة خفيفة ، أتكون فاسداً الى هذا الحدّ ؟

قال أوكي : ـ فاسد ؟

ودخل الحمّام .

اغتسل أوكي ، ثم مسح المغطس بسرعة ، وأجرى فيه الماء . وكان شعره مشعّثاً كله حين خرج من الحمّام وهو

يدلك جسمه بمنشفته . وقال من غير ان ينظر الى كايكو :

- هيّـا ، لقد أسلت لك الماء . ولا بدّ أن المغطس ممتلىء الآن الى نصفه .

كانت كايكو تنظر الى المحيط بوجه رزين .

- إن الرذاذ يسقط الآن . والجزر المجاورة وشبه الجزيرة غارقة في الضباب . . .

- هل أنت حزينة ؟

- إنني اكره لون هذه الأمواج .

- انـك دَبِقـة تمامـاً . إذهبـي فاسـتحمّـي تتحسّـن نفسيّـتك .

أومأت كايكو موافقة ودخلت الحمام . ولم يسمع اوكي نضح الماء . ومع ذلك ، فقد عادت كايكو الى الظهور مغسولة الجسم بنضارة . وجلست امام المرآة وفتحت حقيبتها .

أقبل أوكي من ورائها .

- غسلت شعري تحت الرّشاشة ، فهو مشعّـث تماماً . وقد وجدت ملمّـعاً للشعر ، ولكني لا أحبّ رائحته .

- جرِّب إذن هذا العطر .

وقدّمت له كايكو قارورة صغيرة . فشمّـه أوكي وقال :

- هل أضع منه على شعري المطليّ بدهن التجميل ؟

قالت كايكو وهي تبتسم : - بضع قطرات فقط .

قبض أوكي على يد الفتاة وقال لها :

- كايكو ، لا تزيّـني وجهك !

قالت كايكو وهي تلتفت نحو أوكي :

ـ إنك توجعني ! الحقيقة أنك كريه !

ـ وجهك جميل كما هو . بهذه الأسنان الجميلة وذينك الحاجبين .

وضغط أوكي شفتيه على خدّ الفتاة اللامع .

أطلقت كايكو صرخة صغيرة . وتأرجح كرسيّ طاولة الزينة ، ففقدت توازنها . وكانت شفتا أوكي على شفتيها . وكانت قبلة طويلة .

صرف أوكي فمه عن فم كايكو ليستردّ نَفَسه .

ـ لا ، لا . . . قبّلني بعدُ . . .

قالتها كايكو وهي تجذبه اليها . فذُهل أوكي .

ـ حتى صيّادو اللآلىء لا يستطيعون البقاء تحت الماء هذه المدّة الطويلة . ستفقدين وعيك . . .

ـ أفقدني وعيي . . .

ـ نَفَس النساء أطول من نَفَس الرجال .

ولما كان الأمر لعبة ، فقد قبّلها من جديد قبلة طويلة . ثم حمل الفتاة بين ذراعيه ، وهو يلهث ، ومدّدها على السرير ، وتقوقعت كايكو على نفسها ، وبالرغم من أنها لم تقاومه أية مقاومة ، فقد تعب أوكي في حملها على التراخي . وحين أصبح واضحاً أن كايكو لم تكن بكراً ، تصرّف معها بقدر أكبر من الوحشيّة . واذ ذاك نادت كايكو بأنّةٍ شاكية :

ـ أوتوكو ! أوتوكو !

ـ ماذا تقولين ؟

كان أوكي يظنّ ان الفتاة قد صاحت باسمه ، ولكن قواه

خذلته حين أدرك أنهّا انما نادت أوتوكو .

ـ ماذا قلت ؟ أوتوكو ؟

قالها أوكي بصوت زايله السُّكر . ومن غير أن تجيب ، دفعته كايكو بعيداً عنها .

مناظر من حجر

لا تزال عديدة في كيوتو ، في أيامنا هذه ، الأديرة ذات الحدائق الحجريّة . ومن أشهرها أديرة « سايهوجي » ، و« الجناح الفضّي » و« ريوان جي » و« دايتوكوجي » و« ميوشين جي » . ولكن أكثرها شهرة هو دير « ريوان جي » الذي يُقال ، بحقّ ، إنه يجسّد جوهر فلسفة زن وجماليّته . ولا يمكن لحديقة حجريّة أخرى أن تُقاس بتنظيات صخوره المشهورة .

وقد كانت أوتوكو تعرف جيّداً جميع هذه الحدائق . وهذا العام ، حين انتهى فصل الأمطار ، توجّهت الى « سايهوجي » وفي نيّتها رسم بعض التخطيطات الأولية . ولم تكن تفكر بأنها قادرة على رسم الحديقة . كانت تودّ فقط أن تتشبّع بالقوّة التي كانت تنبعث منها .

ألم تكن واحدة من أقدم تلك الحدائق الحجريّة وأقواها ؟ لم تكن اوتوكو تحرص حقاً على رسمها ؛ أية مفارقة كانت تقوم بين تنظيات الأحجار خلف الدير وبين عذوبة نبت حراج الطحلب الرائعة التي كانت تشرف عليها ! ولو لم يكن ثمة زوّار يروحون ويجيئون ، لودّت اوتوكو أن تجلس هناك لتتأملها . وهي إن فتحت دفتر تخطيطاتها الأولية ، فلكي لا

توقظ شكوك المتنزّهين اذ تقف تارة في هذا المكان وطوراً في ذلك المكان .

كان دير « السايهوجــي » قد رمِّــم عام ١٣٣٩ على يد الراهــب موزو كوكوشــو (١٢٧٦ ـ ١٣٥١) الـذي كان قد أصلح المبنى الرئيسي وحفر مستنقعاً أقام فيه جُزيرة . ويقال إنه كان يصحب الزوار الى جناح قائم على قمة التلّـة كان النظـر يعانق فيه مدينة كيوتو . وكانت جميع تلك المباني قد هُدمـت ووجــب ترميم الحديقــة عدة مرات ، بعــد أن خرّبتهــا الطوفانات . وكانت الحديقة الحالية قد أقيمت بحذاء الطريق المزيّن بفوانيس حجريّة الذي كان يفضي الى الجناح القديم على التلّة . كان شلاّل ومجرى مائيّ مرسومين فيه ، ولا بدّ أنه ، بسبب طبيعة المادّة نفسها التي صنع منها ، قد حافظ بالأرجح على مظهره الأول .

وفيما بعد ، كان « شوان » ، الابن الأصغر لـ « سان ريكيو »* . ولكن هذه المراجع التاريخية لم تكن تمثّل أية أهمية لأوتوكو التـي لم تكن قد قصـدت « سايهوجـي » إلاّ لتتأمـل تنظيمات الصخور . وكانت كايكو تتبعها كظلّها . وقد قالـت فجأة :

ـ أوتوكو ، ان جميع التنظيمات الحجرية هي تجريدية ، أليس كذلك ؟ ان المرء يجد في الرسم بعض هذه القوّة في لوحة « سيزان » التي تصوّر صخوراً في « الايستاك » .

(*) سان ريكيو (١٥٢١ ـ ١٥٩١) صانع مشهور من صنّاع الشاي الذين اتقنوا صناعته .

ـ إنك يا كايكو تعرفين اموراً كثيرة من هذه ! ومع ذلك ، ألم تكن جروفاً طبيعية ؟ لم تكن مرتفعة جداً ، ولكن تلك الكتل الصخرية على الشاطىء . . .

ـ اذا رسمتِ هذه الحديقة ، يا أوتوكو ، ستكون لوحتك تجريدية . انني أنا ، لن أملك القوة لرسم هذه الكتلة من الحجارة رسماً واقعياً .

ـ ربما . وأنا لا أحسّني أملك شجاعة أكثر . . .

ـ واذا حاولت أن أصنع رسماً أولياً غليظاً ؟

ـ لا شك أن ذلك سيكون أفضل . لقد كان رسمك لمشاتل الشاي مثيراً جداً للاهتمام ، مليئاً بالشباب والنضارة . وقد أخذته الى السيد أوكي ايضاً ، أليس كذلك ؟

ـ بالفعل . ولا شك في أن زوجته قد مزّقت اللوحة إرباً إرباً . . . لقد قضيت الليل معه ، في فندق من فنادق « أنوشيما » . كان يتحدث انه يريد أن يلعب لعبة الدلافين ، وقد وجدته فاسداً بما فيه الكفاية ، ولكني حين هتفت باسمك ، هدأ على الفور . . . إنه ما يزال يحبّك وهو يعاني الندم . وقد كان ذلك كافياً لايقاظ الغيرة . . .

ـ ولكن ، ماذا تنوين أن تفعلي ؟

ـ أريد ان أدمّر هذه العائلة . انتقاماً لك .

ـ انتقاماً لي ؟

ـ لا أستطيع أن أحتمله بعد . فأنت ما تزالين تحبّينه . بالرغم من كل ما جعلك تعانينه ، لا تزالين تحبّينه . ما أحمق النساء ! ان هذا هو مالا أستطيع احتماله ، ومن أجل هذا

تأخذني الغيرة .

- هل تغارين حقاً ؟

- نعم .

- وبدافع من الغيرة ، قضيتِ تلك الليلة في فندق انوشيا معه ؟ اذا كنت ما أزال أحبّه ، أليس أحرى بي أنا أن أغار ؟

- ولكن هل تغارين حقاً ؟

فلم تجب اوتوكو .

- كم أتمنّى أن تغاري !

وأسرع المرقاش الذي كانت كايكو تمسك به .

- لم أنجح في أن أبلغ النوم في الفندق . أما السيد أوكي ، فقد استسلم للنوم ، سعيداً ! إن الرجال ذوي الخمسين يرعبونني . . .

وتساءلت اوتوكو ، وهي مضطربة ، عما إذا كانا قد ناما في سرير كبير أم في سريرين توأمين . ولكنها لم تجرؤ على طرح السؤال على كايكو .

- كان ينام نوماً عميقاً ، وكان يروق لي أن أتخيّل كم كان يسيراً عليّ أن أخنقه . . .

- أنت كائن خطر ! إنك تخيفينني .

- لم تكن تلك الا فكرة . ولكنها كانت تلذّ لي الى حدّ أني لم أستطع أن أجد النوم .

- وتقولين إنك فعلت ذلك كلّه من أجلي ؟

وارتجفت يدا اوتوكو التي كانت ترسم التنظيمات الحجرّية ، وأضافت :

ـ إنني لا أستطيع ان أصدّق ذلك .

ـ ومع هذا ، فمن أجلك أنت فعلتُ ذلك .

كان سلوك الفتاة الملتبس قد بدأ يُرعب اوتوكو :

ـ كايكو ، أرجوك ، لا تعودي مرة أخرى الى ذلك البيت . لا يعرف أحد ما يمكن أن يحدث .

ـ حين كنت ، يا اوتوكو ، في المستشفى ، ألم تفكّري قطّ في قتله ؟

ـ إطلاقاً . ربما كان ذهني مختلاً ، أما أن أفكر بقتل أحد . . . .

ـ ألم تكوني تأخذين عليه ما فعل ؟ أكنتِ أشدّ حباً له من أن تؤاخذيه ؟

ـ ثم إنه . . . كان هناك الولد . . .

ـ الولد . . . ؟ (ولم تسعفها الكلمات) ربما كان بامكاني أن أرزق منه بولد ؟

ـ كيف ؟

ـ بهذه الطريقة ، أقوده الى هلاكه .

كانت أوتوكو تنظر ، مذهولة ، الى الفتاة . كيف كان يمكن لكلمات شيطانية مثل هذه أن تصدر عن ذلك العنق الطويل الرقيق ، عن هذا الوجه الفاتن ؟

قالت أوتوكو وهي تتمالك نفسها :

ـ تستطيعين ، بالتأكيد ، أن تُرزَقي بهذا الولد . ولكن هل تفهمين ما قد يعني ذلك ؟ اذا كان لك طفل ، لن أهتمّ بك بعد . وسترين أنك ، حين تصبحين أماً ، فلن تتكلّمي

كما تتكلمين الآن . ستتغيّرين .

ـ لن أتغيرَّ أبداً .

ما الذي حدث فعلاً في ذلك الفندق بأنوشيا ؟ وتساءلت اوتوكو عما إذا كان كلام كايكو لم يكن يخفي شيئاً آخر . ما عساها كانت تحاول ان تخفي خلف كلمات متطرفة مثل « غيرة » أو « انتقام » ؟

أغمضت أوتوكو عينيها وفكّرت : أكانت تستطيع بعدُ أن تشعر الآن بالغيرة بسبب أوكي ؟ كانت حجارة الحديقة تمكث في قلب عينيها كأنها الظلّ .

ـ أوتوكو ! أوتوكو !

وأحاطت كايكو كتفها بذراعها :

ـ ماذا يحدث ؟ إنك ممتقعة فجأة !

وقرصتها بقوّة تحت إبطها .

ـ إنك توجعينني !

وترنحت أوتوكو وسقطت على إحدى ركبتيها . فساعدتها كايكو على النهوض .

ـ أوتوكو ! انت كلّ شيء بالنسبة لي . كل شيء .

كانت أوتوكو ، من غير أن تنطق بكلمة ، تمسح العرق البارد على جبينها .

ـ إذا استمررت على هذا الشكل ، يا كايكو ، فستكونين شقيّة جداً . شقية بصورة فظيعة بقية أيامك . . .

ـ انني لا أخشى الشقاء .

ـ تقولين ذلك لأنك صغيرة وجميلة . . .

ـ ما دمت تحتفظين بي معك ، فسأكون سعيدة .

ـ أنا سعيدة بذلك ، ولكني لست ، بعد كل حساب ، الا امرأة .

أجابت كايكو بلهجة قاطعة :

ـ إنني أكره الرجال . . .

ـ لا يمكن لهذا أن يدوم هكذا .

وأضافت اوتوكو بأسى :

ـ اذا بقينا معاً أطول مما ينبغي . . . حتى ذوقانا في مادة الرسم مختلفان بعض الشيء .

ـ إنني أحتقر ان يكون لي أستاذ يرسم مثلي . . .

قالت أوتوكو التي كانت قد استعادت بعض هدوئها :

ـ هناك أشياء أكثر مما ينبغي تكرهينها . أريني دفتر تخطيطاتك الأولية ، هل تريدين ؟ :

ـ نعم .

ـ ما هذا ؟

ـ لا تكوني شرّيرة ! ألا ترين أن هذه هي الحديقة الحجريّة ؟ انظري جيّداً . . . لقد صنعت شيئاً لم أكن أحسبني قادرة عليه !

وفيما كانت أوتوكو تتفحّص الرسم ، امتقع وجهها من جديد . لم يكن بإمكان المرء ان يفهم ، لأول وهلة ، ما كان يمثّله ذلك التخطيط بالحبر الصينيّ ، ولكن كان يشعر بأنه يرتعش بحياة خفيّة . ولم تكن كايكو ، حتى ذلك الحين ، قد صنعت شيئاً مشابهاً . وكانت اوتوكو ترتجف حين قالت :

ـ هكذا إذن . لقد حصل شيء هامّ في انوشيا .

ـ إنني لن أصف ما حصل بأنه هامّ .

ـ لم يسبق لك قطّ ان رسمتِ مثل هذا .

ـ أوتوكو . . اذا أردت ان تعرفي كل شيء ، فهو ليس قادراً حتى على إعطاء قبلة طويلة .

ظلّت اوتوكو صامتة .

ـ أيكون جميع الرجال هكذا ؟ كانت تلك تجربتي الأولى مع رجل .

استمرّت اوتوكو تتفحّص تخطيط كايكو ، وهي حائرة حول المعنى الذي يحسن بها أن تعطيه لـ « تجربة أولى » وقالت :

ـ كم أودّ لو أكون حجراً من حجارة هذه الحديقة !

كانت الحجارة ، في حديقة الراهب « موسو » التي كانت القرون قد جرت عليها ، تبدو على هيئة من القِدم وتتخذ زنجاراً بحيث كان المرء يتساءل إن كانت هي الطبيعة أو يد الإنسان قد نسّقتها على ذلك النحو . ولكن من يرى أشكالها الزاويّة والصلبة التي كانت تثقل على أوتوكو بحملٍ شبه روحيّ ، لا يشكّ بعدُ بأن الفعل كان فعلاً بشريّاً .

ـ كايكو ، ما تقولين في أن نعود ؟ لقد بدأتْ هذه الحجارة تخيفني .

ـ حسناً .

ـ إنني لا أستطيع أن أجلس هنا وأتأمّل . فلنذهب .

قالتها اوتوكو التي ترنّحت وهي تنهض . ثم أضافت :

ـ إنني لا أنجح في رسمها . إن هذا مفرط التجريدية ، ولكني أحسب أنك التقطت شيئاً في هذا التخطيط الأوليّ الذي رسمته .

أخذت كايكو ذراعها وهي تقول :

ـ أوتوكو ، في البيت،ما رأيك ان نلعب لعبة الدلافين ؟

ـ نلعب لعبة الدلافين ؟ ما هذه الحكاية أيضاً ؟

ضحكت كايكو ضحكة خبيثة وتوجّهت نحو دغل من القصب الى يسارها يشبه ما يُرى في بعض الصور . وكان وجه أوتوكو متوتراً أكثر منه حزيناً فيما هي تتّجه الى الدغل .

نادتها كايكو وهي تربّت على كتفها :

ـ هل أفقدتك هذه الحجارة رشدك ؟

ـ لا ، ولكني أودّ ، من غير أن يكون معي دفتر رسوم ولا مراقش ، ان أبقى أياماً بطولها وأنا أتأمّلها .

وكان وجه كايكو ، كعادته ، يشعّ شباباً :

ـ ومع ذلك ، فليست هي الاّ حجارة ؟ لعلّك ترين فيها قوّة ، وكذلك بعض الجمال في هذا العشب الذي يغطّيها ، ولكن الحجارة هي حجارة . . .

واستطردت كايكو تقول :

ـ أتذكّر «هايكي» في « ياما غوشي سيشي ». كان الأمر فيه أن ينظر المرء الى البحر من الصبح حتى المساء ، يوماً بعد يوم ، ثم يعود الى كيوتو ويفهم أخيراً معنى حديقة من الحجارة .

ـ البحر وحديقة من الحجارة ؟ اذا فكر المرء في المحيط وفي الصخور الهائلة وفي الجروف ، وفي تركيبات الحجارة التي

هي من صنع الانسان . . . مهما يكن من أمر ، فأنا لا أحسّني قادرة على رسمها .

ـ إنها ، يا أوتوكو ، تركيب تجريديّ خلقه الانسان . أنا أحسّ بأني أستطيع أن أرسم هذه الحجارة على طريقتي ، باستعمال ألوان يروق لي أن . . .

وتابعت كايكو : ـ الى أي تاريخ يرجع عهد هذه الحدائق ؟

ـ لا أعرف تماماً ، ولكن أظن أنها لم تُعرف قبل حقبة « مورروماشي » .

ـ وهذه الحجارة وهذه الصخور ، أهي قديمة جداً ؟
ـ لا أملك عن ذلك أية فكرة .

ـ هل تودّين ان ترسمي لوحة تعيش وقتاً أطول من هذه الحجارة ؟

كانت أوتوكو تبدو قلقة :

ـ لم أؤمّل قطّ شيئاً كهذا . ولكن أشجار هذه الصومعة ، كأشجار حديقة مقصورة « كاتسورا » الامبراطورية ، أتراها لم تنبت ولم تَشِخ ولم تُعانِ العواصف ولم تكن مختلفة كليّة عما كانت من قبل ؟ أما تركيبات هذه الحجارة ، فقد بقيت هي نفسها بلا شك .

ـ أعتقد ، يا اوتوكو ، بأن من الأفضل ان تتغيّر الأشياء وتختفي . وفي هذه الساعة التي نحن فيها ، لا بدّ أن تكون زوجة السيد أوكي قد مزّقت إرباً إرباً لوحتي التي تمثل مشاتل الشاي . بسبب تلك الليلة في انوشيما . . .

ـ لقد كانت مع ذلك لوحة هامّة جداً . . .
ـ أتعتقدين ؟
ـ هل تنوين ، يا كايكو ، ان تحملي أفضل أعمالك الى منزل السيد أوكي ؟
ـ نعم ، الى أن أكون قد بلغت مقاصدي .
ـ لقد قلت لك مرات عديدة إنني لا أريد ان اسمع شيئاً عن هذا الانتقام !
ـ إنني أفهمك . ولكن ما أفهمه أقلّ هو هذا العناد النسائيّ الذي أحسُّه فيّ . وهذه الغيرة أيضاً . . .
ـ هذه الغيرة . . .
ردّدتها اوتوكو بصوت منخفض وراعش وهي تمسك بأصابع كايكو .
ـ اوتوكو ، أنت حتى اليوم تحبّين أوكي من أعمق أعماق قلبك . وهو كذلك يحمل لك حباً يحتفظ به مكنوناً . وقد فهمت هذا في ذلك المساء الذي سمعنا فيه الأجراس .
لم تجب اوتوكو .
ـ إنني أتساءل عما إذا لم يكن يدخل ، في الكره نفسه الذي تحسّه امرأة ، شيء من الحبّ ؟
ـ كايكو ، لماذا تقولين مثل هذا الشيء ، هنا ؟
ـ ربما كان ذلك لأني صبيّة ، ولكن يخيّل اليّ ، حين أنظر هذه الصخور ، أني أرى الرجال الذين رتّبوها في السابق وفق هذا النظام . ومع ذلك ، فأنا لا أبلغ بعدُ أن أقرأ في قلوبهم . لقد كان لا بدّ من قرون ليكون للحجارة هذا

الزنجار ، ولكني أتساءل ما كان مظهرها حين كانت جديدة ؟

ـ أخشى أن ذلك المظهر كان مخيّباً .

ـ اذا كان لي أن أرسم هذه الحجارة ، فسأضفي عليها الشكل والألوان التي تروق لي ، كما لو أنها رُتّبت لتوّها على هذا النحو .

ـ لعلّك تنجحين في رسمها .

ـ أوتوكو ، ان هذه الحديقة ستبقى وقتاً أطول منك ومني .

ـ بالتأكيد . ومع ذلك ، فهي لن تبقى الى الأبد .

وارتعشت أوتوكو فجأة وهي تقول ذلك .

ـ سيّان عندي أن تكون حياة لوحاتي قصيرة ، ما دمت بقربك . . . أو حتى ان تُتلف على الفور . . .

ـ تقولين هذا لأنك شابّة . . .

ـ بل أنا أتمنّى تقريباً أن تمزّق زوجةُ أوكي لوحتي . سأعرف آنذاك ان عنف انفعالها هو الذي دفعها الى مثل ذلك التصرّف .

وتوقّفت كايكو لحظة ثم قالت :

ـ ان لوحاتي لا تستحق حتى ان يتوقّف المرء عندها .

ـ ينبغي ألاّ تقولي ذلك . . . .

ـ أنا لا أملك شيئاً من العبقرية ، ولا أحرص على ان تمرّ واحدة من لوحاتي الى الخلود . إن كل ما أرغبه أن أبقى معك . كنت سعيدة أن أعنى بك ، أن أتحمّل مهمّات بيتية . . ثم إنك أعطيتني اول دروسي في الرسم . . .

ذُهلت أوتوكو : ـ أهذا ما تعتقدينه ، يا كايكو ؟

ـ من أعماق قلبي . . .

ـ ولكني على يقين ، يا كايكو ، أن عندك موهبة . لقد اتفق لك ان رسمتِ أشياء مدهشة !

ـ كرسوم أطفال ؟ حين كنت صغيرة ، كانت رسومي تُعلّق دائماً في غرفة الدرس .

ـ إن ما تفعلينه أكثر أصالة مما أفعل . بل يتفق لي أحياناً ان أحسدك . فكفّي إذن عن النطق بالحماقات !

ـ حسناً . ما دمت بقربك فسأبذل كل ما في طاقتي . ما تقولين ، يا أوتوكو ، لو نتحدث بأمور أخرى ؟

ـ هل فهمت جيداً ؟

ـ نعم (وأومأت كايكو برأسها) اذا لم تتركيني . . .

أجابت اوتوكو بقوّة :

ـ كيف أستطيع ذلك ؟ ومع هذا . . .

ـ ماذا ؟

ـ إن على المرأة ان تتزوّج ، وأن يكون لها أولاد . . .

ضحكت كايكو بطلاقة :

ـ أما هذا . . . فقليل جداً بالنسبة لي !

ـ كل ذلك بسببي . سامحيني .

أدارت أوتوكو نظرها وخفضت رأسها . ثم انتزعت ورقة من شجرة . ومشت صامتة ، ردحاً من الزمن .

ـ أوتوكو ، ان النساء مخلوقات تثير الشفقة . إن شاباً لن يعشق إطلاقاً امرأة في الستين ، في حين أن فتاة مراهقة يمكن

أن تقع ، بجدّية ، في حبّ رجل في الخمسين أو في الستين ، من غير أن تتصرّف بالضرورة بدافع من مصلحة . . ألا ترين ذلك ، يا أوتوكو ؟

فلم تدر أوتوكو ما تردّ به على هذه الكلمات غير المتوقّعة .

ـ أما بالنسبة للسيد اوكي ، فلم يبق ما يُعمل . إنه يعتبرني بغيّاً !

امتقع وجه اوتوكو .

ـ وليس هذا كل شيء . عند اللحظة الحرجة ، هتفت ، على غير إرادة مني ، بآسمك . فكان غير قادر على ان يتابع ! والواقع أن ذلك كان كما لو أنه أذلّني ، بسببك !

وزادت اوتوكو امتقاعاً . وأحسّت بساقيها تصطكّان . وسألت أخيراً :

ـ في أنوشيما ؟

ـ نعم .

كانت أوتوكو عاجزة عن الاحتجاج .

وكانت سيارة الأجرة قد أنزلتهما أمام البيت .

ـ وربما كان ذلك هو ما أنقذني . . .

ولم تستطع كايكو أن تمتنع عن الاحمرار . ثم سألت :

ـ أوتوكو ، ما تقولين في أن أحبل بهذا الولد من أجلك ؟

وفجأة ، صفعت اوتوكو الفتاة . وطفرت الدموع الى عينيها . وقالت كايكو :

ـ حسناً ! اضربيني بعد يا أوتوكو ! اضربيني بعد !

كانت أوتوكو ترتجف ، وقالت بتمتمة :

ـ كايكو ! هل تكفّين ؟

ـ لن يكون هو ولدي . أريده أن يكون لك . إنني أنا التي سأحمله ، وبعد ذلك ، أعطيك إياه . من أجلك ، سأسرقه من السيد أوكي . . .

ومن جديد ، صفعتها أوتوكو بعنف . فبدأت كايكو تنتحب .

ـ أوتوكو ، مهما أحببت أوكي ، فأنت لا تستطيعين بعد أن تُرزقي منه بولد . لن تستطيعي ذلك بعد ! أما أنا ، فالأمر ممكن عندي . سيكون ذلك أشبه بأن تَلِديه انت . . .

ـ كايكو ! . . .

خرجت أوتوكو الى الشرفة ، وبركلة من قدمها ، قذفت الى الحديقة بقفص مليء بحشرة الحباحب .

وفي اللحظة التي كانت اوتوكو تدفع فيها القفص بقدمها العارية فيستقرّ على العشب ، أرسلت الحباحب شعاعاً باهتاً . وبدأت سماء ذلك اليوم الصيفيّ الطويل تتشح بالغيوم ، وكان ضباب شفاف يرفّ على الحديقة . ولكن الجوّ كان ما يزال مشرقاً كما في عزّ الظهيرة . وكان يبدو شبه مستحيل ان تنشر الحباحب ذلك الشعاع المبيضّ . أتكون اوتوكو قد حلمت بذلك ؟ كانت منتصبة على ساقين صلبتين تنظر بإحداد الى قفص الحباحب المقلوب على الكلأ .

كفّت كايكو عن النحيب . وتفحّصت اوتوكو خفيةً وهي

تكتم نَفَسها . لم تكن قد حاولت تجنُّب صفعة اوتوكو . كانت راكعة على الحصير ، مستندة على يدها اليمنى . وقد ظلّت في وضعها هذا من غير أن تأتي أدنى حركة . كانت كما لو أن صلابة اوتوكو قد انتقلت الى جسم الفتاة الصبيّة .

قالت اوميو : ـ آه ! هل عدتِ يا آنسة اوينو ؟ لقد أعددت لك حمّاماً .

ـ حسناً . أشكرك .

كان صوتها يخرج بصعوبة . وكانت تحُسّ كيمونوها المندّى بالعرق يلتصق بجسمها مزعجاً . وكان صدرها كذلك مغطّى بعرق بارد .

ـ ليس الجوّ حاراً الى هذا الحدّ ، ومع ذلك ، فكم هو شاقّ مزعج ! هذه الرطوبة . . . يبدو أن فصل الأمطار لم ينته بعد . أو أنه قد عاد .

وتابعت أوتوكو ، من غير أن تلتفت نحو اوميو :

ـ شكراً من أجل الحمّام !

كانت أوميو تعمل في الدير كل الأعمال وتؤدي كذلك بعض الخدمات لأوتوكو . كانت تهتمّ بتدبير المنزل والغسيل وتنظيف الصحون ، وتنظِّم المطبخ بل تُعدّ أحياناً الطعام . ولم تكن أوتوكو تكره الطهو ، وكانت تحُسن ذلك ، ولكنها كانت مستغرقة في رسمها ، فأصبح الطبخ يُضجرها . أما كايكو ، فقد كانت ، خلافاً للمظاهر ، موهوبة في إعداد بعض المطاعم الخاصة بكيوتو ذات الذوق المرهف ، ولكن لم يكن بالامكان الاعتماد عليها . من أجل هذا ، كانت المرأتان

غالباً ما تكتفيان ، عند الفطور وعند العشاء ، بمآكل أوميو البسيطة . وكانت أوميو في الثالثة والخمسين او الرابعة والخمسين ، وهي لم تظهر عاطلة عن العمل طوال السنوات الستّ التي قضتها في هذا الدير . وكانت أم المعلّم وزوجته الشابّة تعيشان كذلك في الدير ، ولذلك كانت أوميو حرّة في أن تكرّس لاوتوكو كثيراً من وقتها . كانت امرأة قصيرة القامة ، وكان عرقوباها ومعصماها متورّمة حتى ليظنّ أنها كانت مشدودة بحبل .

تأمّلت اوميو ، بوجهها المشعّ ، قفص الحباحب في الحديقة . ثم تخطّت الحجارة ، مقتربة من القفص ، متسائلة :

ـ يا آنسة ، هل تتركين الحباحب هكذا في الندى ؟

وانحنت ، فقوّمت القفص ، ولكنها لم ترفعه ، كما لو كانت تعتقد أن مكانه كان هناك ، في الحديقة .

كانت أوتوكو قد اختفت في الحمّام ، فوجدت اوميو نفسها وجهاً لوجه مع كايكو . وكان لعيني هذه الأخيرة النديّتين بريق نفّاذ . خفضت أوميو رأسها . كان يبدو ان ثمة شيئاً قد حدث ، لأن أحد خدّيْ الفتاة الشابة ، بالرغم من امتقاع وجهها ، كان محمّراً .

وسألت اوميو ، على غير إرادة منها : ـ ماذا هناك ، يا آنسة ؟

فلم تجب كايكو ، ومن غير ان يتبدّل تعبير عينيها ، نهضت . كان بإمكانها أن تسمع ضجّة الماء في الحمّام . لا بدّ

أن أوتوكو كانت تجري ماءً بارداً في حمّامها المفرط الحرارة . ولا بدّ أن المغطس قد فاض ، ومع ذلك ، فقد كان الماء ما يزال يجري .

اقتربت كايكو من المرآة المعلّقة على جدار المرسم ، وأخرجت من محفظة يدها ما تنمّق به زينة وجهها ، وسرّحت شعرها بمشط فضّيّ صغير . وكان في غرفة الزينة ، أمام الحمّام ، منضدة ومرآة متحركّة .

تردّدت كايكو في دخول هذه الغرفة التي كانت اوتوكو قد خلعت فيها ملابسها . وقد أخرجت من الدرج الأعلى لخزانة الثوبَ الأول غير المبطّن الذي كان يعلو الكومة وغيرّت ثيابها من الرأس حتى القدم . ثم حاولت ان تُدخل أكمام الثوب غير المبطّن في أكمام كيمونوها الطويل وأن تسوّي فتحة القبّة ، ولكن يديها كانتا مرتبكتين . ونادت فجأة :

ـ أوتوكو !

خفضت كايكو رأسها فوقعت عيناها على الزخارف المطبّعة لأكمام ثوبها وذيله . وخيِّل اليها أنها تتعرّف فيها رسم أوتوكو . فمن أجلها إذن ، رسمت هذه الأخيرة هذه الزخارف . كانت قد مثّلت زهوراً صيفية ولكن بطريقة بلغ من الجرأة في تجريديتها أن المرء لم يكن يصدّق أن تكون هي التي رسمتها . كانت تشبه دوديات أرجوانية ، ولكنها كانت في الواقع زهوراً خيالية تتلوّن بألوان متنوّعة منسجمة مع ذوق اليوم . وكان هذا كله يعطي شعوراً بالشباب والنضارة . ولا بدّ أن أوتوكو كانت قد رسمت هذه الزهور في الفترة التي كانت

لا تنفصل فيها عن كايكو .

كانت أوميو تناديها من الغرفة المجاورة :

ـ يا آنسة ، هل تخرجين ؟

فسألتها كايكو من غير أن تلتفت :

ـ لماذا تنظرين هكذا ؟ اقتربي اذن !

ولاحظت كايكو أن اوميو كانت تتفحّص بهيئة متشكّكة جهودها لمطابقة فتحتي القبّتين ولعقد الحزام . وكررت اوميو :

ـ هل انت خارجة ؟

ـ لا .

ورفعت كايكو أطراف ثوبها غير المبطن بيدها اليمنى . وحملت حزامها على ذراعها اليسرى ، ثم توجهت الى غرفة الزينة الصغيرة عند قاعة الحمّام . وقالت فجأة :

ـ نسيت ، يا أوميو ، جوربي القطني ، فاجلبي لي زوجاً جديداً منه .

حين سمعت اوتوكو خطى كايكو ، ظنّت أنها قادمة اليها في الحمّام ، فنادتها :

ـ كايكو ، ما أعذب الماء !

ولكن كايكوكانت واقفة أمام المرآة المتحركة تعقد حزامها . وقد شدّته حتى أنه كاد ينفذ الى لحمها .

وجلبت اوميو الجورب ، ووضعته من غير أن تتكلم عند قدمي كايكو ، ثم خرجت .

ومن جديد ، صاحت أوتوكو : ـ أسرعي !

كانت أوتوكو جالسة في المغطس وقد بلغ الماء أعلى

صدرها ، وكانت تحدّق في الباب المصنوع من خشب الكريبتوميريا ، منتظرة أن ترى كايكو بين دقيقة وأخرى . ولكن لم يكن يُسمع أيّ صوت من وراء الباب ، حتى ولا حفيف ثوب يُنزع .

واستولى على أوتوكو شكّ : هل كانت كايكو متردّدة في الدخول للاستحمام معها ؟ وأحسّت فجأة بالضيق ، فخرجت من المغطس وهي تتشبّث بأطرافه . أترى كايكو لا تريد بعدُ أن تظهر عارية أمامها ، بعد تلك الليلة في أنوشيما ؟

كان قد انقضى أكثر من أسبوعين على عودة كايكو من طوكيو . وكانت قد أفادت من إقامتها في العاصمة لتزور أوكي ، وقد صحبها الى أنوشيما . ومنذ عودتها من كيوتو ، استحمّت عدّة مرّات مع أوتوكو وتعرّت أمامها من غير أن تشعر بأي خجل . ومع ذلك ، فهذا اليوم فقط ، أمام تنظيمات سايهوجي الحجرية ، اعترفت فجأة لصديقتها بأنها كانت قد قضت الليل في انوشيما مع أوكي . وقد كان ذاك الاعتراف ، بالنسبة لاوتوكو ، على غاية التطرُّف وعدم القابلية للفهم .

كانت أوتوكو قد تعلّمت ، على ممرّ السنين ، أن تعرف يوماً بعد يوم أي نوع من الفتيات كانت كايكو . كانت قد أحسّت أنها منجذبة ومسحورة بها . وقد كان لأوتوكو طبعاً نصيب من المسؤولية في سلوك الفتاة الملتبس ؛ وبالرغم من أنه لم يكن ثمة أي شك في أنها هي التي ألهبت النار ، فانه لا يمكن اعتبارها مسؤولة كليّة . وفيما كانت تنتظر في قاعة الحمّام ، كانت قطرات من عرق بارد تتلألأ على جبينها . وسألت :

ـ كايكو ، ألا تأتين ؟
ـ لا .
ـ ألا تريدين الاستحمام ؟
ـ لا .
ـ ولكن لا بدّ انك غارقة بالعَرق . . .
ـ لست كذلك .
واستطردت كايكو ، بعد توقّف :
ـ أنا آسفة ، يا أوتوكو . إنني أطلب منك ان تسامحيني . .
كان صوتها واضحاً . وردّدت اوتوكو كلام الفتاة :
ـ أسامحك . . . بل أنا التي أخطأت . ينبغي لي أنا أن أعتذر .
فلم تجب كايكو .
ـ لماذا انت واقفة هنا هكذا ؟
ـ إنني أشدّ حزامي .
ـ ماذا ؟ حزامك ؟
استولت الظنون على أوتوكو ، فأسرعت تجفّف جسمها ثم فتحت الباب . واذ ذاك رأت كايكو في هيئة فاتنة .
ـ هل انت خارجة ؟
ـ نعم .
ـ وإلى أين أنت ذاهبة ؟
ـ لا أدري .
قالتها كايكو ، وظلّ من أسى يرين على عينيها

البرّاقتين .

وكأنما أحست اوتوكو بالخجل من عريها ، فتدثّرت بكيمونو خفيف من القطن .

ـ أنا ذاهبة معك .

ـ حسناً .

ـ هل هذا يزعجك ؟

ـ لا ، يا أوتوكو .

قالت كايكو ذلك وهي توليها ظهرها . وكانت جانبية وجهها تنعكس في المرآة المتحركة . وتابعت :

ـ إنني بانتظارك .

ـ حسناً . لن أتأخر . هل تريدين ان تتركيني لحظة ؟

وتجاوزت كايكو فجلست أمام طاولة الزينة . والتقى نظراهما في المرآة .

ـ ما رأيك ان نذهب الى كياماشي ؟ عند أوفوزا ؟ تلفني . فاذا لم يكن ثمة طاولة على السطيحة ، فليحجزوا لنا قاعة صغيرة في الطابق الأول أو في أي مكان ، شريطة أن نشرف على النهر . . . فاذا لم يكن هذا ممكناً ، ذهبنا الى مكان آخر .

فقالت كايكو موافقة : ـ حسناً . هل تريدين ، يا أوتوكو ، قدحاً من الماء البارد ؟ مع الثلج . . .

ـ بكل رضى . هل يبدو عليّ اني أشكو الحرّ ؟

ـ نعم .

لا تقلقي ، فلن أقذف وجهك بقطعة من الثلج . . .

قالتها أوتوكو وهي تصبّ بضع نقاط من غَسول على راحة يدها اليسرى . واذ شربت قدح الماء الذي جلبته لها كايكو ، شعرت بالماء البارد ينفذ حتى صدرها .

وكان لا بدّ ، من أجل المخابرة التلفونية ، التوجّه الى المبنى الرئيسي للدير . وحين عادت كايكو ، كانت أوتوكو ترتدي ثيابها على عجل .

ـ نستطيع ان نحصل على طاولة على السطيحة ، شريطة أن نصل قبل الثامنة والنصف .

تمتمت أوتوكو :

ـ قبل الثامنة والنصف ؟ حسناً . اذا استعجلنا قليلاً ، استطعنا ان نتعشّى بهدوء .

وجذبت اوتوكو مصراعي المرآة ونظرت الى وجهها .

ـ لا بأس بشعري هكذا ، أليس كذلك ؟

أومأت كايكو برأسها إيجاباً . ثم اقتربت من أوتوكو وسوّت ، برفق ، التطريز في ظهر كيمونوها .

اللّوتس في اللهب

في « المناظر المصوّرة لمشاهد العاصمة المشهورة » مقطعٌ يُستشهد به غالباً وهو يصوِّر برودة الأمسيات على ضفاف نهر « كامو » : « . . . إن سطائح بيوت اللّذة في الشرق والغرب تشرف على ضفاف النهر ، وتنعكس أنوارها ، الشبيهة بالنجوم ، في المياه ، بينما يتناول الناس الطعام جالسين على مقاعد واطئة . وعلى هواء النهر تتطاير قبعات ممثّلي كابوكي الأرجوانية الغامقة . وأولئك الشبّان الجميلون الذين يخيفهم ضوء القمر الباهر يتروّحون بأناقة حتى أن المرء لا يستطيع ان يصرف عنهم بصره . أما العاهرات ، فهنّ في ذروة جمالهن ، وهنّ أعذب من ورود الصين ، وينبعث منهنّ ، في ذهابهنّ وإيابهنّ ، عطر السحلبيات والمسك ، واذ ذاك يظهر رواة الحكايات الممتعة والتشخيصات : « كانت ثمة قرود تمثّل هرْجات ، وكلاب تتصارع ، وأفراس سيرك ، وبهلوانيون يتمازحون مع وسائد ، وآخرون يتأرجحون على حبال . وكان يُسمع صياح بائع متنقّل ، وخرير مياه منبعث من دكاكين «التوكوروتن»[1] وتكسرُ زجاج ، وكأن هذه الأصوات دعوةالى

---

(١) توكوروتن : جيلةُ أغرة (مادة هلامية تستخرج من الطحالب البحريّة)

نسيم النهر . وكانت طيور غريبة من الصين واليابان ، وحيوانات متوحّشة قادمة من أعماق الجبال قد تجمّعت فجعل الجميع يراقبونها ، في حين كان جمع من مختلف الطبقات يتناولون الطعام على ضفاف النهر . . . . »

في صيف ١٦٩٠ زار « باشو »[1] تلك الأماكن وكتب أيضاً : « إنما ينبغي الاستمتاع برطوبة المساء ابتداءً من مغيب الشمس حتى شعاعات الفجر الأولى ، وبشرب « الساكي » . ان النساء يعقدن أحزمتهن عقداً فخماً ، ويرتدي الرجال ثوبهم « الهاوري »[2] ، ويختلط بالجمع رهبان وعجائز ، بل حتى صنّاع البراميل الشبّان او حدّادون يغنّون بأعلى أصواتهم . مشهد حقيقي للعاصمة !

نسيم النهر
وكيمونو خفيف أشقر على الظهر
رطوبة المساء .

وكانت ألوان مختلفة من العجائب مبسوطة على ضفاف النهر ، مسارح صغيرة ذات فوانيس من ورق ، ومصابيح زيتية ونيران احتفالية تلتمع كأنها في وضح النهار . » وحوالي نهاية عصر « ميجي »[3] برزت لعبة الخيل الخشبيّة الأولى ، وفي بدء عهد « تايشو »[4] بدأ تسيير القطارات باتجاه اوساكا

---

(١) باشو ماتوسويو (١٦٤٣ ـ ١٦٩٤) شاعر مشهور ، مؤلف « هايكو » .

(٢) الهاوري : ثوب خارجي واسع وقصير يُرتدى فوق الكيمونو .

(٣) عصر ميجي : ١٨٦٨ ـ ١٩١٢ .

(٤) عهد تايشو : ١٩١٢ ـ ١٩٢٦ .

على الضفة الشرقية لنهر كامو ، بعد أن وسّع مجراه . والآن ، وحدها سطائح كامي ـ كياماشي ، وبونتو ـ شو ، وشيمو ـ كياماشي ، تخلّد في عيني اوتوكو ذكرى الأحداث التي كانت تجري فيها . وكانت الكتب تذكرها « قبعات ممثلي كابوكي الأرجوانية الغامقة تتطاير على هواء النهر ، وأولئك الشبان الجميلون الذين يخيفهم ضوء القمر الباهر يتروّحون بأناقة حتى أن . . . . » إن صورة هؤلاء الممثلين الشبّان في ضوء القمر ، وأطيافهم المثيرة للاضطراب وهم يختلطون بالجمع ، كانت غالباً ما تخطر في بال أوتوكو .

في المرة الأولى التي رأت فيها أوتوكو كايكو ، كانت قد وجدت بعض الشبه بين الفتاة الصبية وممثلي كابوكي هؤلاء .

والآن أيضاً ، كانت أوتوكو ، وهي جالسة على سطيحة دار أوفوزا للشاي ، تتذكر تلك الأزمان المنقضية . كان لا بد لممثلي كابوكو هؤلاء ان يُظهروا قدراً من الأنوثة ومن الجمال أكبر من كايكو بحركاتها الشبيهة بحركات الصبيان . ومرة أخرى ، قالت أوتوكو في نفسها إنه بفضلها حقاً أصبحت كايكو في آخر المطاف الفتاة الفاتنة التي هي الآن . وقالت :

ـ كايكو ، هل تتذكرين اليوم الذي جئت فيه إليّ للمرة الأولى ؟

ـ لا نتحدث في ذلك بعد ، يا اوتوكو .

ـ لقد خيّل اليّ أني أرى شبحاً يدخل !

التقطت كايكو يد أوتوكو فأدخلت بنصرها في فمها وعضّته ونظرت الى صديقتها خلسة . ثم تمتمت : « كان ذلك

في أمسية ربيعية ، وكانت ضبابة خفيفة مزرقّة تغطّي الحديقة . . وكنت تبدين وكأنك تطفين في الضبابة . . . » .

كانت هذه هي كلمات أوتوكو بالذات . كانت قد قالت لها إنها بسبب الضباب الذي كان يغطي الحديقة ، ظنّت أنها ترى شبحاً . ولم تكن كايكو قد نسيت هذه الكلمات ، وها هي ذي تتمتم بها بدورها .

ولقد تذكرت كلتاهما ، بضع مرات ، هذه الكلمات . وكانت كايكو تعرف ، بفطنة ، أن أوتوكو كانت غالباً ما تؤاخذ نفسها على تعلّقها بتلميذتها الشابة ، بالرغم من أن سحراً ملتبساً قد وُلد ، في نهاية الأمر ، من هذا التعلّق نفسه .

في دار الشاي المجاورة ، عند زوايا السطيحة الأربع ، كانت قد نُصبت فوانيس من ورق أقيمت على حوامل . كانت « غايشا » واثنان من « المايكو » جالسين هناك ، بصحبة زبون ضخم الجسم أصلع ، بالرغم من أنه لم يكن متقدّماً في السنّ . كان الرجل ينظر الى النهر ويهزّ رأسه موافقاً ، بالرغم من شرود ذهنه ، على كلام «المايكو». أتراه كان ينتظر رفيقاً أم هبوط الليل ؟ كانت الفوانيس قد أضيئت في وقت مبكر ، ولكن السماء كانت لا تزال مضيئة ، فكانت الفوانيس تبدو بلا جدوى .

كانت السطيحة المجاورة شديدة القرب من السطيحة التي تجلس عليها كايكو واوتوكو ، حتى انهما كان يكفيهما ان يمدّا ذراعيهما حتى يلمساها . وكانت السطائح التي تشرف على النهر قد بُنيت بحيث تبرز ، ولم تكن مفصولة بعضها عن

بعض بستائر . وكان بوسع الصديقتين ان تريا ، ليس فقطما كان يجـري الى جانبهما ، بل كذلك تحتهما . وكان تتابـع السطائح هذا يفاقم الإحساس بالرطوبة على حافة النهر .

ومن غير ان تهتمّ كايكو أدنى اهتمام بأن يراهـا الزبائـن المجاورون ، عضّت بقـوّة بنُصرَ اوتـوكو . وأحسّـت أوتـوكو الوجـع في بطنهـا ، ولكنهـا لم تسحـب اصبعهـا ولـم تنبس بكلمة . وكان لسان كايكو يداعب طرف البنصر . ثم نزعته الفتاة من فمها وقالت :

- ليس هو مالحاً على الاطـلاق . ذلك انـك كنـت قد تحمّمت .

وهدأ غضـبَ اوتوكو المنظرُ الرحب الذي كان يضمّ نهر كامو وتلال « الشرق » في الجانب الآخر من المدينة . وبقدر ما كانت تستردّ هدوءهـا ، أخـذت تفـكر بأنـه ربمـا ، بسبـب غلطتهـا ، كانـت كايكو قد قضـت الليل مع أوكي في ذلك الفندق بأنوشيا .

كانـت كايكو قد أنهـت لتوِّهـا دروسهـا الثانـوية حـين حضرت الى منزل اوتوكو . وكانت قد صرّحت لها بأنها سبق أن رأت بعض أعمالها في أثناء معرض أقيم في طوكيو ، كما رأت صورتها في إحدى المجلات فوقعت في حبّها على الفور .

في ذلك العام ، كان معرض قد أقيم في طوكيو فأحرزت احدى لوحـات اوتـوكو نجاحـاً كبـيراً لدى الجمهـور ونالـت جائزة .

وكانت اوتوكو قد استوحت صورة مأخـوذة عام ١٨٧٧

من « أوكايو » عاهرة جيون المشهورة ، لرسم فتاتين « مايكو » تلعبان « الكان»[1] . كانت صورة مزيّفة تُظهر صورة مزدوجة لاوكايو . كانت الفتاتان الشابتان ترتديان ثياباً متشابهة . وكانت إحداهما مواجهة ، وأصابع يديها متباعدة ، بينما الأخرى مجانبة ، مشدودة القبضتين . وقد وجدت اوتوكو وضع الأيدي مثيراً للاهتمام ، وكذلك وضع الجسمين وتعابير الوجهين . كان إبهام فتاة « المايكو » اليمنى متباعداً كل التباعد عن السبّابة وسائر الأصابع الملتوية الى الوراء . وكانت أوتوكو قد أحبّت كذلك الثوبَ المطبَّع على طراز أوكايو القديم (بالرغم من أنها تجهل ألوانها باعتبار أن الصورة كانت بالأسود والأبيض) . كانت الفتاتان جالستين الى جانبيْ موقد خشبي مربّع كانت معلّقة فوقه مغلاة من الصُّلب . وكان ثمة كذلك زجاجة « ساكي » ، ولكن اوتوكو كانت قد حذفت هذه الأشياء معتبرة إياها مبتذلة وزائدة . وكانت قد رسمت بالطبع الفتاة المزدوجة التي تلعب «بالكان». كانت تقصد إلى إعطاء الاحساس الفريد بأن فتاتي المايكو لم تكونا في الواقع الا فتاة واحدة او أنهما لم تكونا لا واحدة ولا اثنتين . وكان هذا بالفعل الأثر المطلوب على الصورة القديمة المزيّفة . والحق أن أوتوكو ، لكي تتجنّب ان يكون رسمها تافهاً ، كانت قد بذلت كثيراً من الجهد للتعبير عن معاني الوجهين . وقد تكشّفت الملابس التي كانت تظهر على الصورة فضفاضة اكثر مما

---

(١) « الكان » (نوع من لعبة الأصابع اليابانية) : لعبة يقوم المشاركون فيها بحركات مناسبة للكلمات التي يُنطق بها .

ينبغي ، عن كونها عونـاً ثميناً بإخراج الأيدي الأربع على نحوٍ حيّ . ولـم تكن أوتوكو قد نسخت الصورة تماماً ؛ ومع ذلك فكثيرون في كيوتو هم الذين قد تعرّفـوا ، ولا بدّ ، على أثـرٍ مستوحى من صورة مزيّفة لعاهرة مشهورة سابقاً .

وذات يوم ، قَدِم تاجر لوحات من طوكيو ، كان يهتـم بـرسـوم العاهرات ، فقابل اوتوكو واقترح عليها أن تعرض في طوكيو بعض لوحاتها ذات القياسات الأصغـر . وفي تلك الحقبة ، شاهدت كايكو لوحات اوتوكو التي لم يكن قد سبق لها قط ان سمعت عنها .

ولا شك في أن مجلة اسبوعية قد اهتمت بأوتوكو بسبب ذيوع شهرة هذا الرسم ، في كيوتو واوساكا ، الذي يمثّل فتاتيْ « المايكو » . وربما كان ايضاً بسبب جمال الرسّامة الشابّـة!؟ وكان مصوّر وصحفيّ من تلك المجلة قد أخذاهـا الى أمكنـة كثيرة في كيوتو وصوّراها بلا انقطاع . والواقع أن اوتوكو هي التي قادتهما بالأحرى الى الأمكنة التي كانت تحبّ التنزّه فيها . وهكذا كُـرِّس لها مقالٌ نُشرِ على ثلاث صفحـات من القياس الكبير. وكانت تُرى فيه نسخةمن رسم الفتاتين وصورة كبيرة لأوتوكو ، ولكن جميع الصور تقريباً كانت مناظر لكيوتـو كان حضور اوتوكو يضفي عليهـا معنـى . فهـل أراد الصـحفيان خصوصاً ان تقودهما فنّانة تسكن في كيوتو لتصوير مناظر بديعة لم تعرف من قبل ؟ لقـد أحسّـت اوتـوكو بانزعـاج شديد اذ اكتشفت بأنها استُغلّت على ذلك النحـو ، وبـأن الصفحـات الثلاث التي كرّست لها لم تكن بالفعـل الاّ صور مناظـر كان

الجمهور يجهلها .

أما كايكو ، التي لم يسبق لها قط ان كانت في كيوتو وكانت تجهل ان سحر العاصمة القديمة كان مبسوطاً تحت ناظريها ، فهي لم تكن قد رأت إلا جمال اوتوكو ، وكان هذا الجمال قد فتنها .

وهكذا ظهرت كايكو لاوتوكو ، مسربلة بضباب أزرق شاحب ، وابتهلت اليها أن تستبقيها معها وتعلّمها الرسم . وقد خيِّل لأوتوكو أنها تكتشف نوعاًمن النَهم في الابتهال الذي وجهته اليها الفتاة الصبية . ثم فجأة ، ضمّتها كايكو بين ذراعيها ، وهي تنبض بالرغبة .

وقالت لها أوتوكو : ـ هل أهلك موافقون ، على الأقل ؟ اذا لم يكونوا موافقين فلا أستطيع أن أعطيك جواباً .

فأجابت كايكو : ـ لقد مات أهلي . إنني وحدي أرتّب حياتي .

ومن جديد ، رمتها اوتوكو بنظرة مرتابة :

ـ أليس لك عمّ ولا عمة ، ولا أخوة ولا أخوات ؟

ـ إنني عبء على أخي الأكبر وزوجته . والآن وقد رُزقا ولداً ، فأنا أشدّ إزعاجاً لهما .

ـ ولكن لِمَ ذلك ؟

ـ إنني اذوب حناناً ورقة إزاء طفلهما ، ولكن طريقتي في تدليله لا تروق لهما .

بعد بضعة أيام من إقامة كايكو لدى اوتوكو ، تلقّت هذه الأخيرة رسالة من شقيق الفتاة . كان يطلب اليها فيها أن تحتفظ

بشقيقته على مقربة منها ، بالرغم من أن هذه غالباً ما تتصرّف بطريقة غير مسؤولة ، ولا تتبع إلاّ أهواءها ولا تصلح حتى أن تكون خادمة في منزل . وقد أرسل كذلك ملابس أخته وسائر أمتعتها . واذ رأتها اوتوكو ، شعرت بأنها امتعة أسرة ميسورة .

بعد مدة من بدء إقامتهما المشتركة ، ادركت اوتوكو لماذا كانت الطريقة التي تدلّل بها كايكو الطفل لا تروق شقيقها ولا زوجته الشابة . فالحق أن سلوكها كان فيه ما يثير الاستغراب .

كان ذلك بعد أسبوع من اقامة كايكو لدى اوتوكو . وكانت الفتاة قد ألحّت على اوتوكو ان تسرّح لها شعرها على النحو الذي يروقها . وفيما كانت أوتوكو تملّس لها شعرها ، شدّت أكثر مما ينبغي ، خصلة منه على غير ارادة منها . فقالت لها ، كايكو :

ـ يا آنسة اويونو ، شدّي بأقوى من ذلك . اقبضي على شعري بحيث أبدو وكأنني معلّقة به . .

سحبت اوتوكو يدها . فالتفتت اليها كايكو وضغطت بشفتيها وأسنانها على ظاهر يدها ، ثم قالت :

ـ يا آنسة اويونو ، كم كان عمرك عند قبلتك الأولى ؟

ـ أي سؤال سخيف !

ـ أما أنا ، فكان عمري أربع سنوات . وإني أتذكّر ذلك جيداً . كان خالاً بعيداً لي من جهة أمي ، وكان في حوالي الثلاثين آنذاك ، وكنت أحبّه كثيراً . كان جالساً وحده في غرفة

الاستقبال ، فاقتربت منه وأنا أتقافز وقبّلته . وقد بلغ من ذعره أنه مسح شفتيه بيده .

على تلك السطيحة المشرفة على نهر « كامو » تذكّرت أوتوكو حكاية تلك القبلة الطفولية . ذلك الفم الذي كان ، وهو في الرابعة من العمر ، قد قبّل رجلاً ، كان الآن ملكها ، وقد التقط بين شفتيه لتوّه بنصرها .

- أوتوكو ، هل تذكرين ذلك المطر الربيعيّ ، في المرة الأولى التي أخذتني فيها الى جبل « أراشي » ؟

- طبعاً ، يا كايكو .

- والمرأة العجوز التي كانت تبيع الإطريّة[1] ؟

بعد يومين أو ثلاثة من وصول كايكو ، كانت أوتوكو قد صحبتها لزيارة « الجناح الذهبي » ، « الريوان - جي » وانتهت بجبل اراشي . وكانتا قد دلفتا الى مطعم صغير كان يقدّم فيه اطرية القمح ، على حافة النهر ، غير بعيد عن « توجاتسو » وكانت صاحبة المطعم قد تذمّرت من المطر ، فأجابت اوتوكو : « أحب المطر كثيراً . انه مطر ربيعي جميل » .

قالت صاحبة المطعم بتهذيب ، وهي تنحني قليلاً :

- أوه ، شكراً جداً يا سيدتي .

ونظرت كايكو الى اوتوكو هامسة لها : « أهي تشكرك بصدد الجوّ ؟ »

---

(١) معكرونة شريطية .

ـ ماذا ؟

كان جواب المرأة العجوز قد بدا طبيعياً لأوتوكو ، فلم تُعِرْه أهمية كبيرة .

ـ أعتقد ان نعم . . . بصدد الجوّ . .

فأضافت كايكو : ـ هذا ما يثير الاهتمام . من الممتع حقاً شكر شخصٍ باسم الجوّ . هكذا يفعلون في كيوتو ؟

ـ ربما .

والواقع انه كان ممكناً تفسير جواب المرأة العجوز على هذا النحو . ولا شك في انه كان علامة تأدب تجاه متنزّهتين رأتا جبل أراشي تحت المطر . ومع ذلك ، فليس هو الأدب الذي كان قد دفع اوتوكو للإجابة بأن المطر لم يكن يزعجها إطلاقاً . فالحقيقة أنها كانت تجد سحراً ما لهذا المطر الربيعي الهاطل على جبل أراشي ، ومن أجل هذا شكرتها المرأة العجوز . كان يبدو أنها تتكلم باسم الجوّ او باسم جبل اراشي تحت المطر . إنه بالاجمال ردّ فعل طبيعي من جانب من يمتلك مطعماً في ذلك المكان ، ولكنه بدا رد فعل فريداً لعيني كايكو .

قالت كايكو : ـ انه لذيذ ، أليس كذلك ؟ إنني أحبّ كثيراً هذا المطعم الصغير .

وكان سائق السيارة العمومية هو الذي دلّهما عليه . وكانت أوتوكو ، بسبب المطر ، قد استأجرت سيارة لنصف نهار .

وبالرغم من أنه كان موسم أشجار الكرز المزدهرة ، وبسبب المطر بلا ريب ، كان المتنزّهون على جبل أراشي قليلين

بشكل غريب . وكان ذلك ايضاً أحد الأسباب التي دعت أوتوكو للقول بأنها « تحبّ المطر » . فقد كان هذا المطر يمحو استدارات الجبال حول النهر ، ويرقّقها ويجمّلها . وحين خرجت أوتوكو وكايكو من المطعم متجهتين الى السيارة التي كانت تنتظرهما ، لم تكن بهما حاجة حتى لفتح مظلّتهما ، لأن المطر كان يرذّ رذاذاً حتى أن ملابسهما لم تكد تبتلّ . وكانت قطرات المطر ما تكاد تهطل على صفحة النهر حتى تزول من غير ان تترك أي أثر . وعلى الجبل ، كانت أشجار الكرز تمتزج بخضرة النباتات الغضّة ، وكانت ألوان البراعم النضرة على الأشجار ترقّ تحت المطر .

لم يكن جبل أراشي هو الوحيد الذي ينبعث منه السحر تحت مطر الربيع . فلم يكن « معبد الأعشاب » ولا « الريوان ـ جي » خاليين من هذا السحر . وكانت زهرة كاميليا حمراء في حديقة « معبد الأعشاب » قد سقطت على العشب الرطب النابض الخضرة ، المزروع بـ « اندروميّات »[1] صغيرة بيض . وكانت الكاميليا تُدير تُويجها الى أعلى ، كما لو أنها أزهرت على العشب . وفي حديقة « الريوان ـ جي » كانت الأحجار التي بلّلها المطر تتمرّى كلٌّ على طريقته .

قالت أوتوكو : ـ حين يستعمل المرء إناء من سيراميك « ايغا » في أثناء احتفال الشاي ، يبدأ أولاً ببلّة . ويكون الأثر

---

(١) الأندرومية : نبات عشبيّ سامّ منوّم .

أشبه بأثر هذه الأحجار .

ولكن كايكو لم يكن قد سبق لها قط ان رأت إناء من سيراميك ايغا . ولم تكن قد استشعرت أي إحساس خاص أمام تمرّي الأحجار .

ولكن ما إن نبّهتها اوتوكو الى ذلك ، حتى دهشت كايكو لقطرات المطر المعلّقة بالصنوبر طوال الطريق التي تفضي الى باحة المعبد . كانت قطرة من مطر تتلألأ في طرف كل إبرة ، على جميع أغصان الشجر . وكانت إبر الصنوبر تشبه سيقاناً تفتّحت عليها أزهارٌ من ندى . وكانت هذه الأزهار الدقيقة ، المتفتّحة تحت مطر الربيع ، غالباً ما تفوت الانتباه . وكانت أزهار القيقب التي لم تتفتح بعد أكمامها، متلألئة هي أيضاً بقطرات المطر .

لم تكن قطرات المطر الصغيرة المعلّقة بإبر الصنوبر ظاهرة نادرة ، فقد كان بالامكان ملاحظتُها في كل مكان ، ولكنها كانت في عيني كايكو مشهداً جديداً لا ينتمي في رأيها إلاّ الى كيوتو . وتلك القطرات من المطر المعلّقة بإبر الصنوبر ومجاملة صاحبة مطعم الإطريّة كانت هي انطباعاتها الأولى عن كيوتو . إنها لم تكن فحسب تكتشف المدينة ، بل كانت تكتشفها بصحبة اوتوكو .

« قالت كايكو :

ـ ماذا لو سألنا عن صاحبة المطعم ، كيف حالها ؟ اننا لم نرجع منذ ذلك الحين الى جبل أراشي .

ـ هذا صحيح . إني أرى ان جبل أراشي هو أجمل ما

يكون في الشتاء . . . حين تأخذ فجوات الماء في النهر ذلك الطابع الشديد البرودة . . . عند ذلك ، نعود اليها .

ـ هل ينبغي اذن أن ننتظر الشتاء ؟

ـ إنه سيحلّ عما قريب .

ـ على الاطلاق ! نحن لسنا بعد إلا في قلب الصيف ، ثم يأتي الخريف بعد ذلك . . .

قالت اوتوكو ضاحكة : ـ نستطيع ان نذهب اليه في أي وقت . حتى غداً . . .

ـ حسناً ! فلنذهب اليه غداً ! سأقول لصاحبة المطعم إنني أحب جبل أراشي في الصيف ، وهي ستشكرني على الأرجح . باسم الصيف !

ـ وباسم جبل اراشي ! »

نظرت كايكو الى النهر وقالت :

ـ أوتوكو ، لا يبدو لي ان ثمة في الشتاء ازواجاً يتنزهون هكذا على ضفاف النهر ؟

والواقع ان شباناً كانوا يتنزهون بعدد وافر ليس على ضفاف النهر ، بل على الرصيفين المقامين بين نهري ميزوروجي وكامو ، وبين هذا الأخير وقناة الشرق . . وكان معظمهم من العشّاق ، ونادرين كانوا الأزواج المصحوبين بأولادهم . كان عشّاق شبان يسيرون متخاصرين أو يجلسون جنباً الى جنب على حافة الماء . وكان عددهم يتكاثر مع هبوط الغسق .

قالت اوتوكو : ـ البرد هنا في الشتاء أشدّ من ان

يحتمل .

ـ إنني أتساءل اذا كان سيبقى حتى الشتاء ؟

ـ ما هو ؟

ـ حبّهم . . . من المؤكد أن كثيرين من هؤلاء العشّاق لن تكون لهم رغبة ، حين يأتي الشتاء ، في أن يرى بعضهم بعضا .

سألتها أوتوكو : ـ هكذا اذن تفكّرين ؟

فأومأت كايكو ايجاباً ، فاستطردت اوتوكو :

ـ لماذا ينبغي لك أن تفكّري بهذا النوع من الأمور ؟

ـ لأنني لست في مثل حماقتك ، أنت التي تمضين منذ عشرين عاماً في حبّ رجل لم يُصبك منه إلاّ الشرّ !

فلم تجب اوتوكو .

ـ ألا تدركين ابداً ، يا أوتوكو ، أن اوكي قد تخلّى عنك ؟

ـ كفّي عن أن تحدّثيني بهذه اللهجة !

واذ كانت تصرف وجهها ، بسطت كايكو يدها لتسوّي خصلة مجنونة على رقبة صديقتها .

ـ أوتوكو ، لماذا لا تتخلّين عنّي ؟

ـ ماذا تقولين ؟

ـ إنني الكائن الوحيد في العالم الذي تستطيعين تركه . فافعلي ذلك . . .

ـ إنني أتساءل عن أي شيء تتحدّثين ؟

وبدت اوتوكو وكأنها تستبعد السؤال ، ولكن عينيها

كانتا مسمّرتين في عينيْ الفتاة ، ثم سوّت بدورها الخصلات التي كانت كايكو قد نظمتها .

استطردت كايكو باصرار ، وهي تحدد نظرها في عيني اوتوكو :

- أريد أن أتكلّم عن الطريقة التي تركك بها السيد أوكي . ولكن يبدو انك لم تريدي قط الاعتراف بذلك . . .

- « تَركَ ، تُرِك . . » انني لا أحب هذه الكلمات !

- الأفضل ان يكون المرء واضحاً .

وكان في عيني كايكو شعاع غريب وهي تضيف :

- كيف تعبّرين عن الأمر ؟

- لقد انفصلنا .

- ولكن هذا زائف ! انه ، حتى الآن ، فيك ، كما أنك فيه . . .

- إلامَ تقصدين ، يا كايكو ؟ انني لا أفهمك .

- أوتوكو . . لقد ظننت اليوم أنك ستتركينني .

- ولكن ، الم أعترف هذه الساعة ، في البيت ، أنني كنت على خطأ ؟ ألم اعتذر ؟

- بل « أنا » التي اعتذرت .

كانت أوتوكو قد اصطحبت الفتاة لتناول العشاء في « كياماشي » على سبيل التصالح ، ولكن هل كان بوسعهما أن تتصالحا أبداً ؟ ان كايكو لم يكن في طبعها ان تكتفي بحبّ هادىء ، كانت تعاند أوتوكو وتتنازع معها بل كانت تقطّب وتحرد . وكانت أوتوكو قد شعرت بأنها جُرحت حين اعترفت

لها الفتاة بأنها كانت قد قضت الليل في انوشيما مع أوكي . وكايكو التي كانت شديدة التعلّق بها ، تنتصب الآن ضدّها . كانت قد ادّعت أنها من أجل اوتوكو تسعى للانتقام . وبالإضافة الى ذلك ، فقد استفظعت وداخلها اليأس ان تفكّر بأن أوكي لم يتردّد في إغواء تلميذتها ، في حين أنه كان يسيراً عليه أن يفعل ذلك مع نساء أخريات . وسألتها كايكو من جديد :

ـ أوتوكو ، إنك لن تتركيني ؟

ـ اذا كنت حريصة هذا الحرص كلّه على ذلك ، فسأفعل ! وسيكون ذلك أفضل ما يحدث لك .

ـ كفى ! إنني أكره ان تكلميني على هذا النحو ! (وهزّت كايكو رأسها) إنني لم أكن افكّر بنفسي اذ أقول ذلك . ليتك تحتفظين بي معك . . .

ـ من الأفضل لكِ أن ننفصل .

كانت أوتوكو تجهد في أن تتكلّم بهدوء .

ـ هل أصبحت بعيدة عني ، في قلبك ؟

ـ لا ، بالتأكيد !

ـ يا للفرحة ! ما كان أشقاني لدى التفكير بأنك قد تتركينني .

ـ ولكن ألم تكن هذه فكرتك ؟

ـ فكرتي ؟ أكنت تظنّين أنني سأتركك ؟

فلم تجب اوتوكو . وقالت كايكو بحدّة :

ـ لن أتركك أبداً !
والتقطت يد أوتوكو ، ومن جديد عضّت لها بنصرها .
ـ انك توجعينني !
وتراجعت اوتوكو وهي تسحب إصبعها . وكررت :
ـ انك توجعينني !
ـ اذا عضضتك ، فهذا يعني أني أريد إيجاعك !

وجلبوا لهما الطعام . وفيما كانت الخادمة تصفّ الأطباق ، انفتلت كايكو جانباً ، بغير أدب ، ومكثت تتأمل حزمة من الأضواء على جبل « هياي » . وتبادلت اوتوكو بضع كلمات مع الخادمة ، واضعة إحدى يديها على الأخرى . كانت تخشى ان تكون آثار أسنان كايكو ظاهرة .

وحين ابتعدت الخادمة ، قطعت كايكو ، بواسطة قضبانها ، قطعة من السمك في حسائها وحملتها الى فمها ، ثم قالت وقد خفضت رأسها :

ـ ومع ذلك ، كان ينبغي يا أوتوكو ان تتركيني .
ـ أنت عنيدة ، كما ترين .
ـ إنني من نوع الفتيات اللواتي يتركهن عشّاقهن . أنت تجدينني عنيدة ، يا أوتوكو ؟

لم تجب أوتوكو . واستولى عليها شعور بالذنب أحسّته مراراً وكان يبدو أنه يخترقها كالإبرة ، فيما كانت تتساءل اذا كانت النساء يظهرن فيما بينهنّ أشد عناداً منهن تجاه الرجال . ولم يكن بنصرها الذي عضّته كايكو يوجعها بعد ، ومع ذلك كان لديها إحساس كما لو أن إبرة غُرزت فيه . أتراها هي التي

كانت قد علّمت الفتاة أن توجعها ؟

ذات يوم ، بعد فترة من إقامتها عند أوتوكو ، سارعت كايكو التـي كانـت تقلي بعض المآكل في المطبـخ تقـول لصديقتها :

ـ أوتوكو ، لقد طرطش الزيت . . .

ـ هل أحرقت نفسك ؟

قالت كايكو وهي تُريها يدها :

ـ إنه يلذع !

كان طرف أحد أصابعها محمراً . وتناولت أوتوكو يدها قائلة :

ـ انه لا يبدو شريراً !

ودسّت اصبـع الفتـاة في فمهـا . وإذ شعـرت اوتـوكو بلمس لسانها للإصبع ، سارعت تسحبه . ووضعـت كايكو اصبعها ، بدورها ، في فمها وهي تسألها :

ـ هل ينبغي ان ألحسه ، يا أوتوكو ؟

ـ والقَـلْـيُ ، يا كايكو ؟

ـ صحيح ! لقد نسيته .

وهرعت الفتاة الى المطبخ .

وذات ليل ـ متى حدث ذلك ـ كانت أوتوكو قد أمرّت شفتيها على أجفان الفتاة المغمضـة ، وعضعضـت ودغدغـت أذنيها حتـى انتهـى بهـا الأمـر الى الأنـين والى التشنُّـج تحـت المداعبـات . وكان ردّ الفعـل نفسـه هو ما حفـز اوتـوكو الى الاستمرار .

وكانت أوتوكو تتذكر أن أوكي كان في الماضي قد تصرّف معها بالطريقة نفسها . ولا شك في أنه ، بسبب صغر سنّها بالذات ، لم يكن يحسّ أي عجلة لتقبيلها في فمها . وفيما كان يقبّل جبينها وأجفانها وخدّيها ، كانت أوتوكو تسترخي وتستسلم . وكانت كايكو أكبر بسنتين أو ثلاث مما كانت هي نفسها آنذاك ، وكانتا كلتاهما من الجنس نفسه ، ولكن الفتاة الصبيّة كانت تستجيب للمداعبات بقوة أكبر مما فعلت أوتوكو سابقاً .

ومع ذلك ، فقد كانت أوتوكو تحسّ بالذنب ان تكرّر مع كايكو مداعبات أوكي ، ولكن تلك الفكرة كانت تجعلها ، في الوقت نفسه ، ترتعش بحميّا جديدة .

« دعيني ، يا أوتوكو ! هذا يكفي ! » هكذا قالت كايكو وهي تقبع بلصقها ، وصدرها العاري يلامس صدر صديقتها . « أليس لنا الجسدُ نفسه ؟ » .

وكانت أوتوكو قد تراجعت فجأة . غير أن كايكو تشبّثت بها أكثر . . . « هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ ان لنا الجسد نفسه ، يا أوتوكو ! » .

وكانت أوتوكو قد تساءلت اذا كانت الفتاة عذراء . كانت أفكار كايكو ، التي لم تكن قد تعوّدت عليها بعد ، تأخذها دائماً على حين غرّة .

« إننا مختلفتان» ، هكذا تمتمت اوتوكو بينما كانت يد كايكو تبحث عن نهديها . ولم يكن في هذه الحركة أي خجل ، لا شيء إلاّ بعض ارتباك في الأصابع وفي راحة اليد .

قالت أوتوكو وهي تلتقط يد كايكو : « ينبغي ألاّ تفعلي ذلك ! » .

- انك ، يا اوتوكو ، مخادعة ! »

وأصبحت أصابع كايكو أشدّ إحكاماً .

قبل عشرين سنة ، حين كان أوكي يداعب صدرها ، قالت له أوتوكو :

« لا تفعل ذلك ، من فضلك ! » وكان أوكي ، في « فتاة في السادسة عشرة » ، قد استعمل هذه الكلمات نفسها . وما كان لأوتوكو بالتأكيد ان تنساها ، ولكن كان قد خيّل اليها ، اذ قرأتها هكذا في الرواية ، انها كانت قد أصبحت خالدة .

وها أن كايكو ، بدورها ، تقول الشيء نفسه . أكان ذلك لأنها كانت قد قرأت « فتاة في السادسة عشرة » ؟ أم تراها كانت الكلمات نفسها التي ستنطق بها كل فتاة في الوضع نفسه ؟

وفي الرواية ، كان ثمة كذلك وصف لنهديْ اوتوكو الصغيرين . وكان أوكي قد كتب انه كان يستشعر ، وهو يداعبهما ، سعادة نادرة شبيهة بنعمة من السماء .

وإذ لم يسبق لأوتوكو أن أرضعت أطفالاً قط ، فان حلمتيْ نهديها احتفظتا بلونهما الداكن . وبعد عشرين عاماً ، لم يكن هذا اللون قد تغيرّ . ولكن نهديها ، حوالي الثالثة والثلاثين أو الرابعة والثلاثين ، كانا قد بدأا يفقدان من رشاقتهما .

ولم يكن قد فات كايكو ، في الحمّام ، ان تلاحظ نهديْ صديقتها الصغيرين ، وقد تأكدت من ذلك فيما بعد اذ لامستهما . وكانت أوتوكو تتساءل اذا كانت ستخطر لها ، ذات يوم ، فكرة بهذا الشأن ، ولكن كايكو لم تكن تقول شيئاً . ولم تقل شيئاً كذلك حين أصبح نهدا أوتوكو ، استجابة لمداعباتها ، أكثر امتلاءً . وبالرغم من أن أوتوكو اعتبرت صمتها نصراً ، فان سلوك الفتاة لم يكن ، بسبب ذلك ، أقل غرابة .

وأحياناً ، كانت أوتوكو ترى في رشاقة نهديها شيئاًمَرضياً ومنْحرفاً ، وكانت تشعر من ذلك أحياناً بالخجل ، ولكن كانت تدهشها باستمرار التغيّرات التي كانت تنتاب جسمها عند اقتراب الأربعين . وهذه التغيُّرات كانت طبعاً مختلفة عن تلك التي كانت قد لاحظتها حين ألفت نفسها ، وهي في السابعة عشرة ، حاملاً .

ومنذ انفصالها عن أوكي ، لعشرين عاماً خلت ، لم يداعب نهديها أي رجل . وفي هذه الأثناء تبخّر شبابها وحظوظها في الزواج . وكانت يد امرأة ، كايكو ، هي التي داعبتهما من جديد .

بعد أن أقامت اوتوكو مع أمها في كيوتو ، أتيحت لها مناسبات عديدة للحبّ والزواج ، ولكنها لم تُلْق إليها بالاً . فما تكاد تدرك أن رجلاً يحبّها حتى تمثل لذهنها ذكرى أوكي بقوة وعنف . كانت أكثر من ذكرى ، كانت حقيقة . وحين انفصلت اوتوكو عن أوكي كانت تعتقد أنها لن تتزوّج بعدُ

أبداً . ولم تكن تنجح ، وهي في اضطرابها وألمها ، حتى في التفكير بالغد ، ولا بزواج بعيد ، من باب أولى . ولكن التصميم على ألا تتزوّج كان قد نبت في رأسها ولم تعد قط عن تصميمها .

وكانت أمها بالطبع تتمنى أن تتزوّج وكانت قد قصدت كيوتو لكي تُبعد أوتوكو عن أوكي ولتساعدها على استعادة هدوئها ، وليس بنيّة الإقامة فيها بشكل نهائيّ .

وكانت أمها تراقبها ، فيما هي تهتمُّ بمراعاتها . وحين بلغت اوتوكو العشرين ، حدثتها أمها للمرة الأولى عن الزواج . حدث ذلك في معبد « نامبوتسو » في « اراشينو » في قلب سهل « ساغا » ليلة عيد[2] الألف ضوء » .

كانت الأضرحة الصغيرة المحتوتة لأولئك « الذين لن يلبس عليهم الحداد أحد» مصفوفةً تلتمع أمامها «الأضواء الألف » الموضوعة على سبيل القرابين . وكانت عينا أم اوتوكو منداّتين بالدموع . وكانت الأضواء الضعيفة الملتمعة في الظلمات تزيد في شعور الحزن الذي كان ينبعث من النصب التذكارية . وظلّت اوتوكو على صمتها ، بالرغم من أنها لاحظت الدموع في عيني أمها .

كان الليل قد هبط اذ عادتا إلى البيت سالكتين درباً ريفية . وقالت ام اوتوكو :

- كم يبعث هذا على الحزن ! الا تحسّين بانك حزينة ، يا أوتوكو ؟

وكانت قد استعملت كلمة « حزين » مرتين ، ولكن

بمعنى مختلف ، في كل مرة . واذ ذاك أخذت تتحدث عن عرض بالزواج كان صديق من طوكيو قد عرّفها به .

قالت أوتوكو : ـ آسف ، يا أمي ، لا أستطيع ان أتزوّج .

ـ أنا لا أعرف امرأة لا تتزوّج .

ـ هناك ، مع هذا ، نساء كذلك .

ـ اذا لم تتزوّجي ، فسنكون ، انت وأنا ، جزءاً من أولئك « الذين لا يلبس الحداد عليهم أحد »

ـ انني لا أفهم عماّ تتكلّمين .

ـ إنهم المتوفّون الذين لا أسرة لهم تستطيع ان تصلّي من أجل راحة نفوسهم .

ـ هذا ، أعرفه . ولكن ماذا تقصدين بذلك ؟

وصمتت لحظة ، ثم استطردت : « أتقصدين ما بعد الموت ؟ »

ـ ليس ذلك فقط ، حتى المرأة الحيّة التي لا زوج لها ولا أولاد شبيهة بأولئك المتوفّين . تصوّري أني لم أُرزق بك ! انك ما زلت صغيرة ، ولكن . . . (وتردّدت لحظة) انت غالباً ترسمين وجه طفلك ، أليس كذلك ؟ هل تنوين ان تستمرّي مدة طويلة بعد ؟

فلم تجب أوتوكو .

وأطلعتها أمها على كل ما كانت تعرفه عن عرض الزواج . كان الأمر يتعلّق بموظّف في مصرف .

ـ اذا رغبت في رؤيته ، فنستطيع الذهاب الى طوكيو .

سألتها أوتوكو : - في رأيك ، ما الذي يقع تحت نظري وأنا أستمع اليك ؟

- هل ترين شيئاً ؟ ماذا ترين ؟

- قضباناً حديدية . أرى قضباناً حديدية على نوافذ مستشفى الأمراض العقلية ذاك !

التزمت أمها الصمت ، وقد انقطع نَفَسُها .

وفيما بعد ، تلقّت اوتوكو ، في أثناء حياة أمها ، طلبين أو ثلاثة للزواج . وكانت أمها تقول ، وهي تبدو كأنها تبتهل اليها أكثر مما تحذّرها وتسعى دائماً الى تزويجها :

- ما جدوى الاستمرار في التفكير بالسيد أوكي ؟ إنه لن يعرف من الأمور شيئاً وليس هناك ما تستطيعين أن تفعليه له . إن من يراك تنتظرين هكذا عبثاً هذا الرجل ، يقول بأنك تنتظرين الماضي . لا الزمن ولا الأنهار تعود أبداً الى الوراء .

وكانت أوتوكو قد أجابت : - إنني لا أنتظر شيئاً ولا أحداً .

- إنك لا تفعلين إلاّ ان تتذكّري . . . ؟ ألا تستطيعين أن تنسيه . . . ؟

- لا ، ليس الأمر كذلك .

- حقاً ؟ كنت لا تزالين صغيرة وساذجة جداً حين أغواك السيد أوكي ، ومن أجل هذا ، دون شك ، كان الجرح عميقاً الى هذا الحدّ وأثره بطيئاً على الامحّاء . لقد حقدتُ عليه لأنه بدا على هذا القدر من القسوة مع صبية مثلك ! »

لم تكن أوتوكو قد نسيت كلمات أمها . كانت تتساءل

اذا كانت بسبب سنّها الصغيرة وبراءتها قد استطاعت أن تعيش حباً مثل ذلك الحب . كان هذا ، بلا أدنى شك ، السبب الذي من أجله كانت ما تزال تعاني ذلك الشغف الأعمى . حين كانت تنتابها التشنُّجات فتعضّ كتف أوكي ، لم تكن حتى لتلاحظ أن الدم كان يسيل منها .

وبعد انفصال أوتوكو عن أوكي ومجيئها الى كيوتو ، أذهلها ان تقرأ في « فتاة في السادسة عشرة » ان أوكي ، اذ كان يعود للقائها ، كان يفكر طويلاً كل مرة بالطريقة التي سيضاجعها بها وأنه كان يتصرف عادة كما كان متفقاً عليه . وقد أذهلها ان تعلم على هذا النحو بأن قلبها كان يرتعش فرحاً بذلك المنظور . كان يستحيل على الفتاة الصبية الخاضعة والعادمة التجربة التي كانتها أوتوكو آنذاك أن تتصوّر أن رجلاً استطاع مقدّماً أن يتكهّن بالنظام الذي سيتبعه وبالطرق التي سيستعملها مع عشيقته . كانت أوتوكو تتقبّل كل شيء وتقوم بكل ما كان أوكي يطلبه منها . وكان شبابها نفسه يمنعها من أن تدهش لأي شيء . وكان أوكي قد صوّرها كفتاة صبية خارقة العادة ، امرأة بين جميع النساء ، وكان قد كتب أنه بفضلها كان قد آستنفد مختلف الطرق لفعل الحب .

حين قرأت أوتوكو ذلك المقطع ، أحسّت أنها تشتعل ذلاً . ومع ذلك ، فقد كانت ما تزال تحتفظ في عينيها بتعانقاتهما التي لم تكن تنجح في طردها من ذاكرتها . كان جسمها قد تصلّب وأخذت ترتجف . ثم مع عودة الهدوء التدريجي ، استولى على كيانها كلّه إحساس بالفرح والامتلاء . كان حبّها

السابق يعود الى الحياة .

وعلى الدرب المعتم ، اذ كانت عائدة من عيد « الأضواء الألف » في اراشينـو ، لم تكن فقط القضبان الحديدية لغرفتها ، غرفة المريضة ، التي برزت لعينيها . بل كانت ترى نفسها ايضاً بين ذراعي أوكي .

ولو أنه لم يُشر في روايته الى ذلك ، لكان من الأرجح أن ينتهي الأمر بأوتوكو ، بعد هذه السنوات الطويلة ، الى نسيان هذه الرؤية لأوكي وهو يضمّ جسدها .

وكانت اوتوكو قد امتقعت من الغضب والغيرة واليأس حين أوضحت لها كايكو أن أوكي ، في انوشيما ، قد بدا « عاجزاً عن الاستمرار » بعد أن نادت « أوتوكو ! أوتوكو ! » ولكن خيّل اليها ان أوكي ، هو ايضاً ، لا بدّ أن يكون قد تذكّرها في تلك اللحظة الدقيقة . حتى ولو لم يكن قدفكّر بها واعياً ، أترى صورة أوتوكو وهي بين ذراعيه لم تمثُل في ذهنه ؟

ومع مرور الأشهر والأعوام ، كانت رؤية تعانقاتهما قد تطهّرت تدريجياً في ذاكرة اوتوكو ، مارّة من الجسديّ الى الروحيّ . لم تكن أوتوكو الآن بريئة بعد ، ولم يكن أوكي كذلك . ولكن تعانقاتهما الماضية كانت في نظرها ، طاهرة طهارة كلّية . وتلك الذكرى ـ حلماً كانت أم واقعاً ـ كانت رؤية لحبّها مقدّسة ورفيعة .

وحين تذكرت أوتوكو الحركات التي كان أوكي قد علّمها إياها وحدث لها أن كرّرتها مع كايكو بالطريقة نفسها ، خشيت ان تتلطّخ تلك الرؤية المقدّسة او تختفي ، ولكن هذه

الرؤية لم تمحُ قط من ذهنها .

وكانت كايكو قد اعتادت ، حتى بحضور أوتوكو ، ان تدهن ساقيها وذراعيها وإبطيها بمعجون للنتف . وقد كانت تفعل ذلك طبعاً بالخفية ، في الأوقات الأولى من إقامتها عند أوتوكو . وإذا اتفق ان سألتها أوتوكو بصدد رائحة غريبة في الحمّام (ماذا كنت تفعلين ؟ هذه الرائحة الغريبة ، ما هي ؟) فقد كانت كايكو تمتنع عن الإجابة . ولم تكن أوتوكو قد اعتادت معاجين النتف ، لعدم حاجتها الى استعمالها . ذلك ان بشرتها لم تكن مغطّاة حتى بوبر ناعم .

وفي المرة الأولى التي فاجأت بها كايكو وهي تدهن ساقها الممدودة بالمعجون ، قطّبت اوتوكو حاجبيها دهشة :

ـ أية رائحة فظيعة ! ما هذا ؟

ثم حين رأت الوبر ينكشط حين كانت كايكو تمسح المعجون ، غطّت اوتوكو عينيها بيدها :

ـ ولكن هذا مقزّز ! توقّفي ! إن بدني يقشعرّ من هذا !

وقد كانت أوتوكو ترتعش بالفعل .

ـ هذا منفّر ! لماذا تفعلين هذا ؟

ـ ولكن جميع النساء يفعلن ذلك ، يا أوتوكو !

فكانت أوتوكو تصمت .

ـ الا يثير نفورك أكثر أن تلمسي بشرة مُشعرة ؟

وكانت اوتوكو تظلّ على صمتها .

ـ إنني امرأة ، بعد كل حساب . . .

وإنما كانت كايكو تزيل شعرها لتجد أوتوكو بشرتها

ناعمة الملمس . وبالرغم من أن صديقتها امرأة ، فان الفتاة الصبية كانت ترغب من أجلها هي أن تكون لها بشرة حريرية . وكانت اوتوكو تحسّ نفسها على ضيق شديد بسبب التقزّز الذي عانته وهي ترى الفتاة تزيل شعرها وبسبب الشغف الذي كانت تكشفه في كلماتها الواضحة . وحتى بعد ذهاب كايكو للاستحمام من أجل إزالة بقية المعجون ، كانت أوتوكو تعتقد أنها ما تزال تحسُّ رائحته الكريهة .

وحين عادت كايكو الى قرب اوتوكو ، قالت :

ـ المسي ، يا اوتوكو . إن بشرتي ناعمة تماماً .

ومدّت ساقها ورفعت أسفل ثوبها . وألقت اوتوكو نظرة مقتضبة على الساق البيضاء ، ولكنها لم تلمسها . أما كايكو ، فأخذت تلامس بيدها ساقها . ثم قالت وهي تنظر الى أوتوكو كما لو أن شيئاً كان يهمّها :

ـ لماذا ، يا أوتوكو ، هذه الهيئة المهمومة ؟

فتجنّبت أوتوكو النظر اليها ، ثم قالت :

ـ كايكو ، ابتداء من اليوم ، كفّي عن إزالة شعرك أمامي .

ـ لا أريد أن أخفي عنك شيئاً . فليس لديّ أسرار بالنسبة اليك .

ـ ولكن ما فائدة أن تُريني أشياء تنفّرني ؟

ـ إن ذلك لن ينفّرك عندما تألفينه . إنه يشبه قصّ أظافر القدم .

ـ إنه نقصٌ في الحشمة ان تُقصّ الأظافر أو تُخفّ أمام

الناس . إنك حين تقصّين أظافرك تدعينها تقفز . . . تدبّري أمرك لتجعلي من يديك وقاءً .

قالت كايكو موافقة : ـ طيّب .

ومع ذلك ، اذا امتنعت كايكو ، فيما بعد ، عن إزالة شعر ساقيها بحضور أوتوكو ، فهي لم تصنع شيئاً للاحتجاب عن نظرها . وخلافاً لما كانت كايكو تعتقد ، فان أوتوكو لم تتعوّد إطلاقاً ذلك المشهد . وكفّ المعجون عن أن يكون منفّراً كالسابق ، إما لأنه حُسِّن أو لأن كايكو غيّرته ، ولكن مظهر الفتاة وهي تنتف شعرها كان ما يزال يحدث لديها القشعريرة . لم تكن تحتمل رؤية وبر الساقين والإبطين وهو ينفصل عندما كانت كايكو تمسح المعجون تدريجياً . كانت تفضّل مغادرة الغرفة . ومع ذلك ، فمن أعماق نفورها نفسه ، كان ينبعث لهيب ويتلاشى ، ثم ينبعث من جديد . وكان هذا اللهيب من الصغر والابتعاد بحيث ان أوتوكو كانت لا تكاد تراه بعينيْ الفكر ، ولكنه كان من شدة الصفاء والهدوء بحيث انه كان يصعب ان يكتشف المرء فيه ظلاً من شهوة . وذلك اللهيب ، في هدوئه وصفائه نفسهما ، كان يذكّر أوتوكو بأوكي وبالفتاة التي كانتها لعشرين سنة خلت . وفكرة التماسّ بين النساء والاحساس ببشرة الفتاة على بشرتها الخاصة كانا في أصل التقزّز الذي كانت أوتوكو تشعر به وهي ترى كايكو تزيل شعرها . وقد أخذها الغثيان حتى قبل أن تستطيع شرح ذلك . ولكن ذكرى أوكي أتت تقضي بشكل فريد على شعور النفور هذا .

حين كانت أوتوكو تقوم بفعل الحب مع أوكي ، لم تكن

تفكر قط بالزغب الدقيق الذي كان تحت إبطها ، كما أنها لم تكن تهتمّ بمعرفة اذا كان اوكي ، بصفته رجلاً ، قليل الشعر او كثيره . أتكون قد فقدت آنذاك حسّ الحقائق ؟ إنها الآن أكثر ارتياحاً مع كايكو ، وقد بلغت حداً من النضج لم يكن غائباً عنه عيبٌ ما . وقد فاجأها ان تكتشف ، بفضل كايكو ، أنها ، بعد هذه السنوات الطوال من العزلة بعيداً عن أوكي ، قد نضجت مع ذلك بصفتها امرأة . وكانت أوتوكو تخشى ان تُدمِّر فجأة الرؤية المقدسة والمحفوظة بحرص شديد في أعماق قلبها ، رؤية حبّها لأوكي ، اذا أحبّت رجلاً آخر ، وليس كايكو .

كانت أوتوكو ، بعد انفصالها عن اوكي ، قد فوّتت انتحارها ، ولكنها كانت قد تمنّت دائماً أن تموت شابّة ، كانت تودّ لو تموت في آلام المخاض ، قبل انتحارها الفاشل وقبل أن يموت ولدها بدوره ، إذن لأفلتت من القضبان الحديدية لمستشفى الأمراض العقلية . وتلك الرغبة السريّة ، كانت مع مرور الشهور والأعوام ، قد لأمت الجرح الذي كان أوكي قد أحدثه لها .

« إنكِ أروعُ من أن أحتملك . إن حبّنا يمتّ الى الأعاجيب ، ولم أكن أعتقد بأنه يمكن كائناً بشرياً أن يعيش حبّاً مماثلاً . إن المرء ليتمنى أن يستطيع الموت بهذا الحبّ ! » إن أوتوكو لم تنس حتى اليوم كلمات أوكي الرقيقة . وقد كانت العبارات المشابهة كثيرة جداً في روايته ، ولم يكن يبدو أن للحوارات صلةً بعدُ لا بأوكي ولا بأوتوكو ، وأنها تعيش حياة

أبدية . صحيح أن عاشقيْ الماضي لم يكونا بعد ، ولكن كان لأوتوكو ، في أساها ، العزاء الحنّان أن ترى حبّها مخلّداً في عمل أدبي .

كانت أوتوكو تحتفظ بموسى ورثته عن أمها . وبالرغم من أنها لم تكن بحاجة اليه ، فقد كانت تستعمله أحياناً ، وكأن الذكرى تحركها ، في حلق الزغب الرقيق على رقبتها او على جبينها أو حول فمها .

وذات يوم ، حين رأت كايكو تبدأ في الادّهان بمعجون إزالة الشعر ، قالت فجأة وهي تأخذ الموسى من على طاولة التجميل :

ـ كايكو ، دعيني أحلق لك .

وحين رأت كايكو الموسى ، فقدت هدوءها وهربت وهي تصرخ : « لا ، يا اوتوكو! ليس هذا ! إنني أخاف ! » فجرت اوتوكو في إثرها .

ـ لا تخشيْ شيئاً ! عجباً ، دعيني أتصرّف !

تركتها كايكو تدركها من غير أن تبدي مقاومة ، وعادت على مضض الى طاولة التجميل . ولكن حين دهنت أوتوكو ذراعها بالصابون ووضعت عليها الموسى ، أخذت أصابع كايكو ترتجف قليلاً . ولم تكن أوتوكو تتكهّن بمثل ردّ الفعل هذا لدى الفتاة .

ـ لا تخافي ، ليس هناك أي خطر إذا احتفظت بذراعك جامدة . كفّي عن الارتجاف . . .

وكانت مخاوف كايكو وقلقها بالذات يثير اوتوكو . كان

ذلك إغراء . وقد تصلّب جسمها كما لو أن قوة جديدة كانت تنصبُّ في كتفيها .

ـ ما دمت خائفة ، فلن أحلق ما تحت إبطيك .. اما الوجه . . .

أجابت كايكو وهي تكتم أنفاسها : ـ انتظري قليلاً . دعي لي الوقت لأتنفّس .

وحلقت اوتوكو ما تحت حاجبي الفتاة وتحت شفتها السفلى . وحين باشرت حلق الزغب الرقيق على الجبين ، أغمضت كايكو عينيها . أدارت رأسها قليلاً الى الأعلى وأسندت رأسها على يد أوتوكو التي كانت تمسك برقبتها .

ولفت نظر أوتوكوعنق الفتاة الطويل الدقيق . كان رخصاً ، وجميلاً ورقيقاً ، مع أثرٍ من البراءة لم يكن يشبه كايكو ، وكان يتنفّس الشباب .

وكانت أوتوكو قد توقّفت في حركتها ، ففتحت الفتاة عينيها .

ـ ماذا جرى ، يا أوتوكو ؟

كانت أوتوكو قد فكّرت بغتة بأن كايكو ستموت اذا غرست الموسى في هذا العنق الفاتن . تكفي لحظة واحدة لتدركها في أجمل ما كانت تملك .

كانت أوتوكو تملك عنق فتاةٍ جميلاً ، بالرغم من أنه لم يكن في مثل جمال عنق كايكو . وذات يوم ، فيما كان أوكي يحيط عنقها بذراعيه قالت له : « إنك توجعني .. انت ستقتلني ! » واذ ذاك شدّد أوكي من ضمّته فأحسّت أوتوكو

بأنها تختنق .

فيما كانت تنظر الى عنق كايكو ، عاودها ذلك الشعور بالاختناق فدار رأسها .

وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي حلقت فيها للفتاة . وقد رفضت كايكو فيما بعد ، فلم تُلحّ اوتوكو . وحين كانت تفتح درج طاولة التجميل لتأخذ منها مشطاً أو شيئاً آخر ، كانت عينها تقع على الموسى . وكانت تتذكر آنذاك الأفكار الشاردة القاتلة . لو أنها قتلت كايكو لما استطاعت الاستمرار في العيش . وقد أصبحت الذبذبات القتليّة نوعاً من الكابوس المألوف . أتراها قد فوّتت مرة أخرى فرصة أن تموت ؟ وأدركت أن في رغبتها الخفيّة في القتل ، كان يختفي حبها القديم لأوكي . في تلك المرحلة لم تكن كايكو قد لقيت أوكي . لم تكن قد تدخّلت بعد في حبّهما .

ومنذ علمت أوتوكو أن الفتاة كانت قد قضت الليل في أنوشيما مع أوكي ، كانت نار غريبة تلتهمها . ومع ذلك ، فقد كانت ترى في ذلك اللهب الذي كان يتأكلها ، زهرة لوتس بيضاء تتفتّح . كان حبّها لأوكي زهرة خيالية لن تستطيع كايكو ولا أي شيء في العالم أن يلطّخها او يدنّسها .

صرفت اوتوكو بصرها ، وصورة زهرة اللوتس البيضاء أمام عينيها ، نحو أضواء بيوت الشاي في كياماشي التي كانت تنعكس في نهر ميسوسوجي . وتأملتها فترة قصيرة ، ثم انتقلت عيناها الى سلسلة « تلال الشرق » فيما وراء « الجيون » . كانت التلال تبدو ساكنة ، ولكن خيِّل اليها أن الظلمات التي

كانت تغمرها كانت تنزلق خفية في نفسها . أما مصابيح السيارات الذاهبة والآتية على الضفّة المقابلة ، والأزواج الذين يتنزّهون على حافة الماء ، وبيوت الشاي المحاذية للنهر بأنوارها وزُبنها ، فقد كانت أوتوكو تراهم من غير أن تراهم حقاً ، فيما كانت ظلمات « تلال الشرق » تنفذ فيها أكثر فأكثر .

«سأرسم بلا تأخير «صعود الطفل الى السماء»، يجب ان أقوم بذلك على الفور ، وإلاّ فلن أرسمه بعد ذلك أبداً . والفكرة التي أملكها الآن عن تلك اللوحة تختلف عن مشروعي الأول . . . . » هذا ما تمتمت به أوتوكو لنفسها . أترى هذا الانفعال المفاجىء يُعزى الى زهرة اللوتس وهي في اللهب ؟

وانتهى الأمر بأوتوكو الى التفكير ، وهي في فيض قلبها النقيّ ، بأن كايكو وزهرة اللوتس لم تكونا إلاّ شيئاً واحداً . لماذا كانت زهرة اللوتس البيضاء تلك تُزهر في اللهب ؟ ولماذا لم تكن ، على العكس ، لتذوي فيه ؟

ونادت : ـ كايكو ، هل استعدتِ مزاجك الطيّب ؟

فأجابت كايكو بغندرة : ـ اذا كنت قد استعدتها انت أيضاً ، فليس لي عذرٌ بعد بأن أكون غاضبة !

ـ حتى الآن ، ما هو الأمر الذي أحدث لك أكبر الهمّ ؟

أجابت كايكو ببساطة : ـ إنني أتساءل عن ذلك . لقد كنت غالباً شقيّة حتى أني لا أعرف الجواب . سأحاول ان اتذكّر ، وعند ذلك أجيبك . ولكن همومي قصيرة .

ـ قصيرة ؟

ـ نعم .

نظرت اليها اوتوكو باحداد وقالت بصوت هادىء :

ـ هناك شيء أريد أن أطلبه منك الليلة . أريدك ألا تذهبي بعد الآن الى كاماكورا .

ـ هل تقولين ذلك بسبب السيد أوكي ؟ أم بسبب ابنه ؟

وكان أن بلبل أوتوكو جوابُ الفتاة غير المتوقّع . ثم قالت :

ـ أقصد الاثنين .

ـ إذا كنتُ قد ذهبت لرؤيتهما ، فانما من أجل أن أنتقم لك !

ـ تلك الحكاية نفسها ! إنك حقاً كائن غير معقول !

وتغيّرت تعابير وجه اوتوكو . وأغمضت فجأة عينيها ، كما لتخفي دموعاً لا تُرى .

ـ أية جبانة انت ، يا أوتوكو !

ونهضت الفتاة بعد هذه الكلمات ، فاقتربت من أوتوكو ، وشدّت يديها الاثنتين على كتفيها ودغدغت لها أذنيها . وفي صمت أوتوكو ، بلغ أذنيْ كايكو خرير النهر .

خصلات شَعَر

نادت فوميكو ، من المطبخ ، أوكي قائلة :

ـ عزيزي ! أتدري أن فأرة كبيرة تشرّفنا بوجودها ؟ إنها تختبىء تحت الفرن !

ـ هل أنت جادّة في كلامك ؟

ـ بل وأعتقد أن صغارها يرافقونها .

ـ كفى !

ـ وتحسن صنعاً إذا أتيت لترى . . هوذا الفأر الصغير يُظهر طرف أنفه الجميل . . .

ـ هِمْ !

ـ وينظر إليّ بعينيه السوداوين الجميلتين البرّاقتين .

لم يقل أوكي شيئاً . كان يقرأ صحيفة صباحية في قاعة الاستقبال التي كانت ترفّ فيها روائح حساء « بالميزو »[1] .

ـ عجباً ! وها أن المطر يهطل الآن في المطبخ ! ألا تسمع ؟

كانت السماء تمطر حين نهض أوكي ، ولكن المطر كان يهطل الآن مدراراً . وكانت الريح التي تهزّ الأشجار وأدغال

(١) الميزو : معجّن بالفاصولياء المغليّة ، الممزوجة بالملح والخمير ، وهو يصلح للشورباء والمَرق .

القصب على الروابي تهبّ نحو الشرق ، وكان المطر يسوط الشجيرات والنباتات بشكل مائل .

ـ إنني لا أسمع شيئاً ، مع هذه الريح وذلك المطر كلّه في الخارج . . .

ـ تعال إذن فألْقِ نظرة !

ـ طيّب !

ـ قطرات المطر تلك التي تنسحق على قرميد السقف ، والتي تتلوّى لتنزلق في شقوق ضيّقة وتسقط على ألواح السقف ـ أنا واثقة من أنها لا بدّ أن تتألم . ألا تشبه دموعاً تسيل ؟

ـ اذا شئت .

ـ لنخرج مصيدة الفئران هذا المساء . لا بدّ أنها فوق رفّ من رفوف غرفة المهملات . وهو مفرط الارتفاع بالنسبة لي ، فهل تستطيع أن تُنزلها لي الساعة ؟

أجاب أوكي بهدوء ، من غير أن يرفع نظره عن الصحيفة :

ـ هل أنت متأكدة من أنك تريدين القبض على الفأرة وصغارها في مصيدة ؟

وسألت فوميكو : ـ وماذا نفعل في أمر تسرّب المياه ؟

ـ هل هو تسرّب خطير ؟ أم أنه ، ببساطة ، لكون المطر يهطل مدراراً ؟ سأصعد غداً الى السطح لأرى كيف هو الأمر .

ـ ان هذا خطر ، بالنسبة لمن هو في سنّك . . . إن

تاشيرو سيذهب بدلاً منك .

ـ ماذا تقصدين بـ « من هو في سنّي » ؟

ـ في الشركات والمصارف ووكالات الصحف ، الا يحُال المرء الى التقاعد اذا بلغ الخامسة والخمسين ؟

ـ يروق لي أن أسمعك تتكلمين هكذا . واذا انقطعت ، بدوري ، عن العمل ؟

ـ كما تشاء . . .

ـ في أية سن يستطيع كاتب أن يأخذ تقاعده ؟

ـ ليس قبل يوم وفاته !

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ سامحني .

وقدّمت له فوميكا عذرها واستطردت بصوتها المعتاد :

ـ قصدت فقط الى القول ان أمامك سنوات طويلة للكتابة .

ـ هوذا منظور مؤلم ، خاصة مع امرأة من نوعك . . . إن ذلك أشبه بشيطان يقف وراء ظهري وهو يشهر قضيب حديد محمّى بالنار !

ـ أي كاذبٍ بارع أنت ! متى تراني أُخذتُ بك ؟

ـ الحق أنك تستطيعين أن تكوني سامّة ، لو تدرين !

ـ سامّة ؟

ـ تماماً . حين تغارين مثلاً .

ـ ان الغيرة قَدر النساء جميعاً . ألم أتعلّم على حسابي ، ومنذ وقت طويل ، أن ذلك كان دواءً مرّاً وخطراً ، سمّاً

بالإجمال ؟

لم يقل أوكي شيئاً .

ـ سيف ذو حدّين .

ـ ليجرح المرء صاحبه ويجرح نفسه . . . أو لينتحر مع عشيقه ؟

ـ مهما كان باستطاعتك أن تعمل ، فأنا لا أملك بعدُ القدرة الآن على الطلاق أو على الانتحار .

ـ بعد انقضاء عمرٍ معيّن ، يصبح الطلاق كريهاً ، ولكني لا أعرف ما هو أبأس من عاشقين عجوزين ينتحران . والمسنّون الذين يقرأون في الصحف الأخبار المماثلة لا بدّ من أن يحُسّوا اضطراباً أكبر من الذي يحُسّه الشبّان .

ـ أنت تقول ذلك لأنه حدث لك يوماً ان فكّرت طويلاً في هذا الموضوع . . . منذ مدة طويلة . . . وكنت آنذاك شاباً .

وظلّ اوكي على صمته .

ـ ومع ذلك ، فانك لم تبلغ صديقتك الصبيّة رغبتك المؤلمة بأن تموت معها. أما كان من الأفضل ان تقوم بذلك؟ لقد انتحرتْ ، ولكن كيف كان لها أن تعرف انك كنت تريد أن تموت أيضاً ؟ أليس هذا محزناً ؟

ـ إنها لم تنتحر .

ـ لقد فشلت فقط في الانتحار ، ولكنها كانت تريد حقاً ان تقتل نفسها .

وعادت فوميكو تتحدّث عن اوتوكو . وكان أوكي يسمع

الزيت وهو ينشّ في الموقد حيث كان المفروض أن تقلي قطعاً من لحم الخنزير مع الملفوف . وقال أوكي :

ـ سينضج حساء « الميزو » أكثر مما ينبغي .

ـ نعم ، نعم . أعرف . منذ عشرين سنة وأنت لاتني تتفاخر بهذا الحساء ! ولقد جلبت أشكالاً متعددّة من « الميزو » من مناطق مختلفة . . . ولقد وددت ان تجعل من زوجتك إخصائية في فنّ إعداد « الميزو » !

ـ هل تعرفين كيف يُكتب اسم هذا الحساء بأحرف صينية ؟

ـ الأفضل كتابته « بالهيراغانا »[1] .

ـ يكرِّر المرء ثلاث مرات حرف « مشرَّف »

ـ هل هذا صحيح ؟

ـ لا بدّ أنها كانت في المساء وجبة ذات أهمية كبيرة لأن اسمها كان يكتب بواسطة الحرف نفسه مكرّراً ثلاث مرات . وهي أكلة لم يكن من اليسير إجادتها .

ـ ربما لن يكون لحسائك « الميزو » المشرَّف مذاق جيّد هذا الصباح . يبدو أنني لم أعدّه بالقدر الكافي من العناية .

كان يتفق أحياناً لفوميكو أن تناكد أوكي بأن تحدّثه بلهجة مبالغة المجاملة كما حدث في ذلك اليوم نفسه بصدد الفأرة وتسلّل المياه من السقف . وإذ لم يكن أوكي من سكان العاصمة الأصليين ، فهو لم يكن يستعمل استعمالاً صحيحاً

---

(١) الهيراغانا : الفباء مقطعيّة يابانية ذات شكل سريع .

صيغ التأدب الكثيرة في لغة طوكيو . على أنه لم يكن يعير انتباهاً دائماً لملاحظات زوجته التي رُبّيتْ في طوكيو ، وكانت مناقشاتهما تفضي الى منازعات كلامية لا تنتهي،كان أوكي يؤكد في أثنائها بأن لغة طوكيو لم تكن إلا عامّية ريفية مبتذلة ولم تكن صادرة عن تقاليد بعيدة . وكان أوكي يقول إن الناس في كيوتو وأوساكا ألفوا أن يستعملوا ، مهما كان الموضوع الذي يتحدثون عنه ، عبارات تشريفية ، في حين أن سكان طوكيو يعبّرون عن أفكارهم بقدرٍ أقلّ من المراعاة والملاطفة .

أما في عامّية كيوتو وأوساكا ، فيلجأ الناس الى صيغ التأدب ليتحدثوا عن الأسماك أو الخضار ، وعن الجبال أو الأنهار ، وعن المنازل أو الشوارع ، وحتى في الإشارة الى الشمس والقمر والأجرام السماوية والجوّ .

وكانت فوميكو تقول وهي تتخلّى عن النقاش :

ـ اذا كنت حريصاً على ذلك ، فالأحرى ان تناقش هذا كلّه مع تاشيرو. انه هو الاخصائيّ في المادّة .

ـ ما الذي يعرف من ذلك ؟ ربما كان اخصائياً في الأدب الياباني ، ولكنه ليس لغوياً . إنه لم يقم بأبحاث عن استعمال العبارات التشريفية . انظري قليلاً الى الطريقة المضطربة وشبه القذرة التي يعبّر بها هو أو زملاؤه عن آرائهم . إنها تجرح الأذن ! بل إن مقالاته ودراساته ليست مكتوبة بيابانية صحيحة !

والحقيقة أن أوكي لم يكن يكتفي بعدم استشارة ابنه أو الاستماع الى نصائحه ، بل كان ينفر من ذلك . كان يفضّل ان

يطلب رأي زوجته . ولكن لما كانت فوميكو من سكان طوكيو الأصليين فقد كانت غالباً ما تجد نفسها مرتكبة بالأسئلة التي كان زوجها يرهقها بها بصدد العبارات التشريفية وطريقة استعمالها .

ـ يجب أن ألفت نظر تاشيرو الى أن العلماء اليابانيين كانوا في الماضي يملكون معارف صلبة في الصينية وكانوا يكتبون بلغة لا عيب فيها . .

ـ ان الناس لم يعودوا يتكلّمون هكذا . فهناك كلمات جديدة تولد كلّ يوم ، كتلك الفئران الصغيرة التي رأيناها الساعة ، وتنحت الأشياء الهامّة من غير أن تهتمّ بها إطلاقاً . ان العالم يتغيرّ بايقاع مدوّخ .

ـ ولكن حياتها قصيرة ، تلك الكلمات الجديدة ، وحتى اذا بقيت ، فهي تسجّل تاريخاً ـ كالروايات التي نكتبها . إن من النادر أن تعيش أكثر من خمسة أعوام .

ـ مهما يكن ، ألا يكفي أن الكلمات الدارجة اليوم لا تبقى الاّ الى اليوم التالي ؟

وفيما كانت فوميكو تتكلم ، حملت الى قاعة الاستقبال صينية طعام الفطور . ثم قالت من غير أن تتغيرّ ملامحها :

ـ لقد أحسنتُ صنعاً بأن أعيش ، أنا ايضاً ، بالرغم من جميع هذه السنوات التي كنت تفكّر فيها بالانتحار مع تلك الصبيّة .

ـ ليس هناك من إحالة على التقاعد للنساء المتزوّجات . أية شفقة !

ـ هناك ، مع ذلك ، الطلاق . . . لقد وددت ، مرة واحدة على الأقل في حياتي ، أن أعرف أي أثر يتركه الطلاق .

ـ لم يفت الأوان .

ـ لقد ذهبت تلك الرغبة . أنت تعرف المثل : حين يصبح المرء أصلع يندم على أنه لم يغتنم الفرصة .

ـ إن شعرك لا يزال أسود فاحماً ، ليست فيه شعرة واحدة بيضاء .

ـ أما جبينك أنت فإن شعره يتساقط . أتكون قد فوتّ الفرصة ؟

ـ في وضعي ، هذا يُعزى الى جميع الجهود التي وجب عليّ أن أبذلها لتجنّب الطلاق ، بسبب من تضحيتي إجمالاً . وحتى لا تأخذك الغيرة . . . .

ـ سأغضب ، كما تعلم !

وجلس أوكي وفوميكو ، فيما هما ماضيان في تبادل الكلام الفارغ ، يتناولان فطورهما كما كانا يفعلان كل صباح . وكانت فوميكو ، من جهتها ، تبدو أفضل مزاجاً من المألوف ، بالرغم من أنه لم يكن ميسوراً القراءة في أفكارها . ولا ريب في أنها تذكّرت اوتوكو ، ولكنها لم تكن ، ذلك الصباح ، شديدة الحرص على ابتعاث الماضي .

كان المطر المهدِّد قد فقد من عنفه ، وكان يبدو أنه يريد أن يهدأ . ومع ذلك ، فان الانفراجات في السحب لم تكن لتسمح بعدُ لأشعة الشمس أن تنفذ منها .

قال أوكي : ـ ألا يزال تاشيرو نائماً ؟ اذهبي فأيقظيه !

فوافقت فوميكو : ـ أنا ماضية اليه . ولكني أخشى ألا أوفّق الى ذلك . سيطلب مني أن أدعه ينام ، ما دام في الإجازة .

ـ أتراه لن يذهب الى كيوتو اليوم ؟

ـ يستطيع أن يتعشى في البيت ويتوجّه بعد ذلك الى المطار . ماذا سيفعل في كيوتو في مثل هذا الحرّ ؟

ـ تحسنين صنعاً إذا سألته عن ذلك . يبدو أن الرغبة استولت عليه فجأةبأن يرى ثانيةقبر سانجونيشي سانيتاكا، في قلب الجبال ، قرب معبد نيسونين . أعتقد أن في نيّته أن يقوم بأبحاث عن « تاريخ » سانيتاكا من أجل أطروحة . . . أتعرفين من كان سانيتاكا ؟

ـ نبيل من نبلاء البلاط ، أليس كذلك ؟

ـ هذا يعرفه الجميع ! ففي اضطرابات عهد « أونين »[1] ، تحت حكم شوغان أشيكاغا يوشيمازا[2] ، ارتفع الى منصب وزير الداخلية . كان صديقاً للشاعر « سوجي » وواحداً من نبلاء البلاط أولئك الذين حرصوا على حماية الفنون والآداب في تلك العهود المضطربة . وقد خلّف مذكرات ضخمة « تاريخ سانيتاكا » . لقد كان بلا ريب شخصية هامة . ويريد تاشيرو أن يقوم بدراسات عن « ثقافة هيغاشياما »[3] متخذاً مذكرات سانيتاكا منطلقاً له .

---

(١) عهد اضطرابات وحروب داخلية دام من ١٤٦٧ حتى ١٤٧٧ .

(٢) اشيكاغا يوشيمازا (١٤٣٦ ـ ١٤٩٠) حكم آل اشيكاغا اليابان من ١٣٣٣ الى ١٥٧٣

(٣) ثقافة هيغاشياما : ثقافة مرهفة قامت في عهد شوغين يوشيماسا ، مؤسس « الجناح الفضي » في كيوتو .

ـ عجباً ! وأين يقع دير نيسونان ؟

ـ في أسفل جبل اوغورا . . . .

ـ ولكن أين يقع جبل أوغورا ؟ أليس هو الذي آصطحبتني اليه مرة ؟

ـ بالفعل ، منذ وقت بعيد . إنه مكان غنيّ بالذكريات الشعرية . وبضع أمكنة ، غير بعيدة من هناك ، تذكّر بأسطورة « فوجيوارا سادا »(٤) .

ـ آه ، في منطقة ساغا ، أليس كذلك ؟ انني أتذكره الآن .

ـ لقد جمع تاشيرو ضروباً مختلفة من الحكايات والتفاصيل الصغيرة التافهة التي يرى أن بالامكان أن تكون مادّة رواية . إنه يعتبرها وثائق لا فائدة منها ، حكايات مختلفة كلياً . وأتصوّر أنه بدأ يعتبر نفسه عالماً حين يؤكّد لي أن عندي ، مع هذه الحكايات كلها ، ما ينفع في كتابة رواية .

ومن غير أن تكشف فوميكو عن تفكيرها ، اكتفت بالموافقة ، بينما كانت شفتاها ترسمان بسمة خفيفة . وقال أوكي وهو ينهض :

ـ اذهبي فأيقظي ابنك العالِم . هل سمع أحد عن آبنٍ ينام الضحى ، بينما يهمّ أبوه بالعمل ؟

ـ إنني ذاهبة اليه .

---

(٤) فوجيوارا سادا (أوتايكا) ١١٦٢ ـ ١٢٤١ ، شاعر ولغوي كبير من القرون الوسطى .

واذ وجد أوكي نفسه وحيداً في مكتبه ، عاد يفكّر بما تبادله الساعة بلهجة مزاح مع فوميكو في موضوع « إحالة الكتّاب على التقاعد » من غير أن يضحك من ذلك . وبقي جالساً على مكتبه ، وذقنه بين يديه . وقد سمع شخصاً يتغرغر في الحمّام ، ثم دخل تاشيرو وهو يمسح وجهه بمنشفته .

قال أوكي بلهجة عتاب :

- أنت لا تنهض مبكراً .

- لم أكن نائماً ، وانما كنت في السرير أحلم . . .

- تحلم ؟

سأله تاشيرو : - هل تعرف أن قبر الأميرة « كازونوميا » قد فُتح ؟

- لقد انتُهك ضريحها ؟

فأقرّ تاشيرو بهدوء : - يمكن تسمية ذلك هكذا . . .

- لقد أُجريت حفريات . وغالباً ما تُفتح قبور لغاية أبحاث علمية ، أليس كذلك ؟

- إن الأمر مع ذلك يتعلّق بالأميرة « كازونوميا » . فمتى ماتت في الواقع ؟

- عام ١٨٧٧ ؟ لم يمض إذن قرن ؟

- صحيح . ومع ذلك ، فلم يُعثر إلا على عظامها .

قطب اوكي حاجبيه .

- يبدو أن وسادتها وملابسها وجميع الأشياء المدفونة معها قد تفتّتت غباراً . ولم يكن باقياً غير العظام .

ـ أليس عملاً لا إنسانياً انتهاك ضريح كهذا ؟

ـ كانت متمدّدة في وضعة ساحرة وبريئة ، أشبه بولدٍ أتعبه اللعب فأغفى .

ـ تقصد العظام ؟

ـ نعم . وقد عثروا كذلك على خصلة شعر في مؤخرة الجمجمة تحمل على التفكير بآمرأة شابة متزوّجة ذات مستوى رفيع ، وقد ماتت في شبابها .

ـ وبهذه العظام انما كنت تحلم ؟

ـ بالتأكيد. ولكن ليس بذلك فقط. فالعظام في ذاتهالا تدعو الى الحُلم ، ومع ذلك فإن فيها شيئاً جميلاً ، وسرّياً ، ورخصاً .

ـ ماذا تقصد ؟

لم ينجرَّ أوكي بحماسة ابنه ولم يكن يقاسمه طريقته في رؤية الأشياء . كان يجد من الوقاحة ان يُنتهك ضريح أميرة مؤثرة ماتت في الثلاثين من عمرها وان تُفحص عظامها .

قال تاشيرو : ـ ما أقصده . . . الواقع أن الأمر يتعلّق بشيء لم يخطر لك ببال . ولكن لماذا لا ننادي أمي ونروي لها ، هي ايضاً ؟

حدج أوكي آبنه الواقف أمامه ، ومنشفته في يده ، ووافق بحركة خفيفة من رأسه .

وكان تاشيرو يتحدّث بصوت عالٍ مع أمه بينما هو عائد الى مكتب أبيه . كان يُطلع فوميكو على مجرى الحكاية .

وكيفما اتفّق أخرج أوكي من مكتبة الممرّ جزءاً من

« المعجم الكبير لتاريخ اليابان » وفتحه على الصفحة التي تتحدث عن الأميرة كازونوميا . وأشعل سيكارة .

وكان في يد تاشيرو شيء يشبه نشرةً رقيقة ، فسأله اوكي :

ـ أهذا هو تقرير الحفريات ؟

ـ لا ، بل هي نشرة المتحف . وقد كتب شخص يُدعى كاماهارا بعنوان « هل يختفي الجمال ؟ » مقالاً يجري فيه الحديث عن سرّ يحيط بالأميرة كازونوميا . ومن الممكن ألا تكون فيه إشارة الى الحفريات .

وتوقف تاشيرو لحظة ثم أخذ يقرأ المقال :

« اكتُشفت بين ذراعي هيكل الأميرة كازونوميا لوحةُ زجاجية لا تكاد تزيد عن قياس بطاقة زيارة . ويبدو أنه الشيء الوحيد الذي استطاعوا العثور عليه داخل القبر . وكان علماء الآثار الذين فتحوا قبور شوغان توكوغاوا[1] في معبد زوزو ـ جي في « شيبا » قد نقبوا كذلك قبر الأميرة كازونوميا . . . وقد اعتقد الاخصائي المكلّف بفحص الأصباغ والأنسجة ان هذه اللوحة الزجاجية هي إما مرآة جيب او « كليشه رطبة » . وقد غلّفها بالورق وحملها الى المتحف . »

سألت فوميكو : ـ هذه « الكليشه الرطبة » ، أكانت صورة على زجاج ؟

ـ نعم . يكفي أن تُدهن لوحة زجاجية بطبقة حسّاسة حتى تحمّض الصورة اذ تكون اللوحة مبتلّة بعد . . . تماماً

(١) حكم آل شوغان توكوغاوا اليابان من ١٦٠٠ حتى ١٨٦٨ .

كالصور القديمة . . .

ـ آه ، نعم . لقد رأيت بعضها .

ـ كانت اللوحة الزجاجية تبدو شفافة ، ولكن حين فحصها الاخصائي على الضوء لدى عودته الى المتحف ، وتحت زوايا مختلفة ، لمح عليها طيف رجل . . . كانت إذن صورة ! وكان الطيف لشابّ يرتدي ثوب احتفال ذا أكمام طويلة ويغطّي رأسه بـ « ايبوشي »[1] . وكانت الصورة مصفرّة ، بالطبع . . .

سأل أوكي ، وقد سحرته قصة تاشيرو :

ـ أهي صورة شوغين اياموشي ؟[2] .

ـ نعم ، على الأرجح . لقد ماتت الأميرة كازونوميا وهي تضمّ بذراعيها صورة زوجها الذي كان قد مات قبلها . كان هذا أيضاً رأي الاخصائيّ ، وكان ينوي ان يتوجّه في اليوم التالي الى « معهد البحوث لحماية الأملاك الثقافية » ليرى اذا كان ممكناً ، بوسيلة او بأخرى ، جعل هذه الصورة اشدّ وضوحاً . ولكنه ، حين فحصها على الضوء في اليوم التالي ، رأى أن الصورة قد اختفت تماماً . ففي ليلة واحدة ، لم تكن الصورة بعدُ الا لوحة زجاجية تافهة وشفّافة . . .

سألت فوميكو ، وهي تتأمل ابنها :

ـ وكيف حدث ذلك ؟

---

(١) ايبوشي : لباس للرأس كان النبلاء يرتدونه سابقاً ويربط بخيط حريري تحت الذقن .

(٢) توكوغاوا اياموشي : ١٨٤٦ ـ ١٨٦٦ .

فأجاب اوكي : ـ لأنها عُرضت فجأة للهواء والنور بعد أن كانت طوال سنوات مدفونة تحت الأرض .

ـ هو كذلك بالفعل . كان للاخصائي شاهد ليؤكّد أنه لم يكن ضحية وهم ، وأنها كانت حقاً صورة . كان قد أطلع على اللوحة الزجاجية حارساً كان موجوداً هناك ، فأكد هذا أنه كان قد رأى أيضاً طيف شاب مطبوعاً على اللوحة .

ـ هكذا إذن !

ـ « القصــة الحقيقية لحياة خيالية » : هكذا وصف الاخصائي اكتشافه .

وصمت تاشيرو لحظة قصيرة ، ثم استطرد :

ـ ولكن الإخصائي كان كذلك أديبـاً ، وبـدلاً من أن يوقف هنا روايته ، أطلق لخياله العنان . لقد سمعت بالأمير اريسوغوانوميا ، الذي كان مفتوناً جداً بالأمـيرة كازونـوميا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءل الاخصائي اذا لم تكن الصورة التي كانت الأميرة تشدّها الى صدرها هي صورة حبيبهـا لا صورة شوغان اياموشي ، زوجهـا . ألـم تأمـر سرّاً مرافقاتهـا ، اذ أحسّت باقتراب الموت ، بأن يدفنّ مع جثمانها صورة حبيبها ؟ ألـم يكن ذلك الفعل الوحيد المنسجم مع المصير المأساوي لهذه الأميرة ؟ ذلك كان رأي الاخصائي .

ـ هم ! محض خيال كلّ هذا ! ان صورة حبيب تختفي في ليلة ، بعد مجرّد رؤيتها النور .

ـ هذا ممكن جداً .

ـ إن باستطاعـة الكاتـب ان يمنـح الحياة لذلك الجمال

الذي يتلاشى هكذا في لحظة ، وان يصعّده وأن يجعل منه رائعة فنية . هذا هو على كل حال استنتاج الاخصائي . الا يغريك هذا ، يا أبي ؟

قال أوكي : ـ ولكن هل أكون قادراً عليه ؟ ربما كتبت في ذلك قصة قصيرة تبدأ بالمشهد على أرض الحفريات . . . ولكن مقال الاخصائي ، أليس كافياً ؟

ـ هل تظنّ ذلك ؟

لم يبد تاشيرو مقتنعاً ، وأضاف :

ـ لقد قرأته هذا الصباح ، وفي حُلمي ، أخذتني الرغبة بأن أحدّثك عنه . لا بدّ لك من أن تتصفّحه الساعة .

ووضع النشرة على مكتب أبيه .

ـ سأفعل ذلك .

وإذ نهض تاشيرو للذهاب ، سألت فوميكو :

ـ ماذا فعلوا بهيكل الأميرة العظميّ ؟ انهم ، مع ذلك كله ، لم ينقلوه الى جامعة أو متحف ليجروا عليه ابحاثاً ؟ سيكون ذلك فظيعاً ! آمل ان يكونوا قد دفنوه ، كالسابق !

أجاب تاشيرو : ـ هذا ما لا يشير اليه المقال . فلا أعلم عنه شيئاً ، ولكن أعتقد أن هذا ما فعلوه بالواقع .

ـ على ان الصورة التي كانت الأميرة تشدّها الى صدرها قد آختفت . ولا بد أنها تشعر بالوحدة .

قال تاشيرو : ـ هذا صحيح ، فأنا لم أفكر بذلك . أتراك ، يا أبي ، ستنهي روايتك بواقعة من هذا النوع ؟

ـ سيكون ذلك سقوطاً في العاطفيّة !

غـادر تاشـيرو المكتـب من غـير أن يضيف شيئـاً . وتظاهرت فوميكو ، بدورها ، بأنها تنهض وهي تقـول : « ربما كنت ترغب في العمل ؟ »

- لا . فبعـد مثـل هذه الحكاية ، أرانـي بحاجـة الى نزهة . (ونهض اوكي) يبدو أن السماء تنقشع .

قالت فوميكو : - لا تزال هناك بعض الغيوم ، ولكن لا بدّ للهواء بعد ذلك المطر الغزير أن يكون رقيقاً . حين تخرج ، ألقِ نظرة على موضع ذلك التسرّب في المطبخ .

- إنه يقلقك أن تعرفي اذا كانت الأمـيرة كازونـوميا لن تعاني من الوحدة في قبرها ، وبعد لحظة ، تطلبـين منـي أن أفحص موضع ذلك التسلُّل !

كانـت جواربـه في خزانـة الأحـذية ، قريبـاً من باب المطبخ . وحين وضعتها فوميكو عند قدمي زوجها ، سألته :

- أتجد من الطبيعي ان يكون تاشيرو قد حدّثنا عن قصة القبر تلك وان يتهيّـأ لزيارة قبر آخر في كيوتو ؟

فوجيء أوكي :

- ماذا تقصدين ؟ أي شيء غـير عاديّ في هذا ؟ إنـك تقفزين حقاً من موضوع الى آخر !

- على الإطلاق ! إنني أفكر في ذلك منذ اللحظة التي روى لنا فيها قصة الأميرة كازونوميا !

- ولكن قبر ساناتاكا هو أقدم بكثير ! إنه يرجع الى عهد موروماشي . . . .

- إن تاشيرو ذاهبٌ الى كيوتو لملاقاة تلك الفتاة .

ظلّ أوكي على تبلبله . وكانت فوميكو قد جثت لتخرج جوارب زوجها ، ولكن في اللحظة التي كان يهمّ بارتدائها ، كانت قد نهضت . كان وجهها قريباً جداً من وجه أوكي الذي حدجته طويلاً .

ـ إن تلك الفتاة ذات جمال شيطاني . . . ألا ترى أنها تملك شيئاً شيطانياً ؟

ولم يعرف أوكي ، الذي لم يكن قد كشف لفوميكو عن الليلة المقضيّة مع كايكو في انوشيما ، لم يعرف بمَ يجيب . واستطردت فوميكو وعيناها ما تزالان تحدجان اوكي :

ـ إن عندي احساس تشاؤم . إننا لم نشهد عاصفة مع الرعد ، هذا الصيف .

ـ ها أنت تعودين للنطق بأمور غريبة . . .

ـ لو أن العاصفة ظلّت تهبّ هذا الليل ، كما حدث الساعة ، لأمكن جداً للصاعقة ان تسقط على الطائرة .

ـ أية حماقة ! . . إنني لم يسبق لي قط أن سمعت في اليابان عن طائرة ضربتها الصاعقة !

حين خرج أوكي من البيت ، إفلاتاً من زوجته ، بدأ ينظر الى السماء . ولم يكن عنف المطر الذي هطل لتوّه قد طرد السُحب المحمّلة ، وكانت السماء منخفضة والرطوبة ضاغطة . ولكن حتى ولو انجلت السماء الداكنة ، فان اوكي ما كان ليتعزّى . ذلك ان فكرة ذهاب ابنه الى كيوتو للقاء كايكو كانت ترهقه . لم يكن واثقاً من أن تلك كانت غايته من ذهابه ، ولكن منذ أن عبّرت له فوميكو عن شكوكها ، امتلأ

يقيناً بذلك .

وحين غادر مكتبه للنزهة ، كان ينوي التوجه الى واحد من تلك المعابد العديدة في كاماكورا ، ولكن ملاحظة زوجته الفريدة جعلته يعدل عن مشروعه . ان منظور القبور التي لا بدّ ان يراها عند المعبد لم يكن يعني له شيئاً بعد . ولذلك صعَّد في رابية مشجرة قريبة من بيته . كان الهواء مشبعاً بعطر الأرض والشجر بعد المطر . وفيما كان يغيب كلياً خلف الغصون والأوراق ، عادت ذكرى جسد كايكو تفرض نفسها على ذهنه .

وما رآه أولاً ، على نحو شديد التميُّز ، هو نهدا الفتاة . كانت حلمتاهما ورديتين ، توردُّاً يكاد يكون شفّافاً . إن بعض الفتيات اليابانيات ، بالرغم من انتسابهن الى الجنس المسمّى أصفر ، يملكن بشرة أشدّ بياضاً وإشراقاً ورقّة من بشرة كثير من الفتيات الغربيات . ولون حلماتهنّ الورديّ هو في الحقيقة لون لا يوصف ، وليس له مثيل في أي مكان آخر . ولم تكن كايكو تملك بشرة في مثل هذا الاشراق ، ولكن حلمتيْ نهديها الورديتين كانتا تبدوان وكأنهما غُسلتا للتوّ ، فهما رطبتان قليلاً ، وتحملان على التفكير ببرعمي زهرتين تفتّحا على صدرها بلون القمح الناضج . لم يكن أي تحبُّب ولا أية تجعُّدات صغيرة قبيحة تُبشّع بشرتهما ، ثم إنهما كانتا صغيرتين كما يشتهي المرء .

ولكن أوكي لم يتذكّر نهديْ كايكو بسبب جمالهما فقط . فلئن كانت الفتاة ، في انوشيما ، قد وافقت على أن تَدعه

يداعب نهدها الأيمن ، فقد رفضت ان يفعل مثل ذلك مع الأيسر . فحين حاول اوكي ان يلمسه ، ضغطت راحتها بقوة على نهدها ، وحين التقط أوكي يدها ليبعدها عنه ، تشنّجت كما لو أنها تتأهب للقفز من السرير .

ـ لا ، أرجوك ، لا تفعل ذلك . . . النهد الأيسر ، لا . . .

ـ لماذا ؟ (وكانت كايكو قد علّقت حركتها ، من الدهشة) ما الذي يشكوه ؟

ـ ان حلمته لا تخرج . . .

ـ حلمته لا تخرج ؟

أثارت كلمات الفتاة اضطراب اوكي .

ـ هذا فظيع ! إنني أحتقره !

كان تنفُّس كايكو مضطرباً كذلك . ولم يستطع اوكي ، لفترة قصيرة ، ان يلتقط معنى كلماتها .

ما الذي « لم يكن يخرج » في نهد كايكو الأيسر ؟ وما الذي كان « فظيعاً » ؟ أكانت حلمة النهد غائرة ، أم ان النهد نفسه كان مشوّهاً ؟ أكانت كايكو قلقةً مما كانت تعتبره علّة ؟ أم كان ينبغي ان يُرى في ذلك حشمة فتاة لا تحتمل إبراز نهديْن غير متساويين حجماً ؟ وتذكّر انه حين التقطها بين ذراعيه ليمدّدها على السرير ، وحين تجمّعت على نفسها ، ضغطت كايكو بعنفٍ على نهدها الأيسر في تجويف مرفقها الأيسر . ومع ذلك ، فان أوكي ، قبل هذا المشهد وبعده ، كان قد رأى نهديْ الفتاة . وبالطبع ، لم يكن قد نظر اليهما بقصد اكتشاف

شيء شاذّ فيهما ، ولكن المؤكد أن أدنى تشوّه في النهـد الأيسر للفتاة كان سيسترعي انتباهه .

والحق انه ، حتى حين انتزع بالقـوة يد كايكو ، لم يلاحظ أي شيء غير طبيعي في نهدها الأيسر . واذ تفحّصه عن كثب ، خيِّل اليه ببساطة أنه يكاد يكون أصغر قليلاً من النهد الأيمن . ومثل هذا الفارق الخفيف ، لم يكن فيه ، لدى أية امـرأة ، ما هو خارق للعـادة . فكيف يُفسَّر إذن استعجـال كايكو لإخفائـه ؟ ولقـد كان من شأن الألغـاز التـي تفعلهـا الفتاة ، بالإضافة الى ألوان رفضها ذاتها ، ان فاقمـت رغبـة أوكي لمداعبة هذا النهد . فاذا هو يُلِحّ في الاستفسار :

ـ أيكون هناك من يُسمح له وحده بلمسه ؟

قالت كايكو وهي تهزّ رأسها : ـ لا . لا أحد هناك .

كانت تنظر بعينـين مفتوحتـين على سعتهما الى أوكي . وبالرغم من أن وجه كايكو كان أبعد عن وجهه من أن يتحقّق الأمر ، فقد خيِّل اليه أن عينيهاكانتا مندّاتـين بالدمـع ، وأن حزناً ما كان يُـقـرأ فيهما . لم تكن تلك بالتـأكيد نظـرة امرأة يداعبها رجل . وبالرغم من أن كايكو قد أغمضت عينيها وأنها أذعنت لترك أوكي يلمس نهدهـا الأيسر ، فقـد كانـت تبـدو غائبـة . ولئـن لم تكن تجعُّـدات ألـمٍ أو نفـور تحرُث بعـدُ جبينها ، فان وجهها مع ذلك قد أصبح ممتقعاً . وقد لاحـظ أوكي ذلك ، فأرخى ضمّته ، ولكن جسم كايكو بدأ اذ ذاك يتموّج ويتلوّى كما لو أن أحداً كان يدغدغه . وكان أن غدت يدا أوكي أكثر الحاحاً .

هل كان يمكن القول إن نهد الفتاة الأيسر لم يكن قد مُسّ بعد ، في حين أن الأيمن كان قد فَقد من براءته ؟ لقد لاحظ أوكي أن أحاسيس كايكو كانت تتفاوت وفقاً لمداعبته النهدالأيسر او النهدالأيمن. انه لم يكن يفهم لماذا قالت كايكو « هذا فظيع ! » وهي تتحدث عن هذاالنهد الأيسر . لقد كانت تلك فكرة جريئة الى حدّ ما بالنسبة لفتاةكانت تستسلم له للمرة الأولى . ولكن ربما كان ينبغي ان يرى في ذلك حيلة فتاة بارعة بشكل خاص ؟ ان أي رجل سيشعر ، وهو في حضرة امرأة تتفاوت أحاسيسها وفق مداعبة نهدها هذا أو نهدها ذاك ، بأنه مفتونٌ ومستثار في الوقت نفسه . حتى ولو كانت هذه المرأة مخلوقة هكذا ، ولو لم يكن ثمة ما يُفعل لإزالة هذا الشيء غير الطبيعيّ ، فان تلك الخصوصيّة ذاتها لم تكن تستطيع الا أن تزيد الرجل إثارة . ولم يكن أوكي قد التقى قط امرأة نهداها على هذا القدر الكبير من الحساسية .

إن كل امرأة ، بالطبع ، تختلف عن الأخريات في الطريقة التي تحبّ ان تُداعب بها . ألم تكن هذه هي حالة كايكو ايضاً ، بالرغم من أن ردّ فعلها كان متطرّفاً ؟ الواقع أن تفضيلات امرأة ما ، في معظم الحالات ، هي تفضيلات عشيقها ، وليست هي الا نتيجة عادات هذا العشيق ونزواته . وعلى هذا ، فان حلمة كايكو اليسرى ، المحرومة من كل حساسية ، كانت تمثل هدفاً مغرياً اغراءً خاصاً لأوكي . وهذا التفاوت في الحساسية بين نهديْ كايكو كان معزواً دون شك لعشيق غير مجرّب . فاذا كان الأمر كذلك

حقاً ، فإن نهد الفتاة الأيسر لم يمُسّ بعد . ولكن كانت ثمة حاجة الى الوقت لجعل هذا النهد حسّاساً بدوره ، ولـم يكن اوكي واثقاً من أن يرى كايكو مرة أخرى .

غير أنه مع ذلك قدبدا بليداً في إصراره على النظر الى نهد الفتاة الأيسر ، في الوقت الذي كان يضاجعها للمرة الأولى . وكان قد عدل عن مشروعه ، ليبحث عن المواضع التي كانت الفتاة تحب ان تُداعب فيها . وقد عَثَـر على هذه المواضـع . وحين بدأ ، بعد ذلك ، يتصرّف معها بوحشية أكثر ، سمعها تنادي « أوتوكو ! » واذ ذاك تراجـع فجـأة ، ودفعته كايكو بعيداً عنها . ثم نأت عنه ، ونهضت وهي تصلح هندامها ، وقامت أمام طاولة الزينة بحركة ترتيب شعرها المشعّث . ولم يحُسّ أوكي بالقوة لينظر في اتجاهها .

كان شعورٌ من الوحدة قد استولى على أوكي ، مع تزايد عنف المطر الهاطل . كان يبدو أن الوحدة تروح وتجيء فيه وفق هواها . وعادت كايكو الى جانبه .

قالت بلهجة ملاطفة وهي تتفحّـص وجهه من أدنى :

ـ يا سيد أوكي ، هل تريد أن تمُرّ يديك ، بتعقُّـل ، حول عنقي وتنام ؟

ومن غير ان يجيب بكلمة ، أمـرّ أوكي ذراعـه اليسرى حول عنق الفتاة . كانت ذكرى اوتوكوتمثُـل لذهنه بلا توقّف . ومع ذلك ، فان كايكو هي التي اقتربت لتلتصق به . وبعـد لحظات ، قطع اوكي الصمت .

ـ إنني أُشمّ عطرك .

ـ عطري . . .

ـ عطر نسويّ .

ـ حقاً ؟ ذلك بسبب هذا الحرّ وهذه الرطوبة . . . إنني آسفة !

كان العطر الذي يتنشّقه اوكي هو الذي ينبعث طبيعياً من جسد امرأة يضمّها عشيقها . ان جميع النساء يبعثن هذا العطر ، حتى الفتيات الصبيّات منهنّ . ولم يكن له فقط تأثير مهيج على الرجل ، بل كان كذلك يطمئنه ويغمره . ألم يكن يشي ، على نحوٍ ما ، برغبة المرأة ؟

ومن غير ان يكشف اوكي عن عمق فكرته ، فقد وضع مع ذلك رأسه على صدر كايكو ليفهمها أنه كان يحبّ الرائحة التي كانت تنبعث من جسمها . وكان قد أغمض عينيه ، وبقي كذلك ، مسربلاً بعطر الفتاة .

وفي الغابة ، حين أتت ذكرى كايكو العارية تفرض نفسها بتلك القوة على ذهنه ، كانت مرة أخرى صورة نهديْ الفتاة التي تمّحي من نظره آخر ما تمّحي . والحق أنها لم تمّحِ ، بل ظلّت ماثلة أمامه بكل نضارتها وكل وضوحها .

وصرّح اوكي بشكل حازم : « ينبغي ألاّ أدعَ تاشيرو يلتقيها . ينبغي ذلك ! »

كان يتشبّث ، بكل قواه ، بجذع شجيرة على مقربة منه . « ولكن ماذا أستطيع ان أفعل ؟ » وهزّ جذع الشجيرة . فانهمرت على رأسه قطرات مطر كانت ما تزال عالقة بالأوراق . وكانت الأرض من شدّة الرطوبة بحيث أن

أطراف جوربيه كانت مبلّلة . وألقى أوكي نظرة دائرية على الأوراق الخضر التي كانت تكتنفه من كل مكان . وهذه الخضرة التي كانت تحيط به أخذت فجأة تقهره .

لم يكن أوكي يرى ، لمنع ابنه من رؤية كايكو ثانية في كيوتو ، الاّ حلاً واحداً : أن يُعلمه بأنه كان قد قضى الليل في أنوشيا معها . فان لم يكن هذا ، فربما استطاع كذلك ان يرسل برقية الى أوتوكو ، أوحتى الى كايكو . وعجّل اوكي في العودة الى بيته .

وسأل فوميكو : ـ أين تاشيرو ؟

ـ لقد ذهب الى طوكيو .

ـ الى طوكيو ؟ منذ الآن ؟ ولكن طائرته لا تقوم الا في الليل ! هل تظنّين أنه سيعود الى البيت قبل هذا المساء ؟

ـ لا . ان ذلك سيجبره على القيام بدوره ، ما دامت طائرته تقوم من « هانيدا » .

فلم يجب أوكي .

ـ لقد قال لي انه يمضي في ساعة مبكرة ليذهب الى الجامعة قبل قيام الطائرة . كان يريد ان يأخذ بعض الوثائق من قاعة الأبحاث . . .

ـ لا ندري اذا كان هذا صحيحاً !

ـ ما الأمر ؟ إن له هيئة عجيبة !

وتفادى أوكي نظر فوميكو ، ودخل الى مكتبه . لم يكن قد تحدّث الى تاشيرو ، كما لم يرسل برقية لأوتوكو أو لكايكو .

استقلّ تاشيرو طائرة الساعة السابعة الى أوساكا .

وكانت كايكو تنتظره في مطار « ايتامي » .

وحيّا تاشيرو الفتاة بارتباك :

- إنني متأثر ، فلم أكن أتوقع أن تنتظريني في المطار .

- ألا تشكرني ؟

- شكراً . آسف أني قد أزعجتك .

ولاحظت كايكو نظرة الشاب الحيّة فخفضت عينيها برقّة .

وسألها تاشيرو وهو ما يزال منزعجاً :

- هل جئتِ من كيوتو ؟

فأجابت كايكو بصوت هادىء :

- نعم . إنني أسكن هناك ، أليس كذلك ؟ فمن اين عساني كنت أستطيع المجيء ، إن لم يكن من كيوتو ؟

- صحيح !

وضحك تاشيرو واستقرّ نظره على « أوبي » الفتاة .

- انتِ ذات جمال باهر ! إنني لا أكاد أصدّق انك انما جئت الى المطار لتنتظريني أنا !

- أنت تقصد ثوبي الكيمونو ؟

- نعم ، ثوبك الكيمونو ، وحزام « الأوبي » و . . . .

ووّد تاشيرو أن يضيف « وشعرك ، ووجهك . . . . »

- إنني في الصيف أقلّ معاناة من الحرّ اذا لبست كيمونو سوياً واذا كان حزامي معقوداً جيّداً . انني لا أحب الملابس الفضفاضة حين يكون الجوّ حاراً .

وكان كيمونو وأوبي كايكو يبدوان جديدين تماماً .

ـ وأنا أفضل كذلك الألوان المحتشمة في الصيف . كهذا « الأوبي » كما ترى ؟

وكانت كايكو تمشي ملتصقة بتاشيرو ، فيما كان متوجّهاً نحو قاعة وصول الأمتعة . وقالت :

ـ وهذا « الأوبي » ، أنا التي رسمت رسومه .

فالتفت تاشيرو ، وسألته كايكو :

ـ وماذا يمثّل هذا ، في نظرك ؟

ـ لنَرَ قليلاً . . . ماء ؟ مجرى نهر ؟

ـ إنه قوس قزح . قوس قزح بلا ألوان . . . لا شيء إلاّ خطوط منحنية داكنة بعض الشيء بالحبر الصيني . لا يستطيع أحد أن يفهم ما المقصود ، ومع ذلك فإن جسمي مسربل بقوس قزح صيفيّ . قوس قزح ينتصب فوق الجبال ، عند الشفق .

واستدارت كايكو وأرت تاشيرو ظهر حزامها الحريريّ . وكانت تُرى على العقدة الكبيرة المنتفخة سلسلة جبال واللون المفوّى الغائر لسماء شفَقيّة .

واستطردت كايكو وهي تولي الشاب ظهرها :

ـ الظهر والبطن ليسا على انسجام . إن من رسم هذا « الأوبي » فتاة شاذة ، فهو من أجل هذا غريب !

لم يكن تاشيرو يستطيع أن ينتزع بصره من المزيج بين اللون المفوّى ولون عنق كايكو الدقيق الذي كان شعرها المرفوع يُبرز جماله .

وكان مكتب للسيارات العمومية المطلوبة من شركة الطيران تحت تصرّف الركاب المتّجهين الى طوكيو . واندسّ أربعة ركاب على عجل في السيارة الأولى ، وفيما كان تاشيرو يتردّد في اتخاذ خطوته ، وصلت سيارة أخرى استطاعت كايكو وهو ان يستقلاّها وحدهما . وفيما كانت السيارة تغادر المطار ، قال تاشيرو كما لو أن الفكرة أتته في التوّ :

ـ لم يُتح دون شك وقتٌ لتناول العشاء حين أتيتِ لمرافقتي في مثل هذه الساعة ؟

ـ انت ما تزال تعاملني كأجنبيّة ! لم تكن لديّ أية رغبة في تناول الغداء كذلك . سآكل شيئاً معك ، حين نصل الى كيوتو .

ثم أضافت كايكو ، كأنها تهمْس :

ـ لقد راقبتك ، لو تعلم ، وأنت تهبط من الطائرة . كنت السابع في الخروج .

ـ السابع ؟ صحيح ؟

ردّدت كايكو بوضوح :

ـ نعم ، السابع . وكنت تحدّد نظرك برأس حذائك وانت تهبط . ولا مرةً ، نظرتَ في اتجاهي.لو كنت تفكّر بأن أحداً كان ينتظرك ، ألم يكن طبيعياً ان تبحث عنه بعينيك ؟ولكنك كنت تمشي خافض الرأس ، ضائع النظر . وقد بلغ من خجلي لأني أتيت للقائك أني وددت لو أختبيء !

ـ لم أكن أفكر أنك ستأتين حتى مطار ايتامي .

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا بعثت لي برسالة

مستعجلة لتنبئني بساعة وصول طائرتك ؟

ـ أفترض أن ذلك كان من أجل ان أعطيك الدليل على أني قادم حقاً الى كيوتو .

ـ كانت رسالتك في مثل إيجاز برقية ! ليس فيها غير ساعة وصول الطائرة ! لقد تساءلت عما اذا لم تكن تريد أن تضعني في الامتحان وترى اذا كنت سآتي ام لا لانتظارك في أيتامي ؟ مهما كان الأمر ، فقد أتيت .

ـ أن أضعك في الامتحان . . . لو كانت هذه نيّتي حقاً ، أما كنت بحثت عنك بعينيّ في الجموع لدى هبوطي من الطائرة ؟

ـ لم تذكر لي في رسالتك اسم فندقك في كيوتو . فلو لم أجيء الى المطار ، فكيف كان لنا ان نلتقي ؟

تمتم تاشيرو : ـ الحقيقة اني كنت حريصاً فقط على إبلاغك عن مجيئي الى كيوتو .

ـ إنني لا أحب ذلك ! . . فأنا لا أفهم ماذا في رأسك !

ـ على كل حال ، كنت أنوي ان أتلفن لك .

ـ ولئن لم تفعل ذلك ، لكنت عدت الى كاماكورا كما جئت ؟ أكنت تحرص ببساطة على أن أبلّغ نبأ مجيئك الى هنا ؟ وحين بعثت لي بتلك الرسالة العاجلة ، أكنت تسعى الى السخرية مني ، الى إذلالي ، بأن تكون في كيوتو ولا تتنازل برؤيتي ؟ . . .

ـ لا ، اذا كنت قد أرسلت لك هذه الرسالة ، فان ذلك من أجل أن أعطي نفسي الشجاعة على لقائك .

ـ الشجاعة على لقائي ؟

لم يكن صوت كايكو ، وهي في مفاجأتها ، الا تمتمة عذبة .

ـ هل أستطيع أن أغتبط لذلك ، أم ينبغي بالعكس أن أحزن له ؟

وظلّ تاشيرو على صمته .

ـ لا جدوى من الردّ عليّ . . . أما أنا ، فيُسعدني أني أتيت . ولكن ليس ضرورياً أن يكون المرء شجاعاً ليلتقي فتاة مثلي . . . إنه يتفق لي أحياناً أن تأخذني رغبةٌ فظيعةٌ في الموت . إنك تستطيع أن تضربني ، أن تركلني بقدميك ، فلا تنزعج !

ـ ماذا دهاك حتى تقولي فجأة مثل هذه الأشياء ؟

ـ ليس هذا فجأة ! انا فتاة على هذا الشكل ! فلست أعرف من يستطيع ان يحطم كبريائي !

ـ أخشى أن ليس في طبعي ان أجرح كبرياء أيّ كان !

ـ هذا في الواقع هو الانطباع الذي تعطيني إياه ، ولكن هذا لا يمكن أن يستمر هكذا . . . هيّا ! اركلني بقدميك بكل قواك !

ـ لماذا تقولين مثل هذه الأشياء ؟

ـ لا أدري . . . .

وأمسكت كايكو شعرها بيدها لتحميه من الريح التي كانت تدلف من نافذة السيارة . ثم استطردت :

ـ ربما لأنني شقيّة . . . حين هبطتَ من الطائرة ،

كانت هيئتك كئيبة جداً بينما كنت تتوجّه ، خافض الرأس ، نحو قاعة الانتظار . هل هناك سببٌ يجعلك حزيناً ؟ لقد أتيت للقائك ، وقد انتظرتك ، ولكن يبدو كما لو أنني لم أكن موجودة بالنسبة اليك ؟

والواقع أن تاشيرو إنما كان يفكر بكايكو حين كان متجهاً الى قاعة الانتظار . ولكنه لم يكن يستطيع الاعتراف بذلك للفتاة .

ـ إن هذه الفكرة بالذات تجعلني شقيّة . ذلك أنني أنانية . . . ما الذي ينبغي أن أفعل لتشعر بوجودي ؟

اشتدّ صوت تاشيرو وهو يقول :

ـ أفكّر فيك بلا انقطاع . في هذه اللحظة نفسها ، مثلاً . . .

تمتمت كايكو : ـ في هذه اللحظة نفسها . . . في هذه اللحظة نفسها ، إنما تفكر بي أنا . إنه لغريب أن أكون هكذا الى جانبك : إنه من الغرابة بحيث أحسب أنني سأصمت وأسمعك تتكلّم .

تجاوزت سيارة الأجرة مصانع « ايباراكي » و« تكاتسوكي » الجديدة . وانبثقت أمامهما روابي « يامازاكي » مضيئة إضاءة عنيفة ، ومصفاة « سانتوري » للويسكي . وسألته كايكو :

ـ لم تهتزّ بك الطائرة اهتزازاً مفرطاً ؟ لقد هطل عندنا في كيوتو مطر شديد في المساء . فقلقت عليك .

ـ لم تهتزّ اهتزازاً مفرطاً ، ولكن حسبت ذات لحظة أن

الطائرة ستُسحق . ظننت وأنا أنظر من النافذة أنها ستصطدم الجبال السود التي كانت تسدُّ عليها المرور .

وبحثت يدُ كايكو عن يد الشاب على ركبتيه .

قال تاشيرو : ـ ولكن ما كنت قد حسبته جبالاً لم يكن في الواقع إلا سُحباً سوداً .

وكانت يده جامدة تحت يد كايكو . وخلال بعض الوقت ، لم تتحرّك يد الفتاة هي ايضاً .

ودخلت سيارة الأجرة الى كيوتو . واتجهت الى الشرق ، نحو « الجادة الخامسة » . لم تكن أية نفحة من ريح تأتي لتحرّك غصون أشجار الصفصاف الباكية ، ولكن يبدو أن المطر كان قد جلب بعض الرطوبة . كانت « روابي الشرق » تقوم بعيداً عن صفوف الصفصاف التي كانت تحاذي الشوارع العريضة الغارقة في الظلام . ولم يكن صفّ الروابي يبرز عند السماء المنخفضة والمغطّاة . ومع ذلك فقد بدأ تاشيرو يشمّ جوّ كيوتو عند حوافي « الجادة الخامسة » .

واتجهت السيارة نحو « هوريكاوا » وأنزلتهما في شارع « واك » أمام مكتب الخطوط الجوية اليابانية .

وكان تاشيرو قد حجز غرفة في فندق كيوتو . وقد قال :

ـ أريد أن أضع أمتعتي في الفندق ، فلنذهب اليه مشياً على الأقدام ، إنه على خطوتين من هنا .

ـ لا ، لا .

قالتها كايكو وهي تهزّ رأسها نفياً ، ثم صعدت ثانية الى

سيارة الأجرة التي كانت تنتظرهما ، وحثّت تاشيرو على أن يفعل مثلها . وقالت للسائق :

ـ خُذنا الى كياماشي . في أعلى الجادة الثالثة .

وقال تاشيرو للرجل : ـ وفي الطريق ، توقّفْ لحظة عند فندق كيوتو . . .

ولكن كايكو قاطعته : ـ لا جدوى من التوقّف عند الفندق . بل خذنا توّاً الى كياماشي ، من فضلك .

ودهش تاشيرو أن يرى السيارة تدلف في زقاق ضيّق وتُنزلهما عند مدخل بيت شاي صغير في كياماشي . وأُدخلا الى غرفة مكوّنة من أربع حُصر ونصف كانت تطلّ على بحيرة كامو .

ـ ما أجمله منظراً !

لم يكن تاشيرو يستطيع ان ينزع بصره عن النهر .

ـ كايكو ، كيف عرفت هذا المكان ؟

ـ لقد اعتادت أُستاذتي التردّد عليه .

التفت اليها تاشيرو قائلاً :

ـ أستاذتك؟ تقصدين الآنسة اوينو ؟

ـ نعم . الآنسة اوينو .

ونهضت كايكو فغادرت القاعة . وتساءل تاشيرو : أتراها قد ذهبت توصي على العشاء ؟ وبعد خمس دقائق ، عادت الفتاة ، فجلست قائلة :

ـ اذا لم تكن ترى مانعاً فلماذا لا نبقى هنا ؟ لقد اتصلت لتوّي بالفندق لألغي حجزك .

ـ ماذا ؟

كان تاشيرو مصاباً بالذهول ينظر الى الفتاة . وخفضت كايكو عينيها بوداعة .

ـ استميحك العذر . لقد حرصت على أن أعرفك في مكان أعرفه .

فلم يدر تاشيرو كيف يجيب .

ـ أرجوك . إبق هنا . إنك لن تبقى في كيوتو الا يومين او ثلاثة ، أليس كذلك ؟

ـ بالفعل .

رفعت كايكو عينيها . كان حاجباها الجميلان اللذان لم يكن القلم قد لمس خطّيهما المتساويين يمنحان عينيها السوداوين العميقتين هيئة براءة . وكانا يبدوان أفتح قليلاً من رموشها . ولم تكن قد أمرّت الاّ طبقة خفيفة من الحُمرة المصفرّة على شفتيها المرسومتين رسماً رائعاً واللتين كان شكلهما بالغ الكمال . ولم تكن تبدو قد وضعت مسحوق أساس ولا حُمرة خدّين .

قالت كايكو وهي تخفق جفنيها :

ـ كفى ! لماذا تنظر إليّ هكذا ؟

ـ إن رموشك طويلة جداً . . .

ـ ليست هي رموشاً اصطناعية . شُدَّ عليها وسترى !

ـ حتى أكون صريحاً ، إن لديّ رغبة شديدة بأن آخذها بين أصابعي وأشدّ عليها !

أغمضت كايكو عينيها وقرّبت وجهها قائلة :

ـ هيّا آفعل ! لعلّها تبدو طويلة الى هذا الحدّ لأنها ملويّة ؟

وانتظرت كايكو ، جامدة الوجه ، ولكن تاشيرو لم يجرؤ على قرص رموشها بين أصابعه .

ـ افتحي عينيك . انظري نحو الأعلى قليلاً وافتحي عينيك اكثر .

وقامت كايكو بما طلبه منها تاشيرو .

ـ هل تريد إذن ، يا تاشيرو ، ان أنظر في عينيك باستقامة ؟

أقبلت خادمة تحمل « الساكي » والبيرة والمسلّيات .

وقالت كايكو وهي تسترخي :

ـ هل تشرب « الساكي » ام البيرة ؟ أما أنا ، فلا أشرب .

كانت أبواب « الشوجي » الزالقة المواجهة للسطيحة مغلقة ، فلم يكونا يستطيعان أن يريا ما يجري خلفها ، ولكن يبدو أن بعض الزبائن كانوا سكارى . وكان بعض فتيات « الجايشا » والراقصات « المايكو » قد آنضممن إليهم ، وكان هذا الجمع الصغير كلُّه يتحدّث بأصوات مرتفعة حين انبعث صوت غيتار صغير تصاحبه آلات موسيقيين رحّل . فصمت الجميع فجأة .

سألته كايكو : ـ ما هي مشاريعك ليوم غد ؟

ـ أريد أولاً أن أزور قبراً في الجبل ، قرب معبد « نيسونين » . انه قبر جميل ، ضريح عائلة

« سانجونيشي » .

ـ قبر ؟ إن بوسعنا أن نزوره معاً . غداً ، أودّ أن تأخذني في نزهة بالقارب الذاتي الحركة على بحيرة « بيوا » ولكن بوسعنا أيضاً أن نقوم بهذه النزهة في يوم آخر .

بدا التردّد على تاشيرو : ـ بالقارب الذاتي الحركة ؟ إنني لم أركب قطّ مثل هذا القارب ، ولن أعرف كيف أقوده .

ـ أنا أستطيع ذلك .

ـ هل تحسنين السباحة ، يا كايكو ؟

قالت كايكو وهي تنظر الى تاشيرو :

ـ في حالة انقلاب القارب ؟ سوف تساعدني . ستساعدني ، أليس كذلك ؟ سوف أتشبّث بك .

ـ إياك أن تفعلي ذلك ! إذا تشبّثت بي ، فلن يمكنني أبداً أن أنجدك .

ـ ولكن ماذا ينبغي عليّ أن أفعل إذن ؟

ـ سأمسككِ بين ذراعيّ ، من الخلف . . . .

قالها تاشيرو وهو يصرف عينيه كما لو أن شيئاً قد بهَره . كان يتصوّر نفسه في الماء ، ضامّاً بين ذراعيه هذه الفتاة الرائعة . فاذا لم يضمّها بقوة كافية ، فإن حياتيهما كلتيهما ستكونان في خطر .

قالت كايكو : ـ لا يهمّ اذا انقلب القارب !

ـ أنا أجهل إن كان بإمكاني أن أنقذك !

ـ ما الذي يحدث آنذاك ، إذا لم تستطع ؟

ـ لنوقف هنا هذا الحديث ، هل تريدين ؟ إن هذه

النزهة بالقارب تقلقني ، فالأفضل أن نعدل عنها .

- لا ، بالتأكيد . إننا لن ننقلب ، فاطمئنّ ! إنني أتوقّع بهجة كبيرة من هذه النزهة ! وملأت كايكو قدح تاشيرو بالبيرة .

- ألا تريدين أن ترتدي كيمونو قطنياً خفيفاً ؟

- لا ، إنني هكذا على ما يُرام .

في زاوية من الغرفة ، كان كيمونو رجالي وآخر نسائيّ موضوعين أُحدهما فوق الآخر . وقد تجنّب تاشيرو النظر اليهما . ماذا كان يعني حضور ذلك الثوب النسائي في هذه الغرفة التي حجزتها كايكو ؟

لم تكن الغرفة تنفتح على غرفة ملحقة . ولم يكن تاشيرو يستطيع أن يقرّر نزع ثيابه أمام كايكو وارتداء كيمونو خفيف .

وحملت الخادمة الطعام ، من غير ان تقول كلمة ومن غير أن تلقي نظرة على كايكو . وكانت الفتاة صامتة كذلك .

وبدأ يميّزان نغم «شاميزان»[1] منبعثاً من سطيحة مطلّة على النهر . وكانت تبلغهما من سطيحات بيت الشاي الأحاديث المتبادلة بلهجة أوساكا وضجيج الزبائن المأخوذين بالشراب . وضاعت في البعيد مصاحبة الغيتار وأغاني الموسيقيين الرحُل العاطفية .

ولم يكونا يستطيعان ، من غرفتهما ، ان يريا نهر « كامو » .

---

(١) شاميزان : نوع من الغيتار الياباني التقليدي ذي الأوتار الثلاثة .

سألت كايكو :

ـ هل يعرف أنك في كيوتو ؟

أجاب تاشيرو : ـ تقصدين أبي ؟ إنه ، في الواقع ، على علمٍ بذلك . ولكنه لا يعتقد بالتأكيد أنك جئت تنتظرينني في ايتامي ، وأنني الآن بصحبتك .

ـ يسرّني جداً أن أعرف أنك جئت تلقاني هكذا ، من غير أن تقول كلمة لذويك . . .

تمتم تاشيرو : ـ ومع ذلك ، فأنا لا أسعى الى إخفاء اي شيء عن أبي . أيكون هذا هو الانطباع الذي أعطيه ؟

ـ أجل .

ـ وأنتِ ، يا كايكو ؟ أُستاذتك الآنسة اوينو ؟

ـ لم أنبس لها ببنت شفة . ولكنني أتساءل اذا لم يكن لدى أبيك والآنسة اوينو استشعار بالأمر ، واذا لم يكونا يشكّان قليلاً في أننا هنا معاً . على أن هذا لن يسوءني . . .

ـ لا أعتقد . إن الآنسة اوينو لا تعرف شيئاً من أمرنا . هل قلتِ لها شيئاً ، يا كايكو ؟

ـ لقد رويت لها أنك رافقتني لزيارة المدينة حين قصدتك في كاماكورا . وحين قلت لها إنني كنت أحبك ، أصبحت ممتقعة الوجه .

صمت تاشيرو ، فتابعت كايكو :

ـ هل تعتقد أن باستطاعتها ان تظل لا مبالية حين يتعلّق الأمر بابن الرجل الذي أحبته والذي أشقاها الى هذا الحدّ ؟ أنها لم تخفِ عنّي كم هزّتها ولادة أختك ، بعد فترة من ترك

أبيك إياها .

كانت عينا تاشيرو ترسلان الشرر ، وكانت حمرة خفيفة تلوّن خدّيه .

لم يكن تاشيرو يعرف ما ينبغي قوله .

ـ في الوقت الحاضر ، تعمل الآنسة اوينو في رسم لوحة عنوانها « صعود طفل الى السماء » . إنها لوحة من طراز صور « كوبوداشي » طفلاً ، تمثّل وليداً جالساً فوق كمّ زهرة لوتس . وقد أسرّت لي الآنسة اوينو أنها صورة طفلتها التي وُلدت قبل الأوان وماتت حتى قبل أن تستطيع الجلوس . (وصمتت كايكو لحظة) لو عاشت هذه الطفلة لكانت شقيقتك ولكانت أكبر سنّاً من اختك الصغرى .

ـ لماذا تروين هذا كله ، لي أنا ؟

ـ أريد أن انتقم للآنسة اوينو ، هذا هو السبب !

ـ تنتقمين لها من أبي ؟

ـ وأن أنتقم من أبيك . . . ومنك !

كان تاشيرو يحرّك القضيبين بشدّة ويقطع السمكة المشوية الموضوعة أمامه . وجذبت كايكو اليها صحن تاشيرو وأخذت تنتزع أشواك السمكة ببراعة .

ـ هل قال لك أبوك شيئاً عني ؟

ـ لا ، لا شيء خاصاً . . . إنني لا أتكلم معه عنك قط .

ـ ولماذا ذلك ؟

عند سؤال كايكو هذا ، أظلم وجه تاشيرو . وخُيِّل

اليه أن يداً دبقة كانت تمسّ صدره . وقد استطاع أخيراً ان يتمتم :

ـ إنني لا أتكلم ابداً عن النساء مع أبي .

ـ عن النساء ؟ . . لقد قلت : النساء ؟

وطافت بسمة جميلة على شفتيْ كايكو . وسأل تاشيرو بصوت جافّ :

ـ كيف تنوين الانتقام مني ، يا كايكو ؟

ـ كيف أتصوّر انتقامي ؟ ولكن اذا قلته لك ، لا يبقى ثمة انتقام . . ربما فعلته بأن أقع في حبّك . . . .

واتخذت عيناها تعبيراً بعيداً ، كما لو أنها كانت تنظر الى الدرب الذي يحاذي ضفّة النهر الأخرى .

وسألته :

ـ ألا يبدو ذلك مسلّياً لك ؟

ـ على الإطلاق . هكذا إذن ، سيكمن انتقامك في أن تقعي في حبّي ؟

فأومأت كايكو بوداعة ردّاً على استنتاج تاشيرو ، وتمتمت :

ـ إنها غيرة نسائية !

ـ غيرة ؟ وما سبب هذه الغيرة ؟

ـ لأنّ الآنسة اوينو ما تزال حتى اليوم تحبّ أباك . . . لأنها لا تحفظ له أية ضغينة من كونه قد أساء معاملتها . . .

ـ كايكو ، هل تحبّين إذن الآنسة اوينو الى هذا الحدّ ؟

ـ نعم . الى حدّ اني أريد الموت من أجلها . . . .

- ليس في آستطاعتي ان أعوّض عن الأذى الذي ارتكبه أبي سابقاً . وهل يكون لوجودي بقربك هذا المساء أية صلة بالماضي المشترك لأبيك وللآنسة اوينو ؟ أخشى أن يكون الأمر كذلك حقاً .

- هذا بديهيّ . فلو لم أكن أعيش مع الآنسة اوينو ، لكنت أجهل حتى وجودك نفسه في هذه الدنيا ، ولما التقينا على الاطلاق ، دون شك . . . .

- إنني لا أحب طريقتك في التفكير . إن فتاة في مثل سنّك تكون فريسة أشباح الماضي حين تفكر على هذا النحو . أمن أجل هذا كان عنقك رقيقاً الى هذا الحدّ ، وبالتالي جميلاً جداً ؟

- إن عنقاً أرقّ مما ينبغي يعني أن صاحبته لم تحبّ رجلاً قط . . . هذا على الأقل ما تقوله الآنسة اوينو . على أني أكره أن يكون لي عنق غليظ !

وقاوم تاشيرو إغراء أن يمسك بين يديه عنق الفتاة الفاتن .

- لكأنه همس شيطان . إنك ضحية رُقية مؤذية ، يا كايكو .

- لا . بل ضحية حبّي .

- إن الآنسة اوينو تجهل كل شيء عني ، أليس كذلك ؟

- لقد قلت لك مع ذلك ، لدى عودتي من كاماكورا انك لا بدّ أن تكون في رأيي صورة أبيك تماماً حين كان شاباً .

غضب تاشيرو وقال : - هذا خطأ كليّ . إنني لا أشبه

أبي على الاطلاق !

ـ ها هو ذا يغضب ! إنك لا تحرص على أن تشبهه ، أليس كذلك ؟

ـ منذ أن التقينا في المطار ، لا تنقطعين يا كايكو عن الكذب عليّ . إنك تكذبين عليّ لتخفي عني حقيقة تفكيرك .

ـ لم أكذب عليك .

ـ اذا كان الأمر كذلك ، فربما كانت هذه طريقتك المألوفة في التعبير ؟

ـ ان ما تقوله كريه !

ـ ألست أنت التي سمحتِ لي بأن أركلك بالقدمين ؟

ـ أتعتقد أن هذه هي الوسيلة الوحيدة لحملي على قول الحقيقة ؟ إنني لم أكذب عليك . أنت الذي بكل بساطة ترفض أن تفهمني وتخفي حقيقة تفكيرك ! وتجعلني شقيّة !

ـ هل أنتِ حقاً شقيّة ؟

ـ أجل ، أنا كذلك . او بالأحرى لا ، لست بعدُ شقيّة .

ـ وأنا لا أعرف أكثر منك ما الذي أفعله هنا ، معك !

ـ ألست هنا لأنك تحبّني ؟

ـ بالتأكيد . . ومع ذلك . . .

ـ مع ذلك ؟

لم يجب تاشيرو .

ـ مع ذلك ماذا ؟ ماذا تقصد ؟

تناولت كايكو يد تاشيرو بين راحتيها وهزّتها . وقال

تاشيرو :

ـ إنك لم تأكلي شيئاً ، يا كايكو .

والحقيقة أن الفتاة لم تكن قد تناولت إلاّ قطعتي سمك نيء او ثلاثاً .

ـ ان العروس أيضاً لا تأكل في وجبة عرسها .

ـ ها أنت تعودين الى طريقتك في الكلام !

ـ ألست انت من بدأ في التحدث عن الطعام ؟

أيّام القيظ الكبرى

كانت اوتوكو تميل الى الهزال في أيام القيظ الصيفية الكبرى .

في طوكيو ، حين كانت ما تزال صغيرة ، لم تكن تقلق قط لهبوط وزنها ، حتى أنها لم تكن تكاد تلاحظ ذلك . ولم تشعر بالأمور شعوراً واضحاً الا حوالى الثانية والعشرين او الثالثة والعشرين من عمرها ، حين أتت تقيم في طوكيو . وقد نبّهتها الى ذلك أمها ايضاً . وكانت تقول لها :

ـ أنت ايضاً ، تهزلين في الصيف ، أليس كذلك ؟ إنك تأخذين هذا مني . إن لنا كلتينا نقاط الضعف نفسها . كنت أظنّ أن لك مزاجاً شديد الحدّة ، ولكنك على الصعيد الجسماني ، أنتِ ابنتي بحقّ. ليس هناك مجال للنقاش في ذلك .

ـ انا لا أملك إطلاقاً مزاجاً حادّاً .

ـ بل أنت ذات مزاج عنيف .

ـ على الإطلاق .

ولم يكن ثمة شك بأن ام اوتوكو كانت تفكر بعلاقة ابنتها مع أوكي وهي تتحدث هكذا عن « المزاج الحادّ » او « العنيف » . ولكن ألم يكن ينبغي بالأحرى ان يُرى في ذلك

حيويّة فتاة أفقدتها عاطفتها الرشد ؟

كانتا قد أقامتا في كيوتو لكي تنسى فيها اوتوكو شقاءها ، وكانت أُمها ، بدافع الحذر ، قد حرصت على ألاّ تنطق أيٌّ منهما بآسم اوكي قط . ولكن في تلك المدينة الغريبة التي لم تكونا تعرفان فيها أحداً ولم يكن أحد ، سواهما ، يستطيع ان يعزّي قلبيهما الجريحين ، لم يفتهما ان تلاحظا ان اوكي كان دائم الحضور في فكرهما . كانت اوتوكو ، في نظر أمها ، أشبه بمرآة كانت تنعكس عليها صورة اوكي ، وكانت اوتوكو ترى أمها كمرآة ثانية تعكس الصورة نفسها . وكانت المرآتان كلتاهما تعكسان لهما ، بدورهما ، صورتيهما المتبادلتين .

فيما كانت اوتوكو ، ذات يوم ، تكتب رسالة ، فتحت القاموس فوقع نظرها على الحرف الصيني الذي يعني « فكر » . وفيما كانت تقرأ بعينيها معاني هذا الحرف الأخرى التي يمكن ان تعني كذلك « فكرّ طويلاً بشخص » و « لا يستطيع النسيان » وكذلك « ان يكون حزيناً » ، انقبض قلبها . انها لم يكن يمكنها حتى ان تراجع قاموساً بعد ؛ فقد كانت ، هناك ايضاً ، تجد اوكي ثانية . كانت كلمات لا تُحصى تجعلها تفكر فيه . وأن تربط اوتوكو كل ما كانت تراه وما كانت تسمعه بأوكي ، لم يكن ذلك يعني أقلّ من أن تعيش . ولئن كانت لا تزال تحتفظ ببعض الإحساس بجسمها ، فذلك لان اوكي كان قد ضمّه وأحبّه .

وكانت اوتوكو تدرك تماماً ان أمها كانت تتمنّى أن تراها تنسى اوكي . كانت تلك هي الرغبة الوحيدة لهذه المرأة

المتوحدة التي لم يكن لها أبناء آخرون . ولكن اوتوكو لم تكن ، هي نفسها ، تتمنى أن تنسى . ولم يكن ذلك لأنها لم تكن تستطيع أن تنسى ، بل لأنها على الأصح لم تكن تريد ذلك . كانت تبدو وكأنها تتعلّق بالذكرى التي كانت تحفظها من اوكي ، كما لو أن العيش بدون ذلك كان مستحيلاً عليها . ولو أنها قد استطاعت ، وهي في السابعة عشرة ، ان تغادر عيادة الطبّ النفسي ، فلم يكن ذلك إطلاقاً بسبب أن عاطفتها نحو اوكي قد هدأت ، بل لأنه كان يبدو أن هذه العاطفة قد زُرعت الى الأبد في كيانها .

بينما كان اوكي ذات يوم يمارس معها الحبّ ، أنّت من الألم وابتهلت اليه أن يتوقّف.وقد خفّف اوكي ضمّته ، ففتحت عينيها . كان بؤبؤاها الاسودان ملتمعين منديّين بالدموع :

ـ انني لا أرى وجهك ، أيها الصبيّ الصغير . إنه مهتزّ كما لو كان في الماء .

حتى في لحظة مماثلة ،كانت، وهي الصبيّة الصغيرة،قد نادت اوكي « بصبيّ صغير» .

ـ لو متّ يوماً فلن أستطيع العيش بعدك . هذا صحيح ، لن استطيع العيش .

كانت دموع تلتمع في زوايا عينيها . لم تكن دموع حزن تبلّل هكذا عينيها ، بل دموع عزاء .

وقال اوكي :

ـ ولكن اذا متّ أنت ، فلن يبقى هناك أحدٌ ليتذكّرني .

ـ اذا مات الرجل الذي أحبّه ، فلن أتحمّل الآستمرار في العيش وأنا أتذكّره . لن أستطيع ذلك . وأفضّل أن أموت . وأنت لن تمنعني من هذا ، أليس كذلك ؟

وأسندت اوتوكو وجهها الى عنق اوكي وهزّت رأسها .

التزم اوكي الصمت فترة ، وهو يعتقد بأن ذلك لم يكن الا لطفاً متكلفاً لفتاة عاشقة ، ثم قال :

ـ إذا صوّب أحدهم مسدّسه عليّ او هدّدني بمُديْة ، فأنا أفترض أنك لن تتردّدي في الوقوف بيني وبينه من أجل حمايتي ؟

ـ بالتأكيد . سأكون سعيدة بأن اعطي حياتي من أجلك . . .

ـ لم يكن هذا ما أفكر به . اذا وجدت نفسي فجأة في خطر ، فهل ستدافعين عني فوراً ، حتى من غير أن تفكّري ؟ هل تأتين لانقاذي بلا أدنى تردّد ؟

فأومأت اوتوكو موافقة : ـ بالتأكيد . . .

ـ لن يفعل أيّ رجل هذا من أجلي . وحدها فتاة صغيرة مثلك ستحميني ، ولو خاطرت بحياتها . . .

ـ لست فتاة صغيرة ، لست فتاة صغيرة ! . .

ردّدتها اوتوكو مرتين .

ـ ما الذي ليس بعدُ صغيراً فيك ؟

قالها اوكي وهو يبحث عن نهدي اوتوكو .

وكان اوكي يفكر بالطفل الذي كانت اوتوكو آنذاك تنتظره . اذا حدث له فجأة ان مات ، فما الذي سيحدث لهذا

الولد ولأمه ؟ ولكن هذا لم تعرفه اوتوكو الا فيما بعد ، حين قرأت « فتاة في السادسة عشرة» .

حين أشارت أمهـا الى أنهـا كانـت تهـزل خلال ايام القيظ الكبرى في الصيف ، ألم تكن تريد أن تلمّح الى أنها لم تكن بعد ذكرى اوكي هي التي تسبّب هزال ابنتها ؟

وبالرغم من بنية اوتوكو الرقيقـة ، وكتفيهـا الهابطتـين ودقّة عظامها ، فإنها لم تمرض قط مرضاً عنيفاً . لقد هزلـت طبعاً بعد ولادتها السابقة لأوانها ، وبعد آنفصالها عن اوكي ، وبعد آنتحارها الفاشل ، وبعد حجزهـا في عيادة للأمـراض العقلية . وقد وهنت قواها ، وكانت عيناها تلتمعان ببريق غير طبيعي . ومع ذلك ، فإن جسمها كان قد استعاد بعض قواه قبل ان يشفى قلبها . وبسبب قوة جسم اوتوكو الفتيّ ، فقد مالت الى الحكم بان الألم العنيف الذي كان قلبها ما يزال يعانيه هو في غير محلّه . وما كان لأحد ان يلاحظ حزنها لو لم يكن في عينيها ، وهي تفكر بأوكي ، مثل تلك الكآبة . ولـكن هذا الظلّ من الكآبة الذي كان يُقرأ في نظرها والـذي لم يكن إلاّ رغبتهـا في أن تكون محبوبـة ، كان يزيدهـا جمـالاً في أعـين الآخرين .

كانت اوتوكو تعرف ، وهي بعد فتاة صغيرة ، ان أمها كانت تفقد من وزنها في الصيف . وكانت تمسح ، بلطف ، ظهرها وصدرها الراشحين بالعرق ، ولم تكن تجهل ، وان لم تتحدث بذلك قط ، أن هزال أمها كان سببه أنها لم تكن تحتمل الحرّ قط . ولكن اوتوكو ، بسبب فتوتّها دون شك ، لم تكن

قد لاحظت أنها تملك استعداد أمها نفسه ، الى أن نبّهتها هذه الى ذلك وكانت اوتوكو ، حتى قبل بلوغها العشرين ، تميل الى أن تفقد من وزنها حين يكون الصيف مفرط القيظ .

وآبتداءً من الخامسة والعشرين ، لم تعد ترتدي الا الكيمونو ، ولهذا كان هزالها أقلّ ظهوراً مما لو آرتدت التنّورة او البنطال . ومع ذلك ، فقد كان هزال جسمها في بعض المواضع ملموساً . وكان هذا الفقدان للوزن يذكّر اوتوكو بأمها ، التي ماتت بعد فترة من ذلك ، والتي ورثت منها هذه الخصوصية .

ومع الأعوام ، كان يبدو ان اوتوكو تزداد هزالاً وتصبح أقل احتمالاً لقيظ الصيف .

- أيّ دواء ينبغي ان آخذ لأعاني أقلّ من الحرّ ؟ إنني أطلع على انواع مختلفة من الإعلانات في الصحف ، ولكن هل من دواء خاصّ قد جرّبتِه ؟

هذا ما سألته أمها يوماً ، فأجابت إجابة متهرّبة :

- إن جميع هذه العقاقير ناجعة أقل او أكثر . (ثم أضافت بلهجة مختلفة) اسمعي يا اوتوكو : إن افضل دواء للمرأة هو الزواج .

فلم تجب اوتوكو .

- الرجل هو الدواء الذي يمنح النساء الحياة . وعلى جميع النساء أن يتناولن هذا الدواء .

- حتى ولو كان سمّاً ؟

- حتى في هذه الحالة . لقد حدث لك ، يا اوتوكو ،

أن تناولت السمّ من غير أن تعرفي ذلك ، وأنت حتى اليوم غير شاعرة بهذا . على أن ثمة ترياقاً. إن سمّاً ثانياً هوأحياناً ضروري ليقضي على الأول . حتى لو كان الدواء مُرّاً ، أغمضي عينيك وآبتلعيه دفعة واحدة . قد يحدث ايضاً أن يعطيك الغثيان او يرفض أن ينزل في حلقومك . . .

وماتت امّ اوتوكو من غير أن تتناول آبنتها الدواء الذي كانت وصفته لها . وكان ذلك دون أدنى شك حسرتها الكبرى . ولم تكن اوتوكو قد آعتبرت اوكي قط ، خلافاً لما قالت أمّها ، سمّاً . حتى وهي في غرفة المرض ذات النافذة بقضبانها الحديدية ، لم تحسّ مرة واحدة كراهية او حقداً تجاهه . بكل بساطة ، أضاع حبُّها رشدها . والسمّ الذي تجرّعته على أمل الانتحارقد انتُزع بعناية ، وفي وقت قصير ، من جسمها ، من غير أن يبقى له أدنى أثر . وكذلك انتُزع من جسمها اوكي والطفل الذي حملته منه ، وآثار الجروح التي خلّفاها فيها لن تلبث بدورها أن تختفي ذات يوم . ولكن حب اوتوكو لأوكي لم يُنتزع ، بل لم يفقد شيئاً من قوته .

كان الزمن قد مضى . ولكن ألا تراه يتخذ مجاري مختلفة بالنسبة لكل انسان ؟ إن الزمن اشبه بنهر ، يجري أحياناً بسرعة ، وأحياناً اخرى بإيقاع أبطأ . بل يتفق له ايضاً أن يكفّ عن الجريان وأن يأسن في موضعه . ولئن كان الزمن الكوني يجري سوياً لجميع الكائنات البشرية ، فإنّ كل إنسان يتحرّك ضمنه وفق إيقاع خاص به .

لم تكن اوتوكو بعدُ في السابعة عشرة ، بل في

الأربعين . ومع ذلك ، وما دام اوكي حاضراً أبداً في قلبها فقد كانت تتساءل احياناً اذا لم يكن الزمن ، بالنسبة اليها ، قد كفَّ عن الجريان وقد أسن . أم لعلّ ذكرى اوكي قد جرت بمثل إيقاعها نفسه ، شبيهة بزهرة يحملها مجرى نهر . على أن اوتوكو كانت تجهل كيف كان الزمن قد جرى بالنسبة لأوكي . فبالرغم من أنه لم ينْسَها بالتأكيد ، فإنّ حياته لم تمضِ وفق إيقاع حياتها هي . إن الزمن لا ينقضي أبداً بشكل واحد ، حتى بالنسبة لحبيبين . إن ذلك مصير لا يستطيع أحد ان يفلت منه .

هذا الصباح ، دعكت اوتوكو باطراف أصابعها جبينها ، كما في كل صباح ، ولامست بيدها رقبتها وإبطيها . كانت بشرتها دَبقة . وخيِّل اليها أن الرطوبة التي كانت ترشح من جلدها قد انتقلت الى الكيمونو الذي كانت تلبسه للنوم وكانت تغيّره كل يوم .

كانت كايكو تحب رائحة العرق التي كانت ترشح من اوتوكو ، وذلك الدبق الذي كان يزيد بشرتها نعومة ، وكانت تأخذها الرغبة أُحياناً في انتزاع جميع الملابس التي ترتديها صديقتها . اما اوتوكو ، فلم تكن تحتمل ان تفوح رائحة عرَقها .

على ان كايكو كانت قد عادت في الليلة الفائتة عند الساعة الثانية عشرة والنصف فجلست بارتباك وهي تتجنّب نظرة اوتوكو .

كانت اوتوكو متمدّدة على السرير ، وكانت تحمي

عينيها ، بواسطة مروحة ، من النور الذي كان يهبط من السقف . كانت تنظر الى التخطيطات الاربعة او الخمسة المعلّقة بالجدار وكانت تمثّل وجوه أطفال . كانت تبدو مستغرقة في تأمّلها ، فلم تلق إلاّ نظرة سريعة على كايكو وهي تقول لها :

ـ هأنتِ ذي ؟ لقد تأخّرت جداً في العودة .

في العيادة ، لم يكن قد سُمح لاوتوكو أن ترى الوليد الخديج الذي كانت وضعته . وقد اكتفوا بالقول إن شعرها كان أسود فاحماً . وحين أرادت أن تعرف المزيد وطرحت على أمها السؤال ، أجابتها هذه :

ـ كانت طفلة جميلة . كانت تشبهك .

وقد فهمت اوتوكو آنذاك أن أمها كانت تقول ذلك لتعزّيها . لم تكن قد رأت قط أطفالاً مواليد . وفي هذه السنوات الاخيرة ، وقع تحت نظرها بعض صور لأطفال ولدوا لتوّهم فوجدتهم بشعين جداً . وكانت ثمة آنذاك صورة طفل كان ما يزال معلّقاً بأمه بالشريط السرّيّ ، وبدا ذلك لاوتوكو مدعاة للنفور .

ولهذا لم يكن لاوتوكو أية فكرة عن الوجه والهيئة اللذين كان يمكن أن يكونا لابنتها . كانت تتصوّر لهما ببساطة صورة في قلبها . كانت تعرف جيداً أنه لن يكون وجه آبنتها الصغيرة الميتة هو الذي سترسمه في « صعود طفل الى السماء » ، ولم تكن تحرص إطلاقاً على أن تصنع أثراً واقعياً . كانت ترغب فحسب أن تعبّر في هذه اللوحة عن حزنها وألمها أن تكون قد

فقدت هذه الطفلة . وكانت تلك الرغبة قد لاحقتها طوال اعوام حتى أصبحت نوعاً من رمز كانت تتغذّى منه كآبتها وتتّجه اليه أفكارها حين كانت تحسّ نفسها حزينة . وكان لا بدّ لهذا الأثر الفنّي أيضاً أن يرمز الى حياتها حتى ذلك الحين ، والى الحزن كلّه الذي يحيط بحبّها لأوكي .

على أن اوتوكو ، برغم هذه الجهود كلها ، لم تكن قد بلغت أن ترسم وجه طفل يستجيب لجميع هذه المطالب . كان للمسيح الطفل بين ذراعي العذراء مريم او للاطفال الملائكة الذين كانت قد رأتهم وجوه ذات قسمات مفرطة البروز ، ذات تعابير لبالغين مزّيفة بطابع قداسة - لم تكن اوتوكو تتمنّى أن ترسم وجهاً ذا قسمات واضحة او مطبوعة الى هذا الحدّ ، بل تتمنى ان ترسم بالعكس وجهاً جنّياً لا تنتمي روحه المكلّلة الى هذا العالم الأرضي ولا الى العالم الآخر ويعبّر تعبير ألم وسكون لا يخلو مع ذلك من حزن لا متناهٍ . بيد أن اوتوكو لم تكن ترغب في صنع عمل تجريدي .

اذا كانت معالجة الوجه لا بدّ أن تستجيب لمثل هذه المقاييس ، فبأية طريقة تعبّر اوتوكو عن الجسم المجعّد لوليد خديج ؟ كيف ترسم الأرضية والتفاصيل الثانوية ؟ ومن جديد ، قلّبت اوتوكو مجموعات الصور التي تحتوي لوحات لاوديلون رودون ولشاغال . ولكن الأوهام اللذيذة التي كان يغتذي منها شاغال كانت أشدّ غرابة لروحها الأسيويةمن أن تستوحيها على شكل او آخر .

ومرة اخرى ، كانت اللوحات القديمة ، اليابانية

النموذج ، التي تمثل « كوبوديشي » طفلاً هي التي عاودت ذهنها . وكانت هذه الصور تستمدّ أصلها من اسطورة تتعلق بحياة الرجل القديس وبموجبها يُرى « كوبوديشي » الطفل في الحلم جالساً على زهرة لوتس ذات ثماني أوراق وهو يتحادث مع البوذا . وفي تلك الرسوم ذات الأسلوب التقليدي ، كان « كوبوديشي » يجلس على تويج زهرة لوتس ، مستقيم الصدر . اما في الرسوم الأقدم ، فقد كان له تعبير أثيري وقاس ، ولكن ملامحه كانت ترقّ وتصبح أشدّ إغراء في الآثار الأقلّ قِدَماً ، الى حدّ أنه كان ممكناً أحياناً اختلاط وجه القديس الرجل طفلاً بوجه فتاة جميلة .

تساءلت اوتوكو اذا لم تكن ، بسبب أنها قد سبق أن فكرت بأعماق نفسها بـ « صعود طفل الى السماء » ، انما فكرت بتمثيل كايكو بالقسمات الكلاسيكية لعذراء حين طلبت الفتاة منها ، في الليلة التي تسبق عيد القمر بدراً ، ان ترسم صورتها . ولكن شكاً ولد في نفسها ، بعد ذلك بقليل . أما كان ينبغي أن ترى في الجاذبية التي كانت تحسّها نحو صور « كوبوديشي » ولداً ، التعبير عن لونٍ من النرجسية ؟ ألم تكن راغبة كذلك بأن تُرسم صورتُها هي نفسها ؟ وفي قسمات القديس الرجل طفلاً ، وكذلك في قسمات « عذراء » ، ألم تكن تبحث عن صورة مطهّرة لها هي بالذات ؟ كان ذلك الشك يخترقها كخنجر أدخلته بيدها ، ولكن على مضض منها ، في صدرها ؟ لم تحاول ان تُنفذ الخنجر أعمق من ذلك في لحمها وانتهت الى انتزاعه . ولكن الخنجر خلَّف فيها نُدباً

كان يؤلمها من حين الى حين .

لم تكن اوتوكو تنوي طبعاً أن تنقل نقلاً أعمى رسوم « كوبو ديشي » طفلاً لترسم صورة آبنتها الصغيرة الميتة او صورة كايكو . ومع ذلك ، فهي لم تكن تستطيع ان تطردها من ذهنها . والعناوين نفسها التي آختازت ان تطلقها على رسومها « صعود طفل الى السماء » و« صورة عذراء » كانت ذات معنى في هذا الصدد . كانت اوتوكو تتمنى ان تطهّر ، في هذه الرسوم ، بل ان تقدّس الحبّ الذي كانت تحمله لابنتها الصغيرة الميتة ولكايكو . كانت تحسّ بعض الانزعاج أن تسمّي صورة كايكو« صورة عذراء » ، بل هي قد نكّدت قليلاً على الفتاة حين زعمت أنها ستطلق على هذا الأثر عنوان « تجريد لامرأة شابة رسّامة » ، بالرغم من أنها لم تفكر إطلاقاً برسم عمل تجريدي . كانت ترغب في رسم صورة ذات إيحاء ديني يفيض بالحبّ .

كانت كايكو ، حين زارتها للمرة الاولى ، قد اعتبرت الصورة التي رسمتها اوتوكو لأمها صورة ذاتية رائعة لصديقتها . وفيما بعد ، كلّما وقع نظر اوتوكو على اللوحة المعلقة بالجدار ، كانت تتذكّر غلطة الفتاة وكلماتها خاصة . وكان التعلّق الذي تكنّه اوتوكو لأمها هو الذي دفعها لأن تمثّلها في عزّ شبابها وقمة جمالها ، ولكن ألم يكن هذا الاختيار يشي حقاً ببعض النرجسية ؟ ربما كانت اوتوكو ، وهي تعتقد أنها ترسم أمها ، وبالرغم من تشابههما الكبير ، إنما كانت ترسم صورتها الذاتية ؟

إن طبيعـة ميتـة او منظـراً ، هما دون ريب ، فرصـة للرسام لأن يعبّر عن مشاعره وعن كيانه الخـاص . ومـا كان للرقة وللحزن الرحيم اللذين كانا ينبعثـان من الصـورة التـي رسمتهـا اوتـوكو لأمهـا إلاّ أن ينبعثـا كذلك من صورة ذاتية لاوتوكو . ولكن ما كان يبعث هذا الشعور بالرحمة إنما كان في تصـورات « كوبـوديشي » طفـلاً . إن في الرسـم الياباني الكلاسيكي عدداً كبيراً من اللوحات البوذية الرائعة وكذلك من صور النساء البديعة . ولئن لـم تكن اوتوكو تنجـح في إبعـاد رسوم القديس الرجل طفلاً ، فذلك بسبب لطافتها ، ولـكن كذلك بسبب عذوبتها التي ينضاف اليها شعور ما بالتقوى . وبالرغم من ان اوتوكو لم تكن متعصبّة لكوبو ديـشي ، فإنها لـم تكن تستطيع الامتنـاع عن الاعجـاب برسومهـا . بل إن العذوبة نفسها كانت تزيد في همومها .

كانت اوتوكو ما تزال تحب اوكي ، وابنتها الميتة وأمها ، ولكن أَلم يكن هذا الحب قد تغـيرّ منـذ ان كان بالنسبـة لهـا حقيقة ؟ أكان ممكناً للحب الذي كانت تحمله لهذه الكائنـات الثلاثة أن يتحول الى حبّ للذات ؟ لـم تكن اوتوكو ، طبعاً ، تحسّ هذا التحوّل . كان الشك قد تسرّب إلى نفسها من غير أن تحكم بأن من الخير مع ذلك أن تستوثـق من الأمـر . كان الموت قد فصلهـا عن ابنتهـا وعـن أمهـا ، وكانـت الحياة قد فصلتها الى الأبد عن اوكي . ومع ذلك ، فإن هذه الكائنات الثلاثة كانت حتـى اليوم ما تزال تعيش فيهـا . ولكنهـا ، في الواقع ، كانت هي التي تعيش ، وكانـت ، بسبـب ذلك ،

تمنحهم الحياة . لم تكن الصورة التي تحفظها عن اوكي رؤية آسنة ، بل كانت تعيش بمثل إيقاعها . والحب الذي كانت اوتوكو ، الآن ، تحسُّه نحو نفسها ، كان يمنح ذكرياتها تلويناً مختلفاً وكان يغيّرها. لم يكن قد خطر ببالها قطّ أن الذكريات كانت شبيهة بأشباح وأطياف جائعة . لقد كان طبيعياً لامرأة انفصلت وهي في السابعة عشرة عن حبيبها وعاشت حتى الآن من غير أن تحب رجلاً آخر ومن غير أن تتزوج ، أن تستسلم للذكريات الحزينة لحبّها الضائع وأن ينتهي الأمر بهذا الاستسلام نفسه الى أن يزدوج بلون من النرجسية .

أليس بدافع من نرجسية كذلك أن شُغفت اوتوكو بتلميذتها كايكو ، بالرغم من أنهما كلتيهما من الجنس نفسه ؟ لو لم تكن الحالة كذلك ، لما خطرت لاوتوكو إطلاقاً فكرة رسم الفتاة بملامح « العذراء » او جالسة ، على غرار « كوبو ديشي » ، فوق كمّ زهرة لوتس ، بينما كانت الفتاة تبتهل اليها أن ترسمها عارية . ألم تكن اوتوكو تسعى على هذا النحو الى خلق صورة مطهّرة لنفسها ؟ إن فتاة السادسة عشرة التي كانت قد أحبت اوكي ستبقى أبداً فيها ، ولن تكبر أبداً ، على ما يبدو . ومع ذلك ، فإن اوتوكو كانت تجهل هذا ولا تبدو أنها تريد أن تعيه .

عادة ، بعد ليالي كيوتو الرطبة ، كانت اوتوكو البالغة الحساسية للنظافة ، والتي لم تكن تحتمل رائحة العرق التي كان يبدو أنها تلتصق بثيابها ، تنهض فوراً من سريرها . غير

أنها ذلك الصباح بقيت لحظة واضعة رأسها على الوسادة ، وعيناها تنظران تخطيطات وجوه الأطفال المعلقة بالجدار والتي كانت قد تأملتها طويلاً في العشيّة . وبالرغم من ان آبنتها الصغيرة لم تعش على هذه الأرض إلاّ وقتاً قصيراً جداً ، فقد كانت تريد أن ترسمها ، على نحو ما ، بملامح طفل لم يولد ولم يعش في عالم البشر . ولذلك فإن تلك التخطيطات كانت قد أشعرتها بمشقّة كبيرة .

كانت كايكو ما تزال نائمة نوماً عميقاً ، وهي تولي اوتوكو ظهرها. وكان غطاء خفيف من كتّان يحتويها وقدانزلق تحت صدرها . كانت متمدّدة على جنبها ، وقد آنطوت احدى ساقيها على الأخرى ، مستورتين حتى الكعبين بالغطاء . ولما كانت كايكو غالباً ما ترتدي الكيمونو ، فان أصابع قدميها الطويلة الدقيقة لم تكن مضغوطة في حذاء عالي الكعب . وكانت دقيقة جداً ، طويلة جداً ، ومختلفة جداً عن أصابع اوتوكو ، حتى ان هذه كانت تفضّل ألاّ تنظر اليها . ولكن حين كانت تمسكها بيديها ، من غير أن تنظر اليها ، كان يخيّل اليها أنها لم تكن تنتمي الى امرأة من جيلها ، وكانت تشعر ، إذ تلامسها ، بإحساس لذيذ وغريب ، كما لو أن أصابع قدمي الفتاة لم تكن أصابع كائن بشريّ .

كانت روائح عطرة تنبعث من كايكو . وكان عطراً مدوِّخاً أكثر مما ينبغي لفتاة في هذه السنّ . ولم تكن اوتوكو تجهل أنها لم تكن تستعمله الاّ في مناسبات نادرة ، ولذلك أدهشها أن تكون قد تعطّرت به العشية البارحة .

حين عادت كايكو الى المنزل بعد منتصف الليل ، لم تفكر اوتوكو أن تسألها من أين كانت قادمة . كانت مستغرقة أكثر مما ينبغي في تصاميم وجوه الأطفال المعلّقة بالجدار .

وكانت كايكو قد لجأت سريعاً الى الفراش ، من غير أن تأخذ حمّاماً ، واستغرقت عميقاً في النوم ، ولكن ربما كانت اوتوكو تظنّها نائمة لأنها هي نفسها كانت أوّل من غرق في النوم .

وما ان استيقظت اوتوكو حتى اقتربت من سرير كايكو ، وألقت نظرة سريعة على وجه الفتاة النائم وذهبت تفتح المصاريع الخشبية . وكانت كايكو تفيق دائماً على مزاج طيّب ، وكانت تقفز من السرير صباحاً حين تنهض اوتوكو قبلها لتساعدها حين تسمعها تزلق المصاريع . ولكن كايكو جلست ، ذلك الصباح ، في سريرها ونظرت الى صديقتها تعمل . حتى اذا فرغت اوتوكو من فتح المصاريع ، وسحب « الشوجي » ، وعادت الى الغرفة ، بادرتها كايكو :

- اعذريني ، لم أستطع إغماض عينيّ قبل الساعة الثالثة صباحاً . . .

ونهضت وبدأت ترتّب سرير اوتوكو .

- هل الحرّ هو الذي حال بينك وبين النوم ؟

- ربما . . .

- لا تعيدي ثوب نومي الى مكانه ، فانا أريد ان أغسله .

وتوجهت اوتوكو الى الحمام لتغتسل، والكيمونو على

ذراعها . وقصدت كايكو بدورها المغسلة ونظفت أسنانها على عجل .

- كايكو ، الا تريدين ان تغتسلي ؟

- بلى .

- مساء أمس ، يبدو أنك نمت حتى من غير ان تمسحي العطر الذي وضعته .

- أتظنّين ذلك ؟

- بل أنا متأكّدة منه ! (ولاحظت اوتوكو هيئة الغياب عند الفتاة) كايكو ، أين كنت مساء أمس ؟

فلم تجب كايكو .

- خذي حمّاماً . ألا تشعرين بالآرتياح ؟

- بلى . سأستحمّ فيما بعد . . .

نظرت اوتوكو الى الفتاة : - فيما بعد ؟

وحين خرجت اوتوكو من الحمام ، كانت كايكو قد فتحت أحد الأدراج في الخزانة واختارت كيمونو لها . فسألتها اوتوكو بلهجة حاسمة :

- هل انت خارجة ؟

- نعم .

- أأنت على موعد مع أحد ؟

- نعم .

- مع من ؟

- مع تاشيرو .

لم تفهم اوتوكو على الفور ، فأوضحت كايكو ، بلا

ادنى تردّد :

ـ تاشيرو والسيد اوكي

قالتها وقد أسقطت عمـداً كلمـة « ابـن » . فلـم تدر اوتوكو كيف تجيب .

ـ لقد وصل أمس فذهبت أنتظره في مطـار ايتامـي . وقد وعدته أن آخذه في زيارةالمدينة اليوم، إلا اذا أخذنـي هو لزيارتها . . . إنني لا أخفي عنك شيئاً ، يا اوتوكو ! سنبـدأ بالتوجّه الى دير نيسونين . إن في الجبل قبـراً يريد تاشـيرو ان يزوره .

ـ قبر ؟ . . . في الجبل ؟

ردّدت اوتوكو ذلك ، حتى من غير ان تسمع ما كانت تقوله

ـ نعم . إنه ، على ما يقول ، قبر نبيل من البلاط عاش في القرن الخامس عشر .

ـ حقاً ؟

نزعت كايكو كيمونوهـا وأدارت ظهرهـا العـاري نحـو اوتوكو .

ـ بعـد كل حسـاب ، سأرتـدي ثوبـاً تحتياً ذا كمّـين طويلين . يبدو أن اليوم ما يزال حارّاً ، ولكن لن يكون ملائماً ألاّ أرتدي مثل هذا الثوب . . .

ومن غير ان تنبس بكلمة ، أخذت اوتوكو تنظر الى الفتاة وهي ترتدي ثيابها .

ـ المهمّ الآن عَقْـدُ حزام « الأوبي » بإحكام .

وشدّت كايكو بكل قواها ، ويداها خلف ظهرها .

وكانت اوتوكو تراقبها فيما كانت تتزّين . وقد عكست المرآة للفتاة صورة صديقتها .

ـ اوتوكو . . لماذا تبدو عليك هذه الهيئة ؟.

عادت اوتوكو اليها وحاولت أن ترقّق التعبير القاسي لوجهها ، ولكن ملامحها ظلّت مسمّرة .

وأدارت كايكو عينيها نحو أحد مصاريع طاولة الزينة فسوّت ، بطرف أصابعها ، خصلة من شعرها فوق أذنها المرسومة رسماً دقيقاً . كانت كما لو أنها ، بهذه الحركة ، تنجز زينتها . ثم همّت بأن تنهض ، ولكنها عدلت وتناولت زجاجة عطر . قالت اوتوكو ، وهي تقطب حاجبيها :

ـ ولكن العطر الذي وضعته مساء امس لم يتلاش بعد ؟

ـ لا أهمية لذلك .

ـ كايكو ، إنني أجدك ثائرة الأعصاب (وتوقفت اوتوكو لحظةً) .

ـ لماذا هذا اللقاء ؟

ـ لقد كتب لي يبلغني ساعة وصول طائرته الى كيوتو .

فلم تجب اوتوكو .

ونهضت كايكو ، فطوت ، على عجل ، الكيمونوين الاثنين اللذين كانت قد أخرجتهما قبل ان تختار كيمونو ثالثاً وأرجعتها الى الخزانة .

قالت اوتوكو : ـ هل لك أن تطويهما بعناية أكبر ؟

ـ بالتأكيد .

ـ يجب أن تفعلي ذلك ثانية .

ـ حسناً .

ومع ذلك ، فان كايكو لم تلتفت الى الخزانة .

قالت اوتوكو بصوت قاسٍ :

ـ كايكو ، تعالي هنا .

جلست كايكو امام صديقتها ونظرت اليها في عينيها .

فاستدارت اوتوكو ثم سألت فجأة :

ـ أنت ذاهبة حتى من غير أن تتناولي طعام الإفطار ؟

ـ نعم ، لقد تناولت العشاء متأخرة مساء أمس .

ـ مساء أمس !

ـ نعم .

عادت اوتوكو تقول :

ـ كايكو ، لماذا تلقين هذا الفتى ؟

ـ لا أدري .

ـ هل أنت حريصة على هذا اللقاء الى هذا الحدّ ؟

ـ نعم .

ـ أنت إذن مَنْ سعى الى هذا اللقاء ، أليس كذلك ؟

وبالرغم من أن آضطراب الفتاة لم يَدَع ظلاً للشكّ حول هذا الموضوع ، فقد حرصت اوتوكو على التأكد منه بطرح سؤالها :

ـ ولماذا ذلك ؟

فلم تجب كايكو .

ـ هل ينبغي لك أن تريه حقاً ؟ (خفضت كايكو عينيها) إنني أفضّل أن تمتنعي عن ذلك . لا تذهبي ، يا كايكو !

ـ ولكن لماذا ؟ ما يعنيك في هذا كله ؟

ـ هذا يعنيني بمقدار ما يعنيك .

ـ ولكنك ، يا اوتوكو ، لا تعرفينه حتى !

ـ بعدما حدث في انوشيما ، هل ما زلت تستطيعين لقاء هذا الفتى ؟

كانت اوتوكو تأخذ على كايكو ، بعد ليلتها التي قضتها في انوشيما مع الأب ، ان تلتقي الآن الآبن كما لو أن شيئاً لم يكن . ولكنها لم تكنَ تستطيع أن تنطق باسم اوكي ولا بآسم تاشيرو .

ـ إن السيد اوكي هو عشيقك القديم ، ولكنك لم تلتقي قط بتاشيرو وليس لك معه أقل علاقة. إنه ابن السيد اوكي ، هذا كلّ شيء. إنه ليس آبنك ، يا اوتوكو !

جرحت كلمات كايكو اوتوكو . ولقد ذكرتها بأن زوجة اوكي كانت قد وضعت طفلة ، بعد موت ابنتها هي بوقت قصير .

ـ كايكو ، أنت تريدين إغواء هذا الفتى ، أليس كذلك ؟

ـ إنه هو الذي كتب لي يبلّغني ساعة وصول طائرته .

ـ هل بلغ من حميمية علاقتكما أنك ذهبت تنتظرينه في المطار وأنكما تتنزهان معاً في كيوتو ؟

- اوتوكو ، أنا لا أحب كلمة « حميمية » .

- تفضّلين بلا شك أن تسمعيني أقول إنه ليس بالنسبة اليك إلاّ « علاقة . . . » ؟

مسحت اوتوكو بباطن يدها العرق المثلج الذي كان يبلّل جبينها المتقع .

- أنت كائن مُرعب ، يا كايكو !

التمع شعاع غريب في عيني الفتاة :

- اوتوكو ، إنني أكره الرجال !

- إبقيْ هنا ، يا كايكو ، إبقي هنا ! اذا ذهبت للقائه ، فلا تعودي أبداً الى هذا البيت !.

صاحت كايكو : « اوتوكو ! » وبدت عيناها نديّتين .

- ماذا تنوين ان تفعلي لتاشيرو ؟

كانت يدا اوتوكو ترتعشان على ركبتيها . للمرة الاولى ، دعت الشاب بآسمه .

ونهضت كايكو وهي تقول :

- إنني ذاهبة ، يا اوتوكو .

- إبقيْ هنا ، أرجوك !

- اوتوكو ، اضربيني ! اضربيني كما فعلتِ يوم قصدنا « معبد الأعشاب » !

فلم تجب اوتوكو .

وظلت كايكو جامدة لحظة ، ثم سارعت الى الخروج .

وشعرت اوتوكو فجأة أن جسمها كان مبلّلاً بالعرق .

ومكثت بلا حراك ، وعيناها مسمّرتان على أوراق

« الاروندياريا » في الحديقة التي كانت شمس الصباح تفجّر فيها الشرر . ثم نهضت وآتجهت الى الحمام . ولا شك في أنها بالغت في فتح الحنفيّة ، لأن صوت الماء جعلها ترتعش . وقد سارعت الى إغلاقها بحيث أن خيطاً دقيقاً من الماء جعل يسيل منها ، فبدأت بالاستحمام . وآستردّت بعض هدوئها ، ولكنها ظلت تشعر في رأسها بما يشبه كتلة قاسية . وأمرّت منشفة رطبة على جبينها ورقبتها .

وإذ عادت اوتوكو الى غرفتها ، جلست قبالة صورة أمّها وتصاميم وجوه الأطفال . وآنتابها احساس بالتقزّز من نفسها . كانت حياتها المشتركة مع كايكو هي مصدر هذا التقزّز ، ولكنه كان ينبسط على وجودها كلّه ويجعل منها كائناً بائساً وكأنه مفرغ من قواه . لماذا تراها عاشت حتى هذا اليوم ، لماذا تراها لا تزال على قيد الحياة ؟

وأخذت اوتوكو رغبة مفاجئة بأن تنادي أمها . وتذكرت عندئذٍ لوحة « صورة أمّ الفنان العجوز » لناكامورا تسون[1] . كان هذا آخر آثار الرسّام قبل ان يسبق أمّه بالوفاة . وواقعة أن أثره الأخير هي صورة أمه العجوز كانت أحد الأسباب التي كانت تحزن اوتوكو وتزرع في نفسها الاضطراب . ولم يقع تحت نظرها إلا نسخة من هذه الصورة ، وبالرغم من أنه كان صعباً عليها أن تعطي رأيها بطريقة أكيدة من غير أن تكون قد رأت الصورة الأصلية ، فإن هذه النسخة البسيطة قد خلّفت

(١) صورة ناكاموراتسون (١٨٨٨ ـ ١٩٢٤) : رسّام تأثّر برينوار وسيزان وأبدع في فنّ الصورة .

في نفسها تأثيراً عميقاً .

كان ناكامورا تسون قد رسم ، وهو شاب ، صوراً معبّرة وشهوانية للمرأة التي كان يحبّها . وكان يستعمل اللون الاحمر كثيراً وكان يقال عنه إنه كان يرسم بأسلوب رينوار . وكانت أشهر لوحاته « صورة ايروشنكو » تعبّر تعبيراً شبه دينيّ ، ولكن بواسطة خطوط حارّة ومنسجمة ، عن نبل الشاعر الأعمى وكآبته كلّها . على أن لوحته الأخيرة « صورة أمّ الفنّان العجوز » قد رُسِمت بإيجاز كبير ، ولم يستعمل الفنّان الا ألواناً معتمة وباردة . كانت تمثّل عجوزاً شاحبة وناحلة جالسةً جلسةً جانبية على كرسي ، وكان وراءها ، على سبيل الخلفيّة ، جدار نصف مائل السطح ، وكان محفوراً في هذا الجدار ، على مستوى وجهها ، تجويف وضع فيه نيطل ، وخلف رأس العجوز كان معلّقاً ميزانُ حرارة . وكانت اوتوكو تجهل إذا كان ميزان الحرارة هذا قد أضيف من قبل الفنّان لحاجات رسمه ، ولكنه بالإضافة الى المسبحة التي كانت تتدلّى من يدي العجوز المستريحتين برقّة على ركبيتها ، كانا قد أثّرا فيها كثيراً . كانا يرمزان ، على نحوٍ ما ، الى مشاعر الفنّان الذي سيسبق أمه العجوز بالوفاة . ربما كان هذا هو مغزى هذه الصورة .

أخرجت اوتوكو من إحدى الخزانات مجموعة لأعمال ناكامورا تسون وقارنت « صورة أم الفنان العجوز » بالصورة التي كانت قد رسمتها هي نفسها لأمها . وكانت اوتوكو قد اختارت أن ترسم صورة أمها شابّة . ولم تكن هذه آخر

أعمالها ، وكانت العجوز قد مضت قبل آبنتها . لم يكن ظلّ الموت يخيّم على هذه الصورة . لم يكن ثمة أية نقطة مشتركة بين هذا العمل ذي النموذج الياباني وصورة ناكامورا تسون التي كانت متأثرة بالرسم الغربي ؛ ومع ذلك ، فقد أحسّت اوتوكو ، أمام هذه النسخة ، بالعذوبة التي كانت تنبعث من صورة أمها . وأغمضت عينيها . وبكل قواها ، أبقت أجفانها مغلقة . وخيِّل اليها أن دمها كان ينسحب من جسمها

كانت اوتوكو قد رسمت صورة أمها ، يحرّكها شعور حبّ لها . لم تكن تستطيع أن تتصوّرها إلا في عزّ شبابها وأوج جمالها . أيّ نقص في العمق وأيّ فقر في هذه الصورة إذا ما قورنت بالحميّا التي كانت تنبعث من الصورة التي رسمها ناكامورا تسون وهو على عتبة الموت ! ولكن ألم تكن حياة اوتوكو بالذات ينقصها العمق ؟

لم ترسم اوتوكو هذه الصورة وأمّها حيّة . فبعد موتها استلهمت في التنفيذ إحدى صورها . ولكنها رسمت أمها أصغر سنّاً وأكثر جمالاً مما كانت تبدو في الصورة . لم تكن تجهل كم كانت تشبه أمها ، فكان يتفق لها ، وهي ترسم ، أن تنظر الى وجهها نفسه منعكساً في المرآة . ولذلك لم يكن مدهشاً أن تنبعث من هذه الصورة عذوبة ما ، ولكن أكان ممكناً مع ذلك أن يعوزها العمق كليّاً ، وأن تكون مجرّدة من الروح ؟

تذكّرت أن أمها لم تكن قد وافقت على ان تُصوَّر بعد منذ إقامتها في كيوتو . وكان مصوِّر من طوكيو قد أراد ، من

أجل المقال المكرّس لاوتوكو ، أن يلتقط لهما صورة مشتركة ، ولكن أمها رفضت ذلك . وللمرة الاولى ، فهمت اوتوكو أن الحزن هو ما دعا أمها الى أن تتصرّف على هذا النحو . كانت تعيش مع ابنتها في كيوتو كامرأة وُضعت على هامش المجتمع ، بل هي قد قطعت علاقاتها مع أُصدقائها الحميمين في طوكيو . وكانت اوتوكو تجد نفسها كذلك مُبعدة ، ولكنها لم تكن إذ ذاك تتجاوز السابعة عشرة ، وكانت وحدتها وانعزالها يختلفان عما كانت تحسّ به أمّها . وكذلك كانت مختلفة عن أمها في أنها كانت مستمرّة في حبّ اوكي ، بالرغم من أن هذا الحب لم يكن من شأنه إلاّ أن يجرحها .

وتساءلت اوتوكو ، وهي تقارن على هذا النحو صورة ناكامورا تسون التي رسمها لأمه والصورة التي رسمتها هي ، تساءلت إذا لم يكن عليها أن ترسم لأمها صورة أخرى .

كانت كايكو قد ذهبت للقاء تاشيرو . وكان ذلك ، في نظر اوتوكو ، أشبه بالتخلّي . وخيِّل اليها أنها لم تستطع بعدُ أبداً أن تكبت الضيق الذي كانت تشعر بأنه يغمرها .

في هذا الصباح ، لم تنطق كايكو بكلمة الانتقام ، كما كانت تفعل عادة . كانت قد أعلنت أنها تكره الرجال ، ولكن لم يكن ذلك اعترافاً ينبغي أخذه في الاعتبار .

كانت قد فضحت نفسها وهي تتذرّع ، لكي لا تتناول فطور الصباح ، بعشاء متأخّر في الليل . ماذا كانت كايكو تريد أن تفعل لابن اوكي ؟ وأيّ مصير سيكون مصيرهما ، وماذا سيكون مصير اوتوكو التي كانت تعيش منذ اربع وعشرين

سنة أسيرة حبّها لأوكي ؟ وشعرت اوتوكو أنها لم تكن تستطيع أن تبقى جالسةً هكذا لا تفعل شيئاً .

وما دامت لم تنجح في منع كايكو من الذهاب الى موعد اللقاء ، فإنه لم يكن باقياً لها إلاّ أن تركض وراءها لملاقاة تاشيرو ولتحذيره . ولكن اوتوكو كانت قد نسيت ان تسأل الفتاة عن المكان الذي نزل فيه تاشيرو ، وكذلك عن مكان لقائهما .

البحيرة

حـين وصلـت كايكو الى بيت الشـاي الصغـير في كياماشي ، كان تاشيرو ينتظرها على السطيحة ، وقد آرتـدى ثيابه وآستعدّ للخروج .

- صباح الخير ، هل قضيت ليلـة طيبـة ؟ (واقتربـت كايكو من الشاب فاستندت على درابزون السطيحة) هل كنت تنتظرني ؟

- لقد أفقت في ساعة مبكرة . وخرير النهـر هو الـذي انتزعني من السرير . لقد رأيت الشمس تنهض على « تـلال الشرق » .

- هل أفقت في تلك الساعة المبكرة ؟

- نعم . ولكن الجبال أقرب من ان تمنح الشعور بطلوع شمس حقيقي . فبمقدار ما تصعد الشمس في السماء فان خضرة التلال تنتعش ويرسـل نهـر كامـور شراراتـه تحـت مداعبـة الأشعـة الأولى . . .

- وقد بقيت تنظر طوال هذا الوقت ؟

- كان ممتعاً ان تُرى الشوارع في الجانب الآخر من النهر

وهي تستيقظ وتنتعش من جديد .

ـ انت لم تستطع إذن ان تنام ؟ الا تروقك الإقامة هنا ؟

وأضافت كايكو ، كما لو كانت تهمس :

ـ سيُسعدني بالتأكيد ألاّ تكون قد آستطعت أُن تنام بسببي . . .

لم يجب تاشيرو .

ـ إنك لا تريد أن تقول لي ذلك ؟

ـ بلى ، يا كايكو . كان ذلك بسببك .

ـ إنما تقول ذلك لأنني ألححت على أُن تجيبني .

ـ أُما أنت ، يا كايكو ، فلم يصعب عليك أُن تجدي النوم ، أليس كذلك ؟

هزّت كايكو رأسها نفياً :

ـ هذا خطأ . . .

ـ إن عينيك تؤكدان العكس . إنهما تلتمعان ببريق حادّ جداً . . .

ـ إنما هو قلبي الذي يلتمع بمثل هذا البريق . وهذا بسببك ، يا تاشيرو . إن عينيّ لا تخافان ليلة او ليلتين من السهاد !

كانت عينا الفتاة اللامعتان والنديّتان قليلاً تحدّقان في تاشيرو وقد أمسك بيدها ، فتمتمت كايكو :

ـ كم هي باردة يدك !

ـ أما يدك فحارّة جداً .

وأمسك بأصابع الفتاة ، واحداً بعد الآخر ، فتأثّر لدقّتها . كانت من الرقّة بحيث لم تكن تبدو وهي تخصّ كائناً بشرياً ، وخيّل اليه أنها تنزلق من يده . كم يبدو سهلاً أن يمزقها بأسنانه ! وأخذت تاشيرو الرغبة في أن يرفعها الى يده . كانت هذه الأصابع تشي ، على نحو ما ، برخاصة الفتاة . وكان تاشيرو يرى أمامه جانبية كايكو ، مع أذنيها المرسومتين رسماً جميلاً وعنقها الطويل الأنيق .

ـ بهذه الأصابع الدقيقة ترسمين إذن ؟

وأدنى تاشيرو شفتيه من يد الفتاة . ونظرت كايكو الى يدها . كانت عيناها نديّتين بالدموع .

ـ هل أنت حزينة ، يا كايكو ؟

ـ انا ، بالعكس ، سعيدة . . . هذا الصباح ، يكفي أن تلمسني حتى آخذ في البكاء (وتوقفت لحظة) لديّ شعورٌ بأن شيئاً ما ينتهي بالنسبة اليّ .

ـ وما هو ؟

ـ من الخبث أن تسألني عن ذلك !

ـ إن هذا الشيء لا ينتهي ، بل يبدأ . أليست نهايةُ شيء ما بدايةً لشيء آخر ؟

ـ ومع ذلك ، فإن ما آنتهى قد آنتهى حقاً ، وشيء ما جديد يبدأ . هكذا تفكّر آمرأة . إن حياة جديدة تنفتح أمامها !

كان تاشيرو يهمّ بأن يجذب الفتاة بين ذراعيه حين أحسّ بيده ، التي كانت تحبس أصابع كايكو ، تفقد من صلابتها .

ومالت كايكو تلتصق به برقّة ، فتعلّق بالدرابزون .

ومن النهر تحتهما ، بلغهما نباح ثاقب لكلب . كان جحّار (*) صغير يخصّ امرأة متوسطة العمر لا بدّ انها كانت تتعاطى تجارة ما في الجوار ، قد واجه أنفاً لأنف كلباً ضخماً من نوع « أكيتا » فأخذ ينبح . ولم يتنازل الكلب الضخم حتى لإلقاء نظرة عليه . وكان يبدو على الرجل الذي يمسك بزمامه انه طبّاخ في احد المطاعم الصغيرة اليابانية الطراز في الجوار . وقرفصت المرأة وأخذت الجحّار الصغير بذراعيها ، فتخبّط ونبح أشدّ النباح . وحين أدارت معلّمته ظهرها للكلب الضخم ، بدا نباح الكلب الصغير وكأنه متّجه الى تاشيرو وكايكو . واذ دفعت المرأة رأس كلبها ورفعت عينيها نحو السطيحة ، منحت الفتاة والشاب بسمة مؤدّبة .

قالت كايكو وهي تتظاهر بأنها تختبيء خلف تاشيرو :

ـ هذا فظيع ! إذا نبحك كلبٌ في الصباح ، فتلك علامة على أن النهار سيكون سيّئاً ! إنني أحتقر الكلاب !

وبقيت هكذا واضعة يدها على كتف الشاب ، حتى بعد أن كفّ الكلب عن نباحه .

ـ تاشيرو ، هل أنت سعيد برؤيتي ؟

ـ بكل تأكيد !

ـ أتساءل إن كنت سعيداً بمقدار سعادتي . . . أخشى ألاّ يكون الأمر كذلك .

(*) كلب يصطاد الحيوانات في جحورها (المنهل) .

فيما كان تاشيرو يفكّر بالطريقة الأنثوية التي كانت كايكو تعبّر فيها عن آرائها ، أحسّ فجأة على رقبته نَفَس الفتاة المعطّر . وكان صدر كايكو يلامس تقريباً ظهره . وفي هذا التماسّ ، كان يشعر بالحرارة العذبة التي كانت تنبعث من جسد الفتاة تنتقل الى جسده نفسه . وآستولى على كيانه كله الإحساس بأن كايكو كانت تخصّه . لم يكن ثمة بعدُ ما يُدهش او ما ليس قابلاً للفهم في تصرّف الفتاة . جمالُها الذي لا يصدَّق هو وحده المدهش .

قالت كايكو : ـ لا يبدو أنك تدرك الى أيّ حدّ كنت راغبةً في رؤيتك . كنت أظنّ أن فرصة ذلك لن تتاح لنا بعد ، إلاّ اذا قصدت كاماكورا . من الغريب أن نكون هنا ، نحن الاثنين .

ـ هذا غريب في الواقع .

ـ أقول هذا لأنه لم يمرّ يوم ، منذ أن آلتقينا ، دون أن أفكّر فيك . لقد داخلني الشعور الدائم أننا سنلتقي ثانية ، أليس هذا مثيراً للفضول ؟ ولكنك أنت ، يا تاشيرو ، قد نسيتني ، أليس كذلك ؟ إنك لم تتذكّر أنني موجودة إلاّ حين جئت الى كيوتو ؟

ـ يدهشني أن تقولي ذلك !

ـ حقاً ؟ هكذا ، يحدث لك أحياناً ان تفكّر بي ؟

ـ نعم . وأن أفكّر بك ، كان هذا يؤلمني .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ لأنني فيما كنت أفكر بك ، كنت أفكر بأستاذتك

وبالآلام التي كانت تصيب أمي في شبابها . كنت آنذاك أصغر سناً من أن فهم ذلك ، ولكنك لا تجهلين أن هذا كلّه مفصَّل في رواية أبي .حين كانت امي ، مثلاً ، تتيه ليلاً في الشوارع وهي تشدّني بين ذراعيها ، او تُسقِط من يديها وعاء من الأرز وتنهار وهي تبكي . لا شك في أنها كانت توجعني وهي تشدّني على ذلك النحو بين ذراعيها ، لأنني لم أكن أكفّ عن البكاء بينما هي تغادر البيت وتبتعد ، ولكنها لم تكن حتى لتسمع صراخي . كانت لا تتجاوز الثالثة والعشرين او الرابعة والعشرين ، ولكنها كانت تصبح صماء وكانت أسنانها تختفي ! ومع ذلك ، ومهما يكن ، فإن تلك الرواية ما تزال تُباع . إن هذا بالتأكيد لا تعوزه السخرية ، ولكن أبي إنما استطاع بفضل حقوق التأليف التي نالها أن يقوم بأوَدنا ، وأن يدفع نفقات دراستي وتكاليف زواج شقيقتي .

ـ هذا شيء جيّد ، أليس كذلك ؟

ـ ليس هذا أية أهمية الآن ، ولكنه مع ذلك يثير الفضول . تلك الرواية التي تُظهر أمي بملامح امرأة منفِّرة ومجنونة من الغيرة رواية كريهة عندي ! ومع ذلك ، فكلما أُعيد طبع هذا الكتاب في طبعة جيب ، فهي التي تضع ختم المؤلف على خمسة الآف او عشرة آلاف ورقة . وهذه المرأة ، التي ليست بعدُ شابةالآن ، باقيةهناك ، تضع صفحة بعد صفحة ختم زوجها ، كلما أعيدطبع هذه الرواية التي تصفها كشيطان من الغيرة . لا شك في أن العاصفة قد مرّت الآن بالنسبة لأمّي واستعاد بيتنا هدوءه . . .ومع ذلك، هناك من يظنّ أن الناس

لا يكنّون إلاّ الاحتقار لهذه المرأة ، ولكن الأمر بالعكس ، فهم لا يزدادون الا احتراماً لها ! هذا عجيب ، أليس كذلك ؟ .

ـ إنها ، بعد كل حساب ، زوجة السيد اوكي .

ـ بيد أن هذه الرواية تتكلم خاصّة عن أستاذتك التي ظلّت بلا زواج ، على ما أعتقد . . .

ـ هذا صحيح .

ـ إنني أتساءل ما عسى يفكر والداي بصددها . يبدو أنهما قد نسيا كلّيا اوينو اوتوكو . إنني لا أحتمل التفكير بأن حقوق التأليف لمثل هذه الرواية هي التي أطعمتني وغذّتني . إنني أعيش بفضل التضحية التي قدمتها فتاة صبية في السابعة عشرة . . . وأنت تقولين لي إنك تريدين أن تنتقمي لها . . .

ـ لا ، لقد انتهى ذلك . لقد طردت عني هذه الفكرة (ووضعت كايكو خدّها على عنق تاشيرو) إنني بكل بساطة أنا .

التفت تاشيرو وأحاط كتفي الفتاة . ولم يعد صوت كايكو إلاّ همساً :

ـ قالت لي الآنسة اوينو إن من غير المفيد ان أعود الى البيت .

ـ لماذا ؟

ـ لأنني أعترفت لها بأني كنت ذاهبة للقائك .

ـ قلت لها ذلك ؟

ـ نعم

لم يدر تاشيرو بمَ يجيب .
ـ لقد طلبت مني أن أعدل عن ذلك ، وإلاّ فيجب ألاّ أضع قدمّي ثانيةً في البيت . . .

نزع تاشيرو يديه عن كتفي الفتاة . ولاحظ فجأة أن السير على الضفّة المقابلة من النهر قد أصبح أكثر كثافة . وكان لون « تلال الشرق » قد تغيرّ وكان يتبّدى بمجموعة من التلاوين الخُضر الكامدة .

سألت كايكو وهي تلقي نظرة على وجه تاشيرو الذي قست ملامحه :
ـ ربما كان عليّ ألاّ أقول لها ذلك ؟

قال تاشيرو بصوت مخنوق :
ـ لا . ثم ، ألست أنا بالأحرى من ينبغي أن أنتقم لأمي من الآنسة اوينو ؟

قال هذه الكلمات ودخل الى الغرفة . فسارعت كايكو تتشبّث بتاشيرو لتمسكه وهي تقول :
ـ تنتقم لأمك ؟ إنه لم يخطر لي قط مثل هذا الأمر ! إن ما تقوله الآن غريب !

ـ هل نذهب ؟ ولكن ربما كان من الافضل أن تعودي الى المنزل ؟
ـ إنك لكريه !
ـ انني انا الآن ، وليس بعدُ أبي ، من سيقلب حياة الآنسة اوينو .
ـ لقد أخطأتُ بأن تحدثت ، ليلة أمس ، عن

الانتقام . سامحني .

امـام منـزل الشـاي ، نادى تاشـيرو سيارة أجـرة ، فصعدت كايكو الى جانبه وعبرت السيارة المدينة بأتجـاه معبـد « نيسونين » في « ساغـا » . وظـلّ تاشـيرو صامتـاً فتـرة من الزمن .

ـ هل أستطيع أن أفتح النافذة ؟

طرحت كايكو هذا السـؤال ، وكانـت لم تنبس ببنـت شفة ، ثم وضعت يدها على يد تاشيرو التي كانت تستريح على ركبته وحركت قليلاً سبابتها . لم تكن يدها رطبة تماماً ، بل كانت دبقة وناعمة .

كان الباب الرئيسي لمعبد نيسونين قد حمله ، كما يقال ، من قصر « فوشي ـ مومويايا » عام ١٦١٣ أحـد اعضاء أسرة غنية وقادرة . وكان له مظهر باب حصن .

قالت كايكو: ـ إن النور يحمل على التفكيربـأن النهار سيكون حارّاً ، اليوم أيضاً . إنها المرة الاولى التي أزور فيها هذا المعبد . . .

قـال تاشـيرو : ـ لقـد قمـت ببعض الابحـاث عن « فوجيوارا تايكا » . . .

وفيما كان يرقـى الدرجـات الحجـرية المؤدية الى باب الدخول ، التفت الى كايكو . كان أسفل كيمونو الفتاة يخفق خفيفاً على إيقاع خطاها .

ـ لا يجهل أحدٌ أن « فوجيواراتايكا » قد سكن ، عند أسفل جبـل « اوغـورا » ، مقصـورة سماّهـا « جنـاح شتـاء

الخريف » ، ولكن تُذكر ثلاثة مواقع لهذه المقصورة ، ويبدو أن ليس مَنْ يعرف مكانها الحقيقي . فهي ، كما يرى البعض ، تقع على الرابية خلف معبد نيسونين ، بينما يرى الآخرون أنها تقع قرب معبد « جوجاتسوكو ـ جي » ، غير بعيد من هنا ، او في « المعبد البعيد عن العالم غير الطاهر » . . .

ـ لقد أخذتني الآنسة اوينو الى هذا « المعبد » .

ـ حقاً ؟ لقد رأيت إذن البئر التي يزعمون أن « فوجيواراتايكا » كان ينزح منها الماء لغرفة النساخة ، حين كان يجمع المجموعة الشعرية لمئة مؤلف ؟

ـ لا أذكر ذلك بعد .

ـ لقد ظلّ ماء هذه البئر مشهوراً . وهو يسمّى « ماء الصفصاف » .

ـ هل استعمل تايكا هذا الماء حقاً ؟

ـ لقد كان في الشعر مقدّراً كأنه إلّه . ولذلك ازدهرت حوله أنواع كثيرة من الأساطير . ولكن في عهد « موروماشي » خاصة ، اعتُبر أكبر شاعر وأكبر أديب في اليابان .

ـ وهل يكون قبره كذلك في هذا المعبد ؟

ـ لا . بل هو قائم في معبد « شوكوكو ـ جي » . ولكن هناك باغودة بالقرب من « المعبد » يقال إنها ترتفع على النصب التذكاري الذي أُحرق فيه تايكا . . .

لم تضف كايكو شيئاً ، فلاحظ تاشيرو أنها كانت تجهل كل شيء تقريباً عن « فوجواراتايكا » .

حين اجتازت بهما سيارة الاجرة ، منذ حين ، مستنقع « هيروساوا » ورأى فوق الماء ، على ضفّة النهر المقابلة ، انعكاس الجبال الرائعة المزروعة أشجار صنوبر ، ذكّر المشهدُ تاشيرو بالذكرى الألفية للتاريخ والأدب التي أقيمت في إطار سهل « ساغا » . كان يرى ، من ضفاف المستنقع ، جبل « اوغورا » التي كانت استداراته الناعمة القليلة الارتفاع تنعكس على جبل أراشي .

كانت ذكريات الماضي الكلاسيكي لبلده ، التي أيقظها مشهد هذه الروابي وهذا السهل ، تتدفّق بنضارة اكبر في ذهن تاشيرو ، وكايكو الى جانبه . لقد كان لديه شعور أكثر حدّة بوجوده في كيوتو .

ولكن حيوية كايكو التي كانت ، في الصباح نفسه ، قد تخاصمت مع اوتوكو ، ألم تكن تجعل هذا المنظر أرقّ وأعذب في عيني تاشيرو ؟ أدرك ذلك ، فأدار نظره نحو الفتاة .

- لماذا تنظر إليّ بهذه الهيئة الغريبة ؟

كان في عيني كايكو بعض الاضطراب ، فبسطت يدها ، فلامسها تاشيرو ملامسة خفيفة .

- غريبٌ أن أمشي معك . . . إنني أتساءل أين أكون ؟

- وأنا أتساءل كذلك . وأتساءل ايضاً مَنْ هذا الشخص الى جانبي (قالتها كايكو وهي تتناول يد تاشيرو وتغرس فيها أظافرها) إنني أجهله .

كانت ظلال الصنوبر الكثيفة تسقط على الممر الواسع الذي كان يفضي من باب الدخول الى المعبد . وكان

يحـفّ بالممـرّ صنوبرات حمر رائعة ممزوجة بالقيقب . وحتـى الظلّ المنعكس على الأرض بأطراف الغصـون كان جامـداً . كانت ظلال الصنوبر تتنقّل وحدها على ممّر كايكو وتتلاعب على الكيمونو الأبيض وعلى وجه الفتاة . وأتى غصن قيقـب اكثـر انخفاضاً من الغصون الأخرى يلامس تقريباً وجهها .

حين بلغا الدرجات الحجرية في نهاية الممر ، لمحا جداراً مائلاً يعلوه سقف وبلغهما خرير مياه . ورقيا الدرج محـاذيين الجدار نحو الشمال . كان ثمة عند أسفل الجدار ماء يجري ، وانتصب أمامهما باب ، كما لو تمّ ذلك بمعجزة .

قالت كايكو وهي تقف قرب الباب في أعلى الدرج :

ـ ليس هناك من أحد .

فتوقف تاشيرو بدوره وقال ملاحظاً :

ـ غريبٌ ان يجتذب معبـدٌ مشهـور الى هذا الحـدّ هذا العدد القليل من الزوّار .

كان جبـل اوغـورا ينتصـــب أمــامهما . وكان سكون مشوب بالاستكانة ينبعث من السقف النحاسيّ للدير .

قال تاشيرو : ـ انظري الى تلك الشجـرة الجميلـة الى يسـارك . إنهـا ، على ما يقـال ، أشهـر شجـرة في « تـــلال الغرب » .

كانت أغصان الشجرة القديمة ذات عقد والتـواءات ، ولكنهـا كانـت مغطّـاة بأوراق صغـيرة ذات خضرة ناعمـة . وكانت الأغصان الأقصر شديدة الصلابة .

ـ لقد أحببت دائماً هذه الشجرة المسنّة ولم أنسها . ومع

ذلك ، فقد مرّت أعوام دون أن أراها .

ولم يتكلّم تاشيرو إلاّ عن الشجرة ولم يشرح للفتاة أن معبد نيسونين كان مديناً بآسمه للكتابة المحفورة التي قدّمها الامبراطور وعُلقّت في المبنى الرئيسي .

وحين عادا الى يمين المبنى المكرّس للإلهة « بانتان »[1] ، لمح تاشيرو درجات الحجر العالية .

- كايكو ، هل تستطيعين أن تصعدي هذه الدرجات وأنت ترتدين كيمونوك ؟

فرسمت كايكو بسمة كشفت أسنانها الجميلة وهزّت رأسها نفياً :

- لا أظنّ . . . ولكن خُذْ يدي ، وبعد ذلك ، ستحملني إذا لزم الأمر .

- سنصعد على مهل .

- إنه في الأعلى ؟

- نعم . إن قبر سانتيكا قائم في أعلى هذه الدرجات .

- أنت لم تأت الى كيوتو إلاّ لترى هذا القبر . لا لتراني أنا .

- بالفعل ، هذا صحيح تماماً (قالها تاشيرو وهو يمسك بيد كايكو ثم ما يلبث أن يطلقها) سأصعد وحدي الى فوق . انتظريني هنا ، هل تريدين ؟

- أستطيع ان أصعد ، أنا ايضاً . ينبغي أن تفهم أن هذه الدرجات لا تخيفني قط . . . سأكون سعيدة أن أتبعك الى

---

(١) بانتان : إلهة الجمال والفن المشرّفة بين إلهات السعادة السبع .

قمة جبل اوغورا ، حتى ولو كان علينا ألاّ نعود منه أبداً ! .

عند هذه الكلمات ، تناول تاشيرو يد كايكو وبدأ يرتقي الدرجات الحجرية .

نادرين كانوا هم المتنزهون الذين كانوا يصعدون هذه الدرجات ، ولذلك كانت أعشاب رديئة وطحالب تنبت عند قاعدتها . وكانت زهور صفر تتفتّح هنا وهناك . والى جانب ، كانت مصطفّة بعض الشواهد .

سألت كايكو : ـ لقد وصلنا ، أليس كذلك ؟

أجاب تاشيرو وهو يتقدم نحو القبور :

ـ لا ، إنه في الأعلى بعد! هذه الباغودات الحجرية الثلاث هي رائعة ، أليس كذلك ؟ إنها تسمّى « قبور الأباطرة الثلاثة » . وهي نماذج رائعة للبناء الحجري ، وهي لذلك تستحق شهرتها . وأجملها هي التي تقع تجاهنا ووسطها الباغودة الحجرية المؤلفة من خمسة طوابق في الوسط .

نظرت كايكو الى الباغودتين وهزّت برأسها .

ـ لقد منح الزمن زنجاراً جميلاً للحجارة . . .

سألته كايكو : ـ هل يعود تاريخها الى كاماكورا ؟

ـ نعم . ولكني أعتقد ان الباغودة ذات الطوابق العشرة هناك تعود الى عهد « بلاطيْ الشمال والجنوب »[1] ويبدو أنها كانت تتألف أولاً من ثلاثة عشر طابقاً ، ولكن يظهر أن الجزء الأعلى قد سقط منها .

---

(١) عهد تنازع فيه السلطة بلاط الجنوب في يوشينو وبلاط الشمال في كيوتو ، بين ١٣٣٦ و١٣٩٢ .

حرّك النبل والجمال والرهافة في الباعوذات الفنانة التي كانت تكمن في كايكو . وكان يبدو أنها نسيت تقريباً أنهما كانا يمسك أحدهما بيد الآخر .

قال تاشيرو : ـ إن قبور النبلاء في البلاط أمثال نيجو وتاكاتسوكاسا وسانجو هي عديدة في الجوار . ويمكن ان نرى هناك أيضاً قبور سومانوكورا ريوي وإيتوجنساي ، ولكن ليس فيها ما يعادل في الجمال « قبور الأباطرة الثلاثة » .

وآرتقيا بعض الدرجات الأخرى فبلغا مبنى صغيراً اسمه « كيزانبوي » كان ينتصب فيه ، على نحو عجيب ، نصب تذكاري من حجر حفر عليه مجموع الآثار التي أنجزها الراهب « تانكو » الذي كان قد رمّم الدير في الماضي .

ومع ذلك ، فقد توجّه تاشيرو ، حتى من غير أن يلقي نظرة على المبنى الصغير ، نحو صفٍّ من الشواهد القائمة الى اليمين :

ـ ها هنا . إنها رموس أسرة « سانجونيشي » . والقبر القائم في أقصى اليمين هو قبر سانتيكا . وهو يحمل العبارة التالية « سانجونيشي » ، وزير الداخلية سابقاً » .

نظرت كايكو الى العبارة المحفورة ، فلمحت على مقربة من القبر المتواضع الذي كان يبلغ ركبتيها تقريباً ، قبراً آخر تعلوه لوحة رقيقة تحمل هذه العبارة « كينيدا ، وزير اليمين سابقاً » . والى اليسار ، كانت تقرأ على لوحة أخرى « سانيدا ، وزير الداخلية سابقاً » .

سألت كايكو : ـ هذان القبران المتواضعان الى هذا

الحدّ هما قبرا وزير لليمين ووزير للداخلية ؟

- نعم ، إني أحبّ بساطة هذه القبور .

لـولا أن اسـم المتـوفى ورتبتـه الرسـمية محفـوران على الشواهد ، فإن هذه الشواهد لم تكن تختلف في شيء عن تلك التي كان يمكن رؤيتها في دير نامبوتسو - جي وأداشينو ، فوق قبور « الذين لا يلبس الحداد عليهم أحد » . كانت متحاتّـة مثلها ، يغطيها الطحلب ، نصفها مدفون في الأرض ، وقد شوّهها الزمن . كانت خرساء . وقد أقعى تاشـيرو بالقـرب منها ، كما ليلتقط صوتاً بعيداً لا يكاد يُسمع . وأقعت كايكو الى جانبه ، وقد آجتذبت يده يدها .

قال تاشيرو كما ليوقظ اهتمام كايكو :

- هذه القبور تبدو باعثة على الشفقة تقريباً . إنني أقوم بأبحاث عن سانتيكا . لقـد عاش حتـى الثالثـة والثمانـين ، وكتب لأكثر من ستين سنـة مذكراتـه التـي هي مصـدر ثمـين للمعلومات عن ثقافة « هيغا سهياما » . وآسمه غالباً ما يَرِد في المذكرات التـي كتبهـا بعض نبـلاء القصر وأصدقائــه من الشعراء . إن من الممتع جداً أن يقوم المرء بدراسات عن تلك الحقبة المضطربة التي شهدت تفتّح ثقافة برمّتها .

- أبسبب أبحاثك تحبّ هذا القبر ؟

- ربما .

- ومنذ كم من الوقت أنت تتابعها ؟

- منــذ ثلاث سنــوات . لا ، بل ثلاث سنــوات او أربع .

ـ ومن هذا القبر يأتيك الإلهام ؟
ـ الإلهام ؟ الحقيقة أن إلهامي . . .
ولم تدعه كايكو يتمّ جوابه إذ تركت نفسها فجأة تسقط على ركبتيه . فترنّح تاشيرو ، وأحاطت كايكو عنقها بذراعيه .
ـ تماماً أمام هذا القبر الذي تحبّه كثيراً . . .
لزم تاشيرو الصمت ، فآستطردت كايكو :
ـ أنا ايضاً ، رُدّ لي هذا القبر العزيز . . . دعه يصبح ذكرى ثمينة لي . . . إن قلبك كلّه هنا . ولكن هذا ليس قبراً !
ـ ليس هذا قبراً ؟ (ردّد تاشيرو كلمات الفتاة بهيئة غائبة) إن القبور نفسها تختفي بمقدار ما تمرّ الأعوام . . .
ـ ماذا قلت ؟ لم أسمع .
ـ حتى قبر حجريّ هو زائل .
ـ إنني لا أسمع .
ـ إن أذنك أقرب مما ينبغي . . .
كانت شفتا تاشيرو تلامسان تقريباً أذن الفتاة . وقالت كايكو وهي تنفض رأسها :
ـ كفى ! إنك تدغدغني ! إنّه لسيىء ان تدغدغني وأنت تنفخ هكذا في أذني .
ونظرت الى تاشيرو بزاوية عينها ، ثم وضعت وجهها على صدر الشاب :
ـ إنني أكره الرجال الذين ينفخون في آذان النساء !

ـ ولكنني لم أفعل شيئاً كهذا !

وآستولت رغبة في الضحك على تاشيرو حين لاحظ فجأة أنه كان يمسك كايكو بين ذراعيه . وأحسّ بثقل الفتاة على ركبتيه ، بالرغم من أنه شعر بخفّة جسمها ومرونته .

فوجيء تاشيرو بسقوط كايكو المباغت على ركبتيه . ولكي لا يقع منقلباً ، تصلّب جسمه ، من غير أن يشعر حتى بهذا التوتُّر في كيانه كلّه .

ظلت ذراعا كايكو تشدّان عنق تاشيرو ، وقد تشمّر كمّا كيمونوها حتى المرفقين . وعاد تاشيرو الى نفسه حين أحسّ حول عنقه بملمس بشرة الفتاة الناعمة الدبقة .

ـ هكذا إذن ، إنني أنفخ في أذنك الجميلة ، كما تقولين ؟

ولاحظ تاشيرو أن تنفُّسه كان مضطرباً فجهد بأن يستعيد نَفَسه .

تمتمت كايكو : ـ إن أذنيّ حسّاستان جدّاً .

كانت أُذن كايكو تثير الاضطراب لدى تاشيرو . وقد أخذها بين أصابعه . وظلت كايكو فاتحة عينيها على سعتهما ولم تحرّك رأسها ، فيما كانت أصابع الشاب تداعب أذنها .

ـ لكأنها زهرة غريبة .

ـ هذا رأيك ؟

ـ هل تسمعين شيئاً ؟

ـ أسمع ما يشبه . . .

ـ ما يشبه ؟ . . .

- ما عسى ذلك يكون ؟ ما يشبه طنيناً تحدثه نحلةٌ تحطّ على زهرة . . . لا ، ليس نحلة ، بل فراشة ، على الأصح .

- ذلك لأني أمسّ أذنك مسّاً خفيفاً .

- أتحبّ ان تلمس آذان النساء ؟

- ماذا ؟

وتسمّرت أصابع تاشيرو . فتمتمت كايكو بالصوت الرقيق نفسه :

- هل تحب هذا ؟

قال تاشيرو معترفاً :

- لم أرَ في حياتي أذنين في هذا الجمال . . .

قالت كايكو : - أحبّ ان أنظّف آذان الناس . هذا غريب ، أليس كذلك ؟ وأنا أُجيد ذلك تماماً . هل تريد أن نجرّب ذلك الآن ؟

فلم يجب تاشيرو .

- ليست هناك نسمة هواء .

- صحيح ، ليست هناك نسمة هواء ، بل هناك فقط عالم غارق بالشمس .

- هذا صحيح . إنني لن أنسى أبداً أنك ، في مثل هذا الصباح ، أمام هذا القبر القديم ، أمسكت بي بين ذراعيك . غريبٌ ان يستطيع قبرٌ أن يترك مثل هذه الذكرى .

- ولكن ، أليست القبور مرصودة حقاً لتأبيد الذكرى ؟

- أنا مقتنعة أنك لن تحتفظ من هذا النهار بذكرى لن تموت . إنك لن تلبث حتى تنساه ، أليس كذلك ؟

استندت كايكو الى إحدى يديها وحاولت أن تنهض عن ركبتي تاشيرو ، وأضافت :

ـ هذا حزين حقاً !

ـ لماذا تعتقدين أنني لن ألبث حتى أنسى هذا النهار ؟

ـ من المحزن أن يكون الأمر كذلك .

وإذ كانت كايكو تحاول أن تتخلّص من ضمّته ، جذبها تاشيرو من جديد بين ذراعيه . ولامست شفتاه ملامسة خفيفة شفتي الفتاة .

ـ لا ! لا ! ليس فمك !

فوجيء تاشيرو برفض كايكو وقسوة صوتها . ومع ذلك ، ومن أجل ان تُبعد عنه شفتيها بلا شك ، ضغطت وجهها على صدر تاشيرو . فأمرَّ أصابعه على شعر الفتاة ، ثم على جبينها ، ثم حاول إبعاد وجهها عن صدره ، ولكن كايكو تشبّثت .

وحين تمكنت يدا تاشيرو الصلبتان أخيراً من إضعاف مقاومتها ، قالت كايكو :

ـ إنك توجعني وأنت تضغط هكذا على عيني !

كانت عينا الفتاة مغمضتين .

ـ على أية عين ضغطت ؟

ـ على اليمنى .

ـ أما زلت تشعرين بالألم ؟

ـ أعتقد أن نعم . ألا ترى عيني دامعة ؟ . .

تفحّص تاشيرو عين كايكو اليمنى ، ولكن لم يكن ثمة

على الجفن أثر من ٱحمرار بسبب ضغط إصبع . وأمال تاشيرو وجهه تلقائياً ووضع شفتيه على عين الفتاة اليمنى .

أرسلت كايكو صرخة ضعيفة ، ولكنها لم تحاول أن تدفعه .

كان بوسعه أن يحُسّ بين شفتيه جفون الفتاة الطويلة ، ولكنه ٱبتعد عن كايكو ، كما لو أن شيئاً قد أخافه .

ـ أنت تدعينني أقبّل عينك ، بينما تمنعين عني فمك . . .

ـ إنك خبيث ! لا أدري ، أنا ! أنت تقول لي أشياء لا تروق !

وٱستندت كايكو بعنف على صدر تاشيرو ، حتى كادت تفقده توازنه ، ثم نهضت . كانت محفظة يدها البيضاء قد سقطت على الارض . فالتقطها تاشيرو ونهض بدوره .

ـ أية حقيبة كبيرة !

ـ نعم . لقد وضعت فيها ثوب السباحة .

ـ ثوبك للسباحة ؟

ـ ألم تَعِدْني بأن نذهب الى بحيرة « بيوا » (توقفت لحظة ثم استطردت) إنّ عيني اليمنى كأنّ عليها غشاوة . إنني لا أكاد أرى بها .

وأخرجت كايكو مرآة صغيرة من الحقيبة التي كان تاشيرو قد أعادها اليها وتفحّصت عينها :

ـ إنها مع ذلك ليست حمراء .

وفركت ، بأحد أصابعها ، جفنها الأيمن ، حين

لاحظت نظر تاشيرو محدّقاً بها . فاّحمرّ خدّاها وخفضت عينيها اللتين كانت تُقرأ فيهما حشمةٌ لطيفة . ومرّرتْ على مهل أصابعها على قميص تاشيرو الذي كان أحمرُ شفتيها قد خلّف عليه أثراً خفياً .

قال تاشيرو وهو يمسك بيد كايكو :

- ماذا نفعل ؟

- أخشى ألاّ يزول هذا !

- ولكني لا أتكلّم عن هذا الأثر على قميصي . إن زرّ سترتي سيخفيه . أقصد ماذا نفعل الآن ؟

- الآن (أمالت كايكو عنقها الجميل) لا أدري . ليست لديّ أدنى فكرة .

- نستطيع أن نذهب الى بحيرة « بيوا » بعد ظهر اليوم ، أليس كذلك ؟

- كم الساعة الآن ؟

- الساعة العاشرة إلاّ الربع .

- فقط ؟ إن من يرى الشمس بين الأشجار يعتقد أننا تجاوزنا الظهر (وعانقت كايكو بنظرها الاشجار المجاورة) إنه جبل اراشي ، هناك . إن المتنزهين في الصيف يكثرون فيه . لماذا لا يأتي أحد الى هنا ؟

- حتى لو كان الناس يأتون لزيارة المعبد ، فلا أحسب أنهم كثيرون أولئك الذين يصعدون حتى هنا !

تعزّى تاشيرو أن يرى الحديث يأخذ مجرى لا قيمة له . ومسح بمنديله وجهه الذي يسيل عليه العرق .

ـ هل تريدين أن نذهب لرؤية بقايا « جناح مطر الخريف » ؟ إنني أجهل أين عاش « فوجيواراتايكا » حقاً ، ثم إنني لست حريصاً على معرفة ذلك بصورة أكيدة . هل ترين هذا العمود المُرشد ؟ لقد جئت سابقاً مرتين او ثلاثاً . . .

كانت تنتصب خلفهما عند أسفل الجبل لوحة خشبية ترشدهما الى الاتجاه .

ـ هل يجب علينا أن نصعد بعدُ ؟ (رفعت كايكو عينيها نحو الجبل) ولكن ماذا يهمّ ! سأصعد حتى القمة . واذا تعقّد السير ، بسبب حذائي من القشّ فسأمشي عارية القدمين !

كان الدرب يصعد بين الأشجار ، وكانت الأغصان تلامس كيمونو كايكو بصخب . وانفتل تاشيرو فأخذ يدها . وما لبثا أن وصلا الى مفرق طرق .

قال تاشيرو : ـ أية جهة نسلك ؟ أظن انه الى اليسار .

ولكن طريق اليسار كان يبدو وهو يحاذي هاوية ، بينما كان طريق اليمين على خاصرة الجبل . وتردّد تاشيرو :

ـ إنه خَطِر .

قالت كايكو وهي تتشبث بيد تاشيرو اليمنى:

ـ إن هذا يخيفني ، وأنا أخشى ، مع حذائي من القشّ ، أن أنزلق . ما قولك بأن نسلك طريق اليمين ؟

ـ الى اليمين؟ الحقيقة أنني أجهل الطريق الذي يفضي الى « جناح مطر الخريف » ولا بدّ أن طريق اليمين يوصل أيضاً الى قمة الجبل . . .

كان الدرب مختبئاً تحت الأشجار ، وكان تاشيرو يمسك بذراع كايكو ويستسلم لها تقوده ، واذ بها فجأة تتوقّف :

ـ هل ينبغي حقاً أن أمشي بالكيمونو وسط هذه الأشجار ؟

كانت تنتصب ثلاث صنوبرات فيا وراء الشجيرات القليلة الارتفاع التي كانت تحجبها عن الأنظار . وقد لمحا ، عبر الصنوبر ، « تلال الشمال » وتحتها ضواحي المدينة .

قال تاشيرو ، وهو يشير بإصبعه الى الأرباض ، حين التصقت كايكو بصدره :

ـ لا أدري .

ترنّح تاشيرو ، ولكن كايكو تداعت على مهل للسقوط بين ذراعيه . فتداعى هو للانزلاق على الارض . وسوّت كايكو ، بيدها اليمنى وهي ما تزال بين ذراعيه ، طيّات كيمونوها المدعوكة .

حين أدنى تاشيرو شفتيه من عينيها ، خفضت كايكو جفونها، وحتى حين ابتعدت شفتا الشاب عن عينيها واستقرّتا على شفتيها ، لم تتهرّب منه . ولكنها احتفظت بشفتيها مشدودتين باحكام إحداهما على الأخرى .

وداعب تاشيرو عنقها الصبياني الطويل ، بينما كانت يده تسعى الى الاندساس في فتحة كيمونوها .

ـ لا ، لا !

قبضت كايكو بين يديها على يد الشاب . ولامس تاشيرو براحة يده الأسيرة كيمونو الفتاة على مستوى نهديها .

وقادت كايكو يده من نهدها الأيمن نحو نهدها الأيسر . وفتحت فجأة عينيها وتفحّصت تاشيرو :

- ليس النهد الأيمن ، إنني لا أحبه .

- كيف ؟

من غير أن يفهم تاشيرو كلام كايكو ، نزع يده فجأة عن نهدها الأيسر . وكانت عينا كايكو مشقوقتين .

- إن نهدي الأيمن يجعلني حزينة .

- حزينة ؟

- نعم .

- ولكن لماذا ؟

- لا أدري . ربما لأن قلبي ليس من هذه الجهة .

قالت هذه الكلمات وأغمضت عينيها بحشمة وشدّت نهدها الأيسر الى صدر الشاب .

- إن الفتيات لديهن أحياناً هذه التكوينات الشاذّة . بل أنا أعتقد أنهن سيكنّ حزينات بدونها .

كان تاشيرو يجهل طبعاً أن كايكو لم تكن قد سمحت لأبيه ، في أنوشيا ، أن يلمس نهدها الأيسر . اما الآن ، فهي تمنع على الشاب نهدها الأيمن . ولكن كلام كايكو ذاته أيقظ رغبته ومنحه في الوقت نفسه الدليل الواضح أنها لم تكن بلا شك المرة الأولى التي تَدع كايكو فيها لرجل أن يداعب نهديها . ولم يكن من شأن هذا اليقين إلا أن يُلهب رغبته . فاذا به يمسك الفتاة من شعرها بإحكام ويقبّلها . وأصبح جبين كايكو وعنقها دَبِقينْ .

هبط الشاب والفتاة من الجبل ومرّا أمام قبور أسرة « سومينوكورا » حتى بلغا معبد « جيورجي » . ومن هناك عادا أدراجهما وسارا ببطء حتى جبل « أراشي » .

تناولا الغداء في مطعم « كيتشو ».وعند نهاية الطعام ، أتت خادمة تبلغهما أن سيارة كانت تنتظرهما .

نظر تاشيرو الى كايكو . وفهم فجأة أنها ، بينما كان يظنّها في المغسلة ، كانت قد سدّدت الحساب وطلبت سيارة أجرة .

وإذ كانت السيارة تقترب من قصر « نيجو » قالت كايكو ملاحظة :

ـ لم أكن أظنّ أننا سنبلغها بمثل هذا الوقت القصير !

ـ سنبلغ ماذا ؟

ـ ليس حسناً أن يكون المرء شارداً الى هذا الحدّ . . . . ألم نكن قد قررنا الذهاب الى بحيرة « بيوا » ؟

لم يجب تاشيرو .

تركت السيارة الى يمينها محطة كيوتو واتجهت نحو باغودة معبد « توجي » العليا ثم تجاوزتها . وخلال فترة قصيرة ، حاذيا نهر « كامو » الذي كان ، على غير عادته ، هائجاً . ودلّهما السائق على جبل كان ينتصب على الطريق وشرح قائلاً :

ـ يُسمى جبل « أوشيو » ويُكتب آسمه بأحرف صينية تعني « ذَنب البقرة » .

واتجهت السيارة الى يسار جبل « اوشيو » مجتازة الجزء الجنوبي من « تلال الشرق » .

كانت البحيرة تنبسط عند أقدامهما .

ـ هـي ذي بحـيرة « بيوا » (وبالرغـم من ابتـذال الملاحظة ، كان صوت كايكو منتعشاً جداً) وأخيراً ، أخذتك اليها ، أخيراً !

كان تاشيرو يستمع بشرود الى كلام الفتاة . كان مبهوراً بعدد اليخوت والقوارب ذات التحرّك الذاتي وبواخـر المتعـة التي كانت تشقّ مياه البحيرة .

هبطت السيارة نحو مدينة « اوتسو » القديمة ، وقريبـاً من المنظرة التي تشرف على البحـيرة ، انفتلـت الى اليسـار ، فقطعت موضعاً كان يقوم فيه سباق للقوارب ، وعبرت مدينة « هاما ـ اوتسو » سالكة الممرّ الذي تكتنفه الأشجار والمفضي الى « فندق بحيرة بيوا » . وكانت سيارات خاصة واقفـة على جانبي الممّر .

أذهلت تاشيرو فكرة أن كايكو ، حتى وهما في مطعـم « كيتشو » ، كانـت قد طلبـت الى السائـق أن يأخـذهما الى « فندق بحيرة بيوا » .

وتقدّم بوّاب الفندق للقائهما ففتح البـاب . ولـم يجـد تاشيرو حلاً آخر غير أن يدخل الفندق .

ولم تلق اليه كايكو نظرة ، بل توجهت نحو الاستقبال وقالت بلا أدنى تردّد :

ـ لقد تلفنّا من مطعم كيتشو بشأن الحجز . . . . باسم السيد أوكي . . . .

فأجاب موظف الاستقبال :

ـ نعم ، بالفعل . حجز لليلة ، أليس كذلك ؟

لم تهزّ كايكو رأسها بالايجاب . ومن غير أن تقول كلمة ، امحّت لتترك لتاشيرو أن يوقّع سجلّ النزلاء . ووجد تاشيرو نفسه ، وكان قد فكّر بتسجيل هويّة مزوّرة ، مجبراً على أن يكتب آسمه وعنوانه الحقيقيين ، ، ما دامت كايكو قد أتمت الحجز بأسم أوكي . ثم أضاف آسم كايكو تحت آسمه ، وخيّل اليه ، إذ فعل ذلك ، أنه كان يتنفّس بطريقة أسهل .

كان صبيّ المصعد واقفاً ، وبيده المفتاح ، قرب المصعد ينتظرهما . ولكنه لم يصطحبهما حتى غرفتهما التي كانت في الطابق الأول .

صاحت كايكو : ـ ما أجملها غرفة !

كانت الغرفة من قسمين : في الداخل مخدع ، وأمامه حجرة تطلّ من جهة على البحيرة ومن الأخرى على الجبال المحاذية لكيوتو . وكانت نافذة الغرفة ، ربما تقليداً للأبنية ذات الجملون من طراز « مومويامـا »،محاطـة في الخـارج بدرابزين أحمر . وكانت المأطورات التي تغطّي الجدران ومصاريع النوافذ ، وكذلك الزجاج ذو الأطراف السميكة والعوارض الخشبية ، تمنح الغرفة مظهراً هادئاً بالياً بعض الشيء . وكانت النوافذ العريضة بمثل كثافة الجدران .

وبعد قليل ، حملت لهما الخادمة شاياً أخضر .

كانت كايكو واقفة أمام النافذة المطلّة على البحيرة تضمّ بين يديها طرف الستار المصنوع من التخريم الأبيض . وهي لم تلتفت عند دخول الخادمة .

جلس تاشيرو في وسط المقعد الطويل وأخذ ينظر الى الفتاة التي كانت توليه ظهرها . لم تكن ترتدي كيمونو العشيّة نفسه . ولكن حزام « الأوبي » الذي كان مرسوماً عليه قوس قزح ، كان هو نفسه الذي تزنّرت به حين جاءت تلقاه في مطار « ايتامي » .

كانت البحيرة تنبسط الى يسار كايكو . وكانت أشرعة اليخوت العديدة مستديرة كلّها في الاتجاه نفسه . كان معظمها أبيض ، ولكن كان بينها كذلك الأحمر والأزرق الداكن والبنفسجيّ . وكانت قوارب ذاتية التحرّك تُقلع تاركة خلفها خطّاً من الزبد ، ودافعة قطرات ماء .

وكان ضجيج محركات القوارب ينبعث من النوافذ وأصوات الزبائن في حوض الفندق وخرير قاطعةٍ للعشب . وفي داخل الغرفة ، كان يسمع أزيز المكيّف .

انتظر تاشيرو لحظة ريثما تقرّر كايكو أن تتكلم ، ثم تناول فنجاناً على الطاولة وقال :

ـ كايكو ، هل تريدين شاياً ؟

فهزّت الفتاة رأسها نفياً .

ـ لماذا لا تتكلّمين ؟ ما سبب هذا الصمت ؟ هذا قاسٍ منك !

نفضت الستارة وبدت كأنها تترنّح :

ـ ألا ترى أن المنظر على غاية الجمال ؟

ـ هو جميل في الواقع . ولكنني إنما كنت أفكر بجمالك أنت ، يا كايكو . . . . عنقك وهذا « الأوبي » . . .

ـ ألم تكن تفكر بالأحرى في معبد نيسونين ، حين أخذتني بين ذراعيك ؟

ـ ولكن . . . .

ـ ومع ذلك ، فأنا على يقين بأنك عاتبٌ عليّ . لقد أدهشك موقفي وأثار استياءك ، أليس كذلك ؟ إنني أرى ذلك جيداً .

ـ ربما أدهشتني ، في الواقع .

ـ إني مندهشة أنا نفسي لسلوكي . إن مثل هذه الضراوة ، عند امرأة ،هي مخيفة (خفضت كايكو صوتها) أمن أجل هذا ، أراك لا تأتي الى قربي ؟

نهض تاشيرو واقترب منها فوضع يديه على كتفيها . وبضغطة خفيفة من يديه ، قادها نحو المقعد الطويل . فجلست ملتصقة به ، ولكنها خفضت عينيها وتفادت من أن تنظر اليه . ثم تمتمت :

ـ أعطني شاياً .

تناول تاشيرو فنجان الشاي وأدناه من وجهها .

ـ من فمك . . . .

تردّد تاشيرو لحظة ، ثم عبّ في فمه شاياً تركه يسيل شيئاً فشيئاً بين شفتيْ كايكو . وشربت كايكو الشاي ، مغمضة العينين ،مائلة الرأس الى الوراء . وبآستثناء حلقها الذي كان يتجرّع السائل ، كان ذراعاها وساقاها وكل كيانها جامدة كلياً .

قالت ، من غير أن تتحرّك :

ـ أعطني شاياً بعد .

أخذ تاشيرو جرعة أخرى وتركها تسيل في فم الفتاة .

ـ كان هذا لذيذاً ! (فتحت كايكو عينيها) أستطيع ان أموت بعد الآن . ليت الشاي كان سُماً . . . إذن لانتهى كلّ شيء . ولكنت قد مُتّ . وأنت ايضاً ، يا تاشيرو ، كنتَ قد متّ ! (ثم استطردت) التفت الى الجهة الأخرى .

جعلته كايكو يستدير وألصقت وجهها عند منبت ذراعه . ثم ، من غير ان تبدّل وضعها ، ضمّت تاشيرو ضمّاً رقيقاً بذراعيها وبحثت عن يديه . وأمسك تاشيرو بإحدى يدي الفتاة وأخذ ينظر اليها ، فيما أخذ يداعب أصابعها الواحد بعد الآخر .

قالت كايكو : ـ اعذرني . كنت شديدة الشرود ، فلم أنتبه . . . لعلّك تحبّ أن تأخذ حمّاماً ؟ هل تريد أن أذهب فأسيل الماء ؟

ـ بكل رضى .

ـ أو ربما كنت تريد أن تأخذ فقط « دوشاً » ؟

ـ لا بدّ ان رائحتي عَرق . . . أليس كذلك ؟

ـ أحب رائحتك ! إنها المرة الأولى التي تروق لي فيها رائحة الى هذا الحدّ ! (ثم توقفت) ولكن لا شك أنك تحبّ أن تنتعش ؟

نهضت كايكو واختفت في غرفة النوم . وسمع تاشيرو خرير الماء الذي كان يسيل في الحمّام فيما وراء الغرفة .

وفيما كان ينظر الى باخرة متعة تقترب من الفندق ،

أقبلت كايكو تقول له إن حمّامه كان على درجة الحرارة المناسبة .

نظّف تاشيرو بالصابون جسمه المبلّل بالعرق منذ نزهتهما في « ساغا » .

وفجأة ، طرقت كايكو باب الحمام . وخاف تاشيرو أن تدخل الفتاة ، فتقوقع في المغطس .

ـ تاشيرو ، أنت مطلوب على التلفون . . . . فهل تأتي ؟

ـ يطلبونني أنا على التلفون ؟ هذا غير ممكن . من يطلبني ؟ إنه خطأ بالتأكيد .

اكتفت كايكو بالترديد : ـ أنت مطلوب على التلفون .

ـ غريب ! ليس ثمة من يعرف أني هنا .

ـ إن المخابرة ، مع ذلك ، هي لك .

ومن غير أن يأخذ تاشيرو وقته ليجفّف جسمه ، ارتدى كيمونو خفيفاً من القطن وخرج من الحمّام .

ـ أصحيح أني أنا المطلوب ؟

كان وجه الفتى ينطق بالشك . وكان جهاز تلفوني موضوعاً بين سريرين . وإذ كان يقترب منه ، نادته كايكو :

ـ إنه في القاعة الثانية .

وعلى طاولة صغيرة قرب جهاز التلفزيون ، كان ثمة جهاز تلفوني مرفوع السماعة . وفي اللحظة التي كان تاشيرو يلتقط فيها السماعة ويحملها الى أذنه ، قالت له كايكو :

ـ إنهم يطلبونك من كاماكورا ، من بيتك .

ـ ماذا ؟ (امتقع تاشيرو) ولكن كيف . . . . ؟

قالت كايكو بصوت متوتّر :

- إن أمك على الطرف الآخر من الخطّ . أنا التي تلفنت لها . قلت لها إنني كنت معك في « فندق بحيرة بيوا » وأنك وعدتني بأن تتزوّجني . وقلت لها إني كنت آمل أن تمنحنا موافقتها .

حدج تاشيرو كايكو ، ونَفَسُه يكاد ينقطع .

كانت أم تاشيرو قد سمعت طبعاً الكلمات التي نطقت بها كايكو لتوّها . وحين ذهب تاشيرو يأخذ حمّامه ، كان قد أغلق باب غرفة النوم ، وكذلك باب الحمّام ، فلم يستطع بذلك أن يسمع كايكو تتلفن . ألم تكن كايكو هي نفسها التي ألزمته ، تنفيذاً لخطتها ، بالذهاب لأخذ حمّام ؟

- تاشيرو ، هل تاشيرو هنا ؟

كان صوت أمه يرنّ في السمّاعة التي كان تاشيرو يشدّها في يده . وصمدت كايكو دون أن يرفّ لها جفن لنظر الشاب المحدّق فيها . ولم يكن بريق عينيها النافذ إلاّ ليزيدهما جمالاً .

- أليس تاشيرو هنا ؟

قال تاشيرو وهو يُدني السمّاعة من أذنه :

- بلى يا أمي ، أنا هنا .

- تاشيرو ، أنت حقاً ؟

هكذا كرّرت أمه لتقول شيئاً . ووشى صوتها فجأة بهياجها الذي كان مكبوتاً حتى ذلك الحين . ثم أضافت :

- لا تفعل ذلك ، يا تاشيرو ، لا تفعل ذلك !

فلم يجب تاشيرو .

ـ هذه الفتاة ، انت تعرف ايّ نوع من الفتيات هي ، أليس كذلك ؟ لا يمكن لك أن تجهل ذلك ؟

وظلّ تاشيرو على صمته .

وشدّته كايكو ، من الخلف بذراعيها . وأبعدتْ بخدّها ، السمّاعة التي كان يلصقها بأذنه ، وشدّت شفتيها على أذن الشاب ، وقالت :

ـ يا أمّ ، يا أمّ ، أتساءل إذا فهمتِ لماذا تلفنت لك . . . .

وسألت ام تاشيرو :

ـ تاشيرو ، هل تسمعني ؟ منْ على الخطّ ؟

ـ هذا أنا .

تجنّب تاشيرو شفتي كايكو وألصق السمّاعة بأذنه .

ـ ما هذا ؟ أية براعة ! أن تتكلّم هكذا بالتلفون بدلاً منك . . . أهي التي قالت لك أن تتلفن ؟ (كانت أمه ترهقه بالأسئلة) تاشيرو ، عُدْ الى المنزل على الفور ! اترك هذا الفندق فوراً وعُدْ الى المنزل . . . هذه الفتاة تسمعنا ، أليس كذلك ؟ حسناً ، فلتسمع ! أنا أفضّل ذلك ، تاشيرو ، إياك خصوصاً أن تتزوجها ! إنها كائن مرعب ! صدّقني ، أنا أعرف ما أقول . لا تجعلني مرة أخرى شقيّة الى أن أفقد رشدي ! هذه المرّة ، سأموت من ذلك . ولست أقول هذا لأنها تلميذة الآنسة اوينو !

فيما كان يصغي ، كانت كايكو قد وضعت شفتيها على

رقبة تاشيرو . وقد همست له في جوف أذنه :

- لو لم أكن تلميذةالآنسة اوينو ، لما لقيتك أبداً !

وتابعت أم تاشيرو :

- إنها كائن فاسد ! بل أنا أعتقد أنها حاولت أن تغوي أباك !

- ماذا ؟

كان صوت تاشيرو لا يكاد يُسمع حين كان يتلفت نحو كايكو ، وفيما كانت شفتاها لا تزالان لاصقتين برقبته ، حركت رأسها في الوقت نفسه الذي كان يدير فيه رأسه . وأخذهُ إحساس بأنه كان يهين أمه إهانة كبيرة وهو يسمعها فيما كانت كايكو تقبّله .

ومع ذلك ، فلم يكن يستطيع أن يعلّق السماّعة .

- سنتحدث عن هذا كلّه عند عودتي .

- حسناً ! عُدْ الى المنزل على الفور ! إنك ، على الأقل ، لم تفعل شيئاً سيّئاً مع هذه الفتاة ؟ وأنت لا تنوي مع ذلك ان تقضي الليل هناك ؟

فلم يجب تاشيرو .

وتابعت أمه : - تاشيرو ! تاشيرو ! انظر الى عينيها ! فكّر بما تقوله لك ! لأية غاية تظنّ أنت أنها تريد أن تتزوجك ، هي التي هي تلميذة الآنسة اوينو ؟ ألا تدرك أن في الأمر مؤامرة شيطانية ؟ قد لا تكون هذه الفتاة كذلك دائماً ، ولكنها في كل ما يخصّ عائلتنا ، شيطان ! أعرف جيداً، ليس هذا من فعل تخيُّلاتي ! حين ذهبتَ هذه المرة ، كان لديّ إحساس خوف .

وأبوك أيضاً وجد هذه القصة كلها غريبة وساوره القلق . تاشيرو ، اذا لم تعُد فإننا ، ابوك وانا ، سنستقلّ اول طائرة الى كيوتو !

ـ لقد فهمت .

ـ ماذا فهمت ؟ (وتابعت فوميكو كما لتتأكد من الأمر) إنك عائدٌ ، أليس كذلك ؟ ستعود حقاً ؟

ـ نعم .

دلفت كايكو الى غرفة النوم وأغلقت الباب خلفها .

وقف تاشيرو جامداً قرب النافذة ينظر الى البحيرة . وحلّقت فوقه طائرة صغيرة تحليقاً مائلاً وعلى مستوى منخفض قبل أن تبتعد . وكانت قوارب ذاتية الحركة تقفز وهي تنثر الماء عند مرورها . وكانت ثمة امرأة متعلّقة بأحد القوارب ، ممارسة التزلُّج المائي .

وكانت أصوات تَصِلُه من حوض السباحة . كانت ثلاث نساء صبيّات في ثوب البحر متمدّدات على العشب تحت النافذة . وكان بإمكان المرء أن يتساءل إذا لم تكن هذه الغرفة قد صُمّمت لغاية وحيدة وهي تأمُّل هذه الأطياف المثيرة .

ـ تاشيرو ! تاشيرو !

نادته كايكو من غرفة النوم . وحين فتح الباب ، رآها ترتدي ثوب بحر أبيض . أمسك نَفَسه وصرف بصره . كانت بشرة الفتاة الحنطيّة تلتمع ، وهو لم يكد يلاحظ ثوب البحر الصوفيّ الأبيض .

قالت كايكو وهي تتجه الى النافذة :

ـ ما أجمل هذا !

كان ثوب البحر يكشف ظهرها كلّه .

ـ ما أجمل السماء فوق الجبال !

كانت أشعة من الشمس ، شبيهة بريش ذهبية مدبّبة ، تتساقط على الجبال التي كانت تتخايل تجاه السماء .

سأل تاشيرو : ـ أهو جبل « هياي » ؟

ـ نعم . إن أشعة الشمس هذه تشبه رماحاً تخترق قَدرنا ، ومن أجل هذا ناديتك . ما رأيك بتلك المحادثة مع أمك ؟ (والتفتت كايكو الى تاشيرو) أودّ لو تأتي أمك الى هنا . . . وكذلك أبوك . . . .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ هذا صحيح . إنني جادّة في كلامي .

وتعلّقت كايكو ، فجأة ، به :

ـ تعال معي . إنني سأسبح . أنا راغبة في الاستحمام في ماء بارد . لقد وعدتني بهذا ، أليس كذلك ؟ وكنت قد وعدتني كذلك بأن نقوم بنزهة في قارب . أعطيتني هذا الوعد عند وصولك، حين جئت ألقاك في مطار «ايتامي» (وقبعت كايكو بلصقه ، حتى كادت تفقد توازنها) هل ستعود ؟ هل ستعود الى « كاماكورا » بسبب هذه المحادثة مع أمك ؟ إنك توشك ان تتقابل مع والديك. سيأتيان بالتأكيدالى هنا . . . إن أباك لا يحرص على ذلك ، بلا شك ، ولكن أمك ستجبره على هذا .

ـ كايكو ، هل كنتِ قد أغويت أبي ؟

ـ أغويت ؟ (هزّت كايكو رأسها ، ووجهها ملتصق بصدر تاشيرو) وأنت ؟ هل أغويتك ؟ هل فعلت ذلك ؟

كانت ذراعا تاشيرو تحيطان بظهر كايكو العاري .

ـ لست أنا المقصود ، بل أبي . فلا تغيّري الحديث . . . .

ـ بل أنت الذي تغيّره ! أسألك إن كنت قد أغويتك . هذا ما تعتقده ، أليس كذلك ؟

فلم يجب تاشيرو :

ـ أمن المعقول ان يسأل رجل الفتاة التي يمسكها بين ذراعيها إن كانت قد أغوت أباه أم لا ؟ ألا تقرأ في عينيّ الألم الذي تحدثه لي ؟ (أخذت كايكو تبكي) ماذاتريدني أن أجيبك ، يا تاشيرو ؟ إنني أودّ أن أغرق نفسي في البحيرة . . . .

واذ كان تاشيرو يمسك كتفيْ الفتاة المرتعشتين ، أحسّ تحت يده بأحد شريطي ثوب البحر . فخفضه ، كاشفاً حتى النصف عن استدارة نهد ، ثم خفض الشريط الآخر . وترنّحت كايكو ، وقد تعرّى صدرها . . .

ـ لا ، ليس النهد الأيمن ! أرجوك ، ليس النهد الأيمن . . . .

كرّرت كايكو ذلك ، بينما كانت دموعها تسيل من جفونها المغمضة .

خرجت كايكو من الحمام وقد أحاطت نصفها الأعلى بمنشفة كبيرة . وتبعت مع الشاب ممراً وهبطا الى الحديقة .

وعلى شجرة كبيرة أمامهما كانت تتفتّح زهور بيض تشبه الخبّيزة . وكان تاشيرو قد نزع سترته وربطة عنقه .

كان ثمة حوضان للسباحة عن يمين الحديقة المواجهة للبحيرة ويسارها . وكان أطفال يسبحون في الحوض الأيمن المقام وسط المرجة . أما الحوض الآخر فكان قائماً على أكمة صغيرة ، على مبعدة من المرجة .

توقف تاشيرو عند مدخل الحاجز الذي كان يحيط بالحوض الأيسر .

ـ ألا تسبح ؟

ـ لا . إنني أنتظرك .

وكان تاشيرو متردّداً ، بدافع الخجل ، أن يظهر الى جانب كايكو التي كان جمالها يجتذب جميع الأنظار .

قالت كايكو : ـ حقاً ؟ سأقوم فقط بغطسة تبليل . إنها أول سباحة لي في العام ، وأريد أن أرى اذا كنت أسبح جيّداً أم لا .

كانت أشجار كرز وصفصاف باكية تنتصب ، على مسافات متساوية ، على المرجة المحاذية للضفّة .

جلس تاشيرو على مقعد ، في ظل شجرة مسنّة ، وأخذ ينظر في اتجاه المسبح . لم يَرَ اول الأمر كايكو ، ثم لمحها واقفة على المغطس . وبالرغم من أن المغطس لم يكن مرتفعاً جداً ، فإن طيف الفتاة التي كانت تستعد للغطس كان يرتسم على سطح بحيرة بيوا خلفها وعلى الجبال العالية فيما وراء البحيرة . وكانت الجبال في البعيد غارقة في الضباب . وكان

لون وردي ممتقع شبه متلاشٍ يرفّ على أمواج البحيرة المعتمة . وكانت أشرعة اليخوت تعكس أصباغ الشفق الساكنة . وغطست كايكو ، في آنبثاقة من الماء .

وحين خرجت من المسبح ، استأجرت قارباً ذاتي الحركة ودعت تاشيرو الى الصعود اليه معها .

ـ سيهبط الليل عما قريب . ماذا لو أجّلناذلك الى غد ؟

ـ غد ؟ هل قلت حقاً الى غد ؟ (قالتها كايكو وقد التمعت عيناها) إذن ، أنت باقٍ ؟ هل تنوي حقاً البقاء الى غد ؟ ولكن أنى لي أن أعرف . . . أوفِ على الأقل بأحد وعودك . . . إننا لن نذهب بعيداً جداً ، وسنعود سريعاً . إني راغبة ان أبتعد ، لفترة قصيرة ، عن الشاطىء معك . أودّ لو نشقّ أمواج القَدر وأن نطفو مع هوى المياه . . . إن الغد يفرّ دائماً . . . فلنذهب اليوم !

قالتها كايكو وهي تشدّ تاشيرو من يده .

ـ أنظر عدد القوارب واليخوت التي لا تزال في البحيرة !

بعد ذلك بثلاث ساعات ، علمت اوتوكو ، وهي تستمع الى الأخبار في الاذاعة ، أن حادثاً وقع في بحيرة بيوا . فهرعت بالسيارة حتى الفندق حيث وجدت كايكو في السرير .

وكانت قد سمعت من الاذاعة أن فتاة اسمها الأول كايكو أنقذها أحد اليخوت . وحين دخلت اوتوكو القاعة ، سألت الخادمة المكلّفة بالسهر على كايكو :

ـ ألا تزال فاقدة الوعي ؟ أم أنها تنام ؟ ما الذي

حدث ؟

فأجابت الخادمة :

- لقد أعطيت حقنة حى تنام .

- حقنة ؟ إنها إذن خارج الخطر ؟

- نعم . قال الطبيب إنه لم يكن ثمة أي داعٍ للقلق . لقد كانت تبدو ميتة حين أنزلها اليخت على الشاطىء ، ولكنها استعادت وعيها حين جعلوها تقيء الماء كلّه الذى كانت قد ابتلعته وحين عمدوا الى التنفّس الاصطناعي . واذ ذاك أخذت تتخبّط كأنها مجنونة وهي تصيح بأسم الرجل الذي كان بصحبتها . . .

- وهذا الشاب ، ماذا حدث له ؟

- لم يُعثر عليه بعد ، بالرغم من جميع الجهود .

- لم يُعثر عليه بعد ؟

ردّدت اوتوكو ذلك بصوت مرتجف . واقتربت من النافذة التي تطلّ على البحيرة ونظرت الى الخارج . كانت القوارب الذاتية الحركة مضيئة أنوارها ، تحرث من جميع الجهات مياه البحيرة السوداء ، الى يسار الفندق .

قالت الخادمة : - إن جميع قوارب المنطقة موجودة هنا ، وليس فقط قوارب الفندق . هناك ايضاً قوارب الشرطة . لقد أشعلوا كذلك نيران أعياد . ولكني أخشى أن يكون قد فات الأوان لإنقاذه .

تشبّثت أوتوكو بستارة النافذة .

وبعيداً عن حركة القوارب وأنوارها المقلقة ، كانت

باخرة مُتعة ، مزينة بفوانيس حمر ، تقترب متمهّلة من ضفة الفندق . وفي الجهة المقابلة ، كانت نيران أخرى تُلهب السماء .

حين لاحظت أوتوكو أن ركبتيها كانتا ترتجفان ، انتابت جسمها كلّه رعشات ، وخيِّل اليها أن فوانيس سفينة المتعة الحمر كانت ترتعش هي أيضاً . وتماسكت بقوة على قدميها ، واستدارت عن النافذة . كان باب غرفة النوم مفتوحاً . واستوقف نظرها سرير كايكو ، فسارعت اليها ، كما لو أنها نسيت أنها سبق أن دخلت هذه الغرفة ثم غادرتها .

كانت كايكو نائمة بسكون ، وكان تنفّسها منتظماً . وتفاقم قلق اوتوكو :

ـ أيمكن ان تُترك هكذا ؟

قالت الخادمة : ـ نعم .

ـ ومتى تستيقظ ؟

ـ لا أدري .

وضعت أوتوكو يدها على جبين كايكو . كانت بشرة الفتاة الباردة والرطبة بعض الشيء تبدو وكأنها تلتصق براحة اوتوكو . وكانت الألوان قد انسحبت من وجه كايكو الممتقع . حمرة خفيفة فقط كانت تلوّن خدّيها .

كان شعر الفتاة الذي تشابك حين جفّفته ينبسط متشعّثاً على الوسادة . وكان من شدّة السواد بحيث كان يظنّه المرء ما يزال مبتلاً . وكان يُلمح بين شفتيها أسنانُها الجميلة . أما ذراعاها ، فكان يغطّيهما اللحاف . وفيما كانت ترتاح ،

ورأسها ملتفت نحو الأعلى ، كانت براءة وجهها النائم ونقاؤه يوقعان في نفس أوتوكو التأثر والاضطراب . كان وجه الفتاة يبدو وكأنه يريد أن يأخذ إجازة من أوتوكو ومن الحياة .

وإذ مدّت اوتوكو ذراعها لتهزّ كايكو وتوقظها ، سمعت على باب الغرفة المجاورة طرقاً .

توجهت الخادمة الى الباب تفتحه .

ودخل اوكي توشيو وزوجته الى الغرفة . وما كاد نظر أوكي يلاقي نظر أوتوكو حتى تسمّر في مكانه .

قالت فوميكو : ـ أنت الآنسة اوينو ، أليس كذلك ؟ هكذا ، هذه أنت .

كانت هي المرة الأولى التي تلتقي فيها المرأتان .

ـ إذن ، فبسببك أنت مات تاشيرو !

كان صوت فوميكو بارداً وخالياً من أي انفعال .

فتحت اوتوكو فمها، ولكنْ لم يخرج منه أيّ صوت. وآستندت بإحدى يديها على سرير كايكو . وإذ ذاك اقتربت منها فوميكو . فارتدّت اوتوكو الى الخلف كما لتهرب .

وقبضت فوميكو على كايكو بيديها الاثنتين وهزّتها وهي تصرخ :

ـ استيقظي ! آن لك ان تستيقظي !

وبقدر ما كانت يداها تقسوان ، كان رأس الفتاة يتمايل على الوسادة .

ـ ولكن استيقظي ! لماذا لا تستيقظين ؟

قالت أوتوكو :

ـ لقد أعطوها مسكّناً لجعلها تنام . فهي لن تستيقظ .

قالت فوميكو وهي ما تزال تهزّ الفتاة : ـ ان عندي شيئاً أطلبه منها . إنه يتعلّق بحياة آبني !

قال أوكي : ـ ستطلبينه منها فيما بعد . إن جميع هؤلاء الأشخاص في البحيرة يبحثون عن تاشيرو .

ثم أمرّ ذراعه حول كتفي زوجته وغادرا الغرفة .

أطلقت اوتوكو تنهيدة عميقة ووقعت على السرير وهي تنظر الى وجه كايكو النائم . كانت دموع تتلألأ في زوايا عيني الفتاة .

ـ كايكو !

فتحت كايكو عينيها . وكانت دموعٌ تلتمع فيهما حين رفعتهما نحو اوتوكو .

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير

هاتف: ٢٧٧١٨٤ - ٢٧٦٥٣٨ - بيروت - لبنان

هـ...

اوكي توشيو ، الكاتب المعروف ، يعزم على الارتباط مرة أخرى بماضيه حين يزور « كيوتو » ليستمع فيها ، عشيّة رأس السنة ، الى أجراس الأديرة التي تعلن انتهاء العام . وهو يأمل ، إذ يقوم بذلك ، ان يلتقي ، مـــرة أخرى ، تلك التي كانت عشيقته قبل ذلك بعشرين سنة : اوتوكو التي أصبحت رسامة مشهورة ، وكانت تعيش في « كيوتو » مع « كايكو » ، وهي فتاة ذات جمال أخّاذ ، وطبيعة ملتهبة ، كانت تصمّم على القيام بانتقام فريد ... ، انتقام يُحبط ، بنتيجة الفاجعة ، كلّ محاولة « لأوكي » بان يبعث ذلك الماضي ...

« حزن وجمال » هي آخر رواية كتبها ياسوناري كاواباتا الذي نـــال جائـــزة نوبـــل عـــام ١٩٦٨ قبل ان ينتحر في ١٦ نيسان ١٩٧٢ .

روايـــة كاملـــة شديـــدة الغنى ، تمـــتزج فيها تأمّلات سيكولوجية عميقة ونظرات لاتقل عمقاً الى معنى خلود الفنّ والأدب ، ووصف ساحر لحدائق اليابان ومناظرها . وهـي ، قبل ذلك ، تأمّل دقيق في نظريات أثيرة لدى كاواباتا ، كالوحدة والموت والحب والعشق والجمال .

الثمن : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها